



جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

جماليات السرد النسوي في أحاديث ابن دريد
(دراسة في الرؤيا والتشكيل)

إعداد الطالبة
إنعام زعل عودة القيسي

إشراف
الأستاذ الدكتور شفيق محمد الرقب

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة
الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2013

فهرس المحتويات

الصفحة	المحتوى
أ	الإهداء
ب	الشكر والتقدير
ج	فهرس المحتويات
و	الملخص باللغة العربية
ز	الملخص باللغة الإنجليزية
1	المقدمة
4	الفصل الأول: السرد النسوي في أحاديث ابن دريد (مفهومه، وامتداده الزماني والمكاني، وأشكاله)
4	1.1 مفهوم السرد النسوي
7	1.1.1 المرأة منتجة للخطاب السردى الداخلى
12	2.1.1 المرأة موضوعاً للخطاب السردى الذكري والأنثوي معاً
15	3.1.1 المرأة متلقية للخطاب السردى
18	2.1 الامتداد الزماني والمكاني لأحاديث النسوة
19	1.2.1 الماضى البعيد
23	2.2.1 الماضى القريب
27	3.2.1 العصر الأموي
29	4.2.1 العصر العباسي
32	3.1 أشكال السرد النسوي
34	1.3.1 الخبر الأدبي القصصي وغير القصصي
39	2.3.1 الحكاية
43	3.3.1 النادرة
47	الفصل الثاني: السرد النسوي في أحاديث ابن دريد: الرؤى
48	1.2 عالم الغيب والمرأة

48	1.1.2 عالم الكهانة
53	2.1.2 العرَافةُ
56	3.1.2 اتصال البشر بالجن
58	4.1.2 معرفة أحوال السماء وتقدير فرص سقوط المطر
59	2.2 المرأة وشؤون القبيلة والمجتمع
59	1.2.2 إدارة شؤون الرعية
60	2.2.2 موقف المرأة من الصراع السياسي
65	3.2 مشكلات المرأة الاجتماعية
65	1.3.2 تعدد الزوجات
67	2.3.2 رفض تجربة المرأة في الحب
68	3.3.2 الحرمان من حرية اختيار الزوج
70	4.3.2 تعرض المرأة للتحرش والإيذاء النفسي
72	5.3.2 عدم امتلاك الزوج القوامة على الأسرة
72	6.3.2 شكُّ الزوج وسوء ظنه
74	7.3.2 طلاق المرأة
76	8.3.2 الخصام والتشاحن والمشاتمة
76	4.2 صورة المرأة
77	1.4.2 المرأة الخائنة
80	2.4.2 المرأة غير الوفية
81	3.4.2 الأم وترقيص الأطفال
83	4.4.2 المرأة التكلية
85	5.4.2 المرأة العاذلة
87	6.4.2 المرأة المهذبة الطيبة الوفية
88	7.4.2 المرأة الحسناء المرغوب فيها
89	8.4.2 المرأة المرغوب عنها

91	5.2 صورة الرجل
91	1.5.2 صورة الزوج المرغوب فيه
96	2.5.2 صورة الرجل الواقعية
102	الفصل الثالث: السرد النسوي في أحاديث ابن دريد: التشكيل
102	1.3 بنية الاستهلال السردى
109	2.3 الشخصيات
119	3.3 بنية الزمن الفني ودلالته
120	1.3.3 التسريع السردى
127	2.3.3 التبطئ السردى
133	3.3.3 الاسترجاع
136	4.3.3 الاستباق
139	4.3 شعرية الخطاب السردى
150	الخاتمة
154	المراجع

ملخص

جماليات السرد النسوي في أحاديث ابن دريد (دراسة في الرؤيا والتشكيل)

إنعام زعل عودة القيسي

جامعة مؤتة، 2013

تناولت هذه الدراسة جماليات السرد النسوي في أحاديث ابن دريد: الرؤيا والتشكيل؛ وذلك من خلال استقراء النصوص المتعلقة بالنسوة، وتنطلق هذه الدراسة من ثلاثة أبعاد تتمحور حول علاقة المرأة العربية بالخطاب الأدبي، هي: المرأة منتجة للخطاب الأدبي، والمرأة موضوعاً للخطاب الأدبي الذكري والأنثوي معاً، والمرأة العربية منلقية للخطاب الأدبي.

وقد جاءت الرسالة في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة. تناولت في المقدمة أهمية دراسة جماليات السرد النسوي في أحاديث ابن دريد، من حيث الرؤيا والتشكيل. وأسباب اختيار الموضوع والأهداف التي تسعى إليها الدراسة. تناول الفصل الأول مفهوم السرد النسوي في أحاديث ابن دريد، وامتداده الزماني والمكاني، وأشكاله. أما الفصل الثاني فقد تناول الموضوعات والقضايا التي دار حولها السرد النسوي، وهي عالم الغيب والمرأة، والمرأة وشؤون القبيلة والمجتمع، ومشكلات المرأة الاجتماعية، وصورة المرأة وصورة الرجل. أما الفصل الثالث فقد تناول قضايا التشكيل الفني في أحاديث النسوة، وهي بنية الاستهلال السردية، والشخصيات، وبنية الزمن الفني ودلالته، وشعرية الخطاب السردية.

وتضمنت الخاتمة النتائج التي انتهت إليها الدراسة التي تكشف بصورة عامة عن أنه كان للمرأة العربية حظٌ وافرٌ من المشاركة في ميادين الحياة المختلفة.

Abstract

The Aesthetic of the Feminist Narrative in Ibn Duraid's Tales: the Topics and Contents and Artistic Construction

Ina'm Zaal al-Qaysi

Mu'tah University, 2013

This study discusses the aesthetic of the feminist narrative in Ibn Duraid's tales: the topics and contents and artistic construction; through extrapolation of texts, launched this study of three dimensions centered on the relationship between women and narrative, are: Women productive narrative, women subject of narrative male and female together, and Arab women recipients of literary discourse, where express their independence in her masculinity.

This study consists of an introduction three chapters and conclusion. In the first chapter discusses the importance of studying the aesthetic of the feminist narrative in Ibn Durayd's tales from several aspects and discusses the concept of feminist narrative, its literary forms its times and places. The second chapter deals with the topics and issues which related to women affairs.

The third chapter discusses the esthetic of the feminist narrative, taking in consideration the importance of narrative prelude, the levels of narration, characters, structure of time, and the poetic aspects of the feminist narrative as elements of tales structure.

In the conclusion the researcher includes the result of this research work.

المقدمة

لقد حظيت أحاديث ابن دريد التي أوردها أبو علي القالي في أماليه، وابن دريد في تعليق من أماليه باهتمامٍ عددٍ كبيرٍ من دَارسِي الموروث العربي القديم؛ وقد اتَّجه جُلُّهم إلى الكشف عن الجوانب اللغوية في الأحاديث، أو أثرها في نشأة مقامات بديع زمان الهمذاني، وكان منهم على سبيل المثال: أحمد درويش، في مقالته المعنونة بـ(البناء الفني لأحاديث ابن دريد وأصدائه في مقامات بديع الزمان الهمذاني)، هذه المقالة التي تحولت فيما بعد إلى كتاب بعنوان (ابن دريد رائد فن القصة العربية)، وقد أضاف فيه إلى دراسته السابقة تصنيف تلك الأحاديث وتبويبها. ومنهم أيضاً إكرام فاعور، في دراستها الموسومة بـ (مقامات بديع الزمان الهمذاني وعلاقتها بأحاديث ابن دريد). ومنهم أيضاً زكي مبارك، في كتابه المشهور (النثر الفني في القرن الرابع الهجري).

وعلى الرغم من أن أحاديث ابن دريد جاءت عامة في خطاباتها، وكانت السيطرة الإنتاجية للذكور زماناً ومكاناً، فقد تضمنت عدداً من الخطابات النسوية؛ أي أن ابن دريد اعتنى عناية لافئة للانتباه بحضور الأنثى في أحاديثه؛ وعلى الرغم من أهمية السرد النسوي في أحاديث ابن دريد، فإنها لم تحظ بالاهتمام المناسب بها، في أي من الدراسات الحديثة التي أشرت إليها. ومعظم ما نجده عن خطاب النسوة إشارات عامة في دراسة عبد الحي الحوسني، المعنونة بـ (نثر المرأة من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي)، إضافة إلى دراسة فايز القيسي، المعنونة بـ (جماليات الخطاب النسوي في أحاديث ابن دريد: حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام أنموذجاً)، التي اقتصرت كما يشي العنوان على دراسة خطاب النسوة في حديث واحد فقط.

وتتناول هذه الدراسة السرد النسوي في أحاديث ابن دريد: الرؤيا والتشكيل؛ وذلك من خلال استقراء النصوص المتعلقة بالنسوة؛ أي التي تقع في إطار خطاب النسوة بعيداً عن بعض المقولات مثل ذكورية اللغة، وذكورية الخطاب، وتنطلق هذه الدراسة من ثلاثة أبعاد تتمحور حول علاقة المرأة العربية بالخطاب السردِي، هي: المرأة منتجة للخطاب السردِي، والمرأة موضوعاً للخطاب السردِي الذكري

والأنثوي معاً، والمرأة العربية متلقية للخطاب السردى، حيث تعبر عن قدرتها على الاستقلال في خطابها عن الذكورة.

وقد سعت هذه الدراسة إلى استخلاص السرد النسوي في أحاديث ابن دريد، وتفكيك بنيته بتجلياتها المختلفة كالخبر القصصي وغير القصصي والنادرة والحكاية والقصة، وتصنيفها واستنطاقها والكشف عن دور المرأة في النسيج الثقافي والاجتماعي في المجتمع العربي، وتقديم قراءة نقدية لصورة المرأة العربية في السرد النسوي، وإبراز خصوصيات الخطاب النسوي وكشف أبعاده على مستويي الرؤيا والتشكيل الفني.

وقد جاءت الرسالة في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة. تناولت في المقدمة أهمية دراسة جماليات السرد النسوي في أحاديث ابن دريد، من حيث الرؤيا والتشكيل الفني. وأسباب اختيار الموضوع والأهداف التي تسعى إليها الدراسة. وتناول الفصل الأول مفهوم السرد النسوي في أحاديث ابن دريد، وامتداده الزماني والمكاني، وأشكاله. أما الفصل الثاني فقد تناول الموضوعات والقضايا التي دار حولها السرد النسوي، وهي عالم الغيب والمرأة، والمرأة وشؤون القبيلة والمجتمع، ومشكلات المرأة الاجتماعية، وصورة المرأة وصورة الرجل. أما الفصل الثالث فقد تناول قضايا التشكيل الفني في أحاديث النسوة، وهي بنية الاستهلال السردى، والشخصيات، وبنية الزمن الفني ودلالاته، وشعرية الخطاب السردى.

وتضمنت الخاتمة النتائج التي انتهت إليها الدراسة التي تكشف بصورة عامة عن أنه كان للمرأة العربية حظ وافر من المشاركة في ميادين الحياة المختلفة، من خلال أدوارها وأوضاعها الاجتماعية المختلفة: أمّاً وأختاً وزوجة وبنياً وعاشقة وجارية وملكة وغير ذلك من المواقع. كما أنها استطاعت أن تبوح بمكنونها وتعبر عن شجونها وشؤونها في قضايا أنثوية خاصة مختلفة. إلى جانب التعبير عن قضايا عامة وثيقة الصلة بوجودها الاجتماعي ومشاركتها في ميادين الحياة المختلفة، وذلك وفق طبيعة التكوين الثقافي والاجتماعي للقبيلة أو المجتمع العربي آنذاك.

وقد كشفت هذه الرسالة عن أن السارد قدم أحاديث النسوة في إطار البناء السردى التقليدي للحكايات أو الأخبار الأدبية، وهو بناء يرتبط بشخصيتي الراوي والبطل وبنية الاستهلال السردى، ومستويات السرد، والشخصيات، وبنية الزمن الفنى المتخيل، وشعرية الخطاب السردى، الذى قام على الجمع بين متطلبات المعنى وجماليات التعبير الأدبى فى الأحاديث، وجعلها تقترب من الشعر، وتستعير بعضاً من سماته الفنية العامة.

وقد حرصت - قدر المستطاع - أن تكون نصوص الخطاب النسوي أساس النظر، ومحل التأمل والمتابعة، ومنطلق بناء الأحكام، وتدوين وجهة النظر المبنية على الأدلة والبراهين.

وعلى الرغم ما تقدم فإنني أعترف أن هذا العمل لا يخلو من العيوب والمآخذ؛ ذلك أن النقص مستول على بني البشر، ما يجعل الدراسة بحاجة ملحة إلى ملحوظات الأساتذة الأجلاء الذين شرفوني بمناقشة هذا العمل، آملاً من هؤلاء الأساتذة الفضلاء أن ينظروا إلى هذا العمل بعين الرضا والقبول التي هي كليلة عن كل عيب، ولهم عظيم الجزاء من الله تعالى، وخالص الشكر مني، ولنعم عملهم. والحمد لله إنه نعم المولى ونعم النصير.

الفصل الأول

السرد النسوي في أحاديث ابن دريد (مفهومه، وامتداده الزماني والمكاني، وأشكاله)

1.1 مفهوم السرد النسوي

تعدُّ أحاديث أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت 321هـ/932م)⁽¹⁾

(1) لست أرى من الضروري أن أخص حياة أبي بكر بن دريد بدراسة في مقدمة هذه الدراسة، فقد ترجم له وعرف بترائيه اللغوي والأدبي عدد من مؤلفي كتب التراجم العربية القدامى. كما كتب عنه عدد آخر من الباحثين المحدثين دراسات كثيرة. فهو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي من أئمة اللغة والأدب، كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء، وهو صاحب المقصورة الدريدية، ولد في البصرة وانتقل إلى عُمان فأقام فيها اثني عشر عاماً وعاد إلى البصرة ثم رحل إلى نواحي فارس فقلده آل ميكال ديوان فارس، ومدحهم بقصيدته المقصورة، ثم رجع إلى بغداد واتصل بالمقتدر العباسي فأجرى عليه في كل شهر خمسين ديناراً، فأقام إلى أن توفي. انظر: ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ/932م)، "من أخبار أبي بكر بن دريد"، تحقيق عبدالحسين المبارك، المورد، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، م 7، ع 1، 1978، ص 153-170؛ الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 379هـ/989م)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1973، ص 183-184؛ القفطي، أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (ت 646هـ/1248م)، المحمدون من الشعراء وأشعارهم، تحقيق حسن معمري، مراجعة حمد الجاسر، دار اليمامة الرياض، 1970، ص 201-204؛ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681هـ/1282م)، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج 3، ص 448؛ السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت 911هـ/1505م)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة، 1964، ج 1، ص 76؛ السنوسي، السيد مصطفى، ابن دريد حياته وتراثيه اللغوي والأدبي؛ دار الآداب، القاهرة، 1993؛ الشهري، محمد ابن ناصر، "شخصية ابن دريد من خلال شعره"، في ابن دريد الأزدي: أعلم الشعراء وأشعر العلماء، منشورات جامعة آل البيت، 1432هـ/2011م، ج 1، ص 13-31.

التي أورد كثيراً منها أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي (ت 356هـ / 967م)⁽¹⁾ في أماليه، وأورد بعضاً منها ابن دريد في ما وصل إلينا من أماليه⁽²⁾، وأخباره المنثورة⁽³⁾ شكلاً مبكراً من أشكال الموروث السردى العربى القديم.

وعلى الرغم من أنّ هذه الأحاديث جاءت عامة في خطاباتها، وانفتحت على عوالم مختلفة تشمل الأعراب والبادية والتاريخ والحكمة والكهانة والمخاصمة وغيرها⁽⁴⁾، فقد تضمنت عدداً من الخطابات النسوية، التي تكشف عن أنّ ابن دريد اعتنى عناية لافتة للانتباه بحضور الأنثى في أحاديثه، وهو أمر ينبئ عن أنه كان للمرأة العربية حظ وافر من المشاركة في ميادين الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية المختلفة.

(1) أبو علي إسماعيل بن القاسم بن القالي (ت 356هـ / 967 م)، يعد من أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب. ولد ونشأ في منازل جرد (على الفرات الشرقى بقرب بحيرة وان) ورحل إلى العراق، فتعلم في بغداد وأقام فيها خمساً وعشرين سنة، ثم رحل إلى المغرب سنة 328هـ، فدخل قرطبة في أيام عبد الرحمن الناصر واستوطنها، وأحبه الحكم المستنصر بن الناصر. ويقال: إنه هو كتب إليه ورغبه في الوفود عليه، وكان الحكم قبل ولايته الأمر - وبعد توليه - يشجعه على التأليف بوسع العطاء، ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام، ومات أبو علي في أيامه بقرطبة سنة 356هـ. من أشهر تصانيفه كتاب الأمالي، والبارع في اللغة، والمقصود والممدود والمهموز، والأمثال وهو مرتب على حروف المعجم. انظر ترجمته في: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 185-186؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص 448؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج 2، ص 76.

(2) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ / 932م)، تعليق من أمالي ابن دريد، تحقيق السيد مصطفى السنوسي، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1984.

(3) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ / 932م)، "من أخبار أبي بكر بن دريد"، تحقيق عبدالحسين المبارك، المورد، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، م 7، ع 1، 1978، ص 153-170.

(4) لمزيد من التفصيل حول موضوعات أحاديث ابن دريد، انظر: بوحجام، محمد بن قاسم، "دراسة في أحاديث ابن دريد"، في ابن دريد الأزدي: أعلم الشعراء وأشعر العلماء، منشورات جامعة آل البيت، 1432هـ / 2011م، ج3، 1627-1660، ص 1630؛ مبارك، زكي، النثر الفنى في القرن الرابع الهجرى، دار الجيل، بيروت، 1975، ج 1، ص 231-232.

إن استقراء نصوص الأحاديث المتعلقة بالنسوة تستدعي أمرين هما: تحديد مفهوم السرد، وتبيان علاقته بالمرأة في أحاديث ابن دريد، فالسرد " عرض لحدث، أو سلسلة من الأحداث، واقعية أو خيالية بواسطة اللغة، وبخاصة اللغة المكتوبة"⁽¹⁾؛ وذلك من خلال تضافر ثلاثة عناصر أساسية تكوّن البنية السردية للخطاب، هي: راوٍ ومرويٍّ ومرويٍّ له. والراوي هو الشخص الذي ينشئ الحكاية أو يرويها أو يُخبر عنها سواء أكانت حقيقية أو متخيلة، ويقوم بإرسالها من خلال موقعه وزاوية رؤيته. أما المرويُّ فهو ما يصدر عن الراوي، وينتظم ليشكل مجموعة من الأحداث التي ترتبط بشخصيات في إطار من الزمان والمكان. وتشكّل الشخصيات حجر الزاوية؛ إذ ترتبط بها الأحداث ارتباطاً وثيقاً، ودونها لا يمكن أن يتشكل البناء السردية، فالأحداث نقل وتصوير لما يحصل مع الشخصيات، داخل الخطاب السردية، ومن هنا تكتسب الشخصيات في أي عمل سردي أهمية كبيرة؛ ذلك أن " التيبولوجيات المضمونية تعتمد في إقامة تصنيفها على الصلة الوثيقة بين الشخصيات والأحداث، باعتبارهما المكونين الأساسيين للسرد، وذلك أنه ليس هناك شخصية خارج الحدث، كما أنه ليس هناك حدث بمعزل عن الشخصية"⁽²⁾. أما المروي له فهو الذي يتلقى المبنى الحكائي، ويكون حقيقياً أو متخيلاً من قبل الراوي. وتختلف طريقة تلقي المتن الحكائي باختلاف أيولوجية المتلقين وأنماط تفكيرهم⁽³⁾.

(1) مرتاض، عبدالملك، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 240، ديسمبر/ كانون الأول، 1998، ص 252. وانظر أيضاً: شريم، جوزيف ميشال، دليل الدراسات الأسلوبية، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1987، ص 16.

(2) بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990، ص 218.

(3) حول مفهوم السرد ومكوناته، انظر: خليفة، علي محمد السيد، بنية السرد في النادرة (نوادير الأعراب في كتاب عيون الأخبار نموذجاً)، ط1، دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2010، ص 21-28؛ إبراهيم، عبدالله، السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص 11؛

أما السرد النسوي، فهو السرد الذي تشكل فيه المرأة أو عالمها عنصراً رئيساً في بناء النص، ومكوناً أساسياً للسرد؛ فالنص السردى النسوي في أحاديث ابن دريد هو السرد الذي يتميز بحضور الأنثى في هذه الأحاديث حضوراً فاعلاً ومؤثراً، ومشاركتها في الفن السردى على وجوه متنوعة، وبمستويات متعددة، من خلال أدوارها وأوضاعها الاجتماعية المختلفة؛ وذلك وفق طبيعة التكوين الثقافى والاجتماعى للقبيلة أو المجتمع العربى آنذاك. وقدرة المرأة على البوح بمكنونها والتعبير عن شجونها وشؤونها في قضايا أنثوية خاصة بها، أو قضايا عامة مختلفة ذات علاقة بمحيطها الاجتماعى والسياسى، وهو يعد لونهاً من ألوان الأدب النسائى⁽¹⁾، الذى يتمحور حول وعى المرأة بذاتها ودورها فى الحياة بأبعادها المختلفة.

ومهما يكن من أمر، فإن البحث فى بلاغة السرد النسوي فى أحاديث ابن دريد يقوم على تحديد علاقة المرأة بالسرد، من خلال ثلاثة أبعاد رئيسية، تتمحور كلها حول وعى المرأة بذاتها ودورها، وتتكامل فى آن واحد، حتى لتصل - أحياناً - إلى درجة التوحد، وهى:

1.1.1 المرأة منتجة للخطاب السردى الداخلى:

يقوم هذا اللون من السرد على استحواذ المرأة على إنتاج مسرودها؛ فـ " لا تترك لغيرها من الشخوص المشاركة فى إنتاج السرد إلا بقدر محدود"⁽²⁾، فهى

عبدالواحد، عمر محمد، شعرية السرد: تحليل الخطاب السردى فى مقامات الحريرى، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا، ص 19.

(1) حول مفهوم الأدب النسائى، انظر: الروبلى، ميجان و البازعي، سعد، دليل الناقد الأدبى، المركز الثقافى العربى، بيروت، الدار البيضاء، ص 224-225؛ علوش، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، دار الكتاب اللبنانى، 1985، ص204.

(2) انظر: العلى، رشا ناصر " ركائز السرد النسوي وخصائصه"، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع 75 شتاء-ربيع، 2009، ص 149-153، ص 151؛ شلبى، طارق، " بلاغة السرد النسوي للكاتب محمد عبدالمطلب"، مجلة " فصول، الهيئة

تسيطر سيطرة كبيرة على السرد، ومن ثم على زاوية النظر إلى مجريات الأحداث والشخص، ويتجلى ذلك في تلك الأحاديث التي تبوح فيها المرأة بمكنونها وتعبر عن شجونها وشؤونها في قضايا أنثوية خاصة مختلفة، أو قضايا عامة وثيقة الصلة بوجودها الاجتماعي ومشاركتها في ميادين الحياة المختلفة، وذلك وفق طبيعة التكوين الثقافي والاجتماعي للقبيلة أو المجتمع العربي آنذاك؛ أي أن المرأة تستخدم السرد وسيلة لتحقيق غرض جمعي أو فردي ما، وتكون المرأة في هذه الحالة طرفاً قوياً، ذا حضور مؤثر وفاعل في الأحداث، فتتسّم سلطة الحكي أو السرد، وتغدو بلاغتها وسيلة لاحتواء سلطة الرجل أو القبيلة أو المجتمع، أو مقاومتها، أو كشف ضعف هذه العناصر وتراخيها.

ومن الأمثلة على ذلك حديث النسوة اللاتي أشرن على بنت الملك بالتزوج ووصفن لها محاسن الزوج، فقد كان قَيْلٌ من أقبال حَمِيرٍ مُنِعَ الولدَ دهرًا ثم وُلِدَتْ له بنتٌ فَبَنَى لها قصرًا مُنِيفًا بعيداً من الناس، ووَكَّلَ نساءً من بنات الأقبال يَخْدُمُنَهَا وَيُؤَدِّبُنَهَا حتى بلغت مبلغ النساء، فقلن لها يوماً: يا بنت الكرام، لو تَزَوَّجْتَ لَتَمَّ لك المَلِكُ، فقالت: وما الزَّوْج؟ فراحت كل واحدة منهن تحكي لها مزايا الزواج، فقالت: أَمُهْلَنِي أنظر فيما قلتن، فاحتجبت عنهنَّ سبعاً ثم دَعَتْهُنَّ فقالت: قد نظرت فيما قلتن؛ فاخترت أحدهم وهو يَعْلَى بن هَزَّال فتزوجته، فاحتجبت عن نساءها شهراً ثم بَرَزَتْ لهن، فأجزلت لهن العطاء⁽¹⁾.

تظهر المرأة في هذا الحديث وحدها صانعة للموقف ومحركة له وقائمةً بالقول فيه؛ فهي تقوم بالدور الأساسي والمحوري في العملية السردية، وتدور في فلكها الشخصيات الأخرى، المتمثلة في الرجال، الذين بدت أدوارهم ثانوية.

وتسيطر المرأة على السرد في الأحاديث التي تكون تمثيلاً لذات المرأة المعذبة التي تشعر بالفقد، سواء فقد الزوج أو الأبناء، أو الحبيب أو الأهل، وغيرها من أشكال المعاناة التي تقهر المرأة في مجتمع يُكرِّس للذكورية، ومن ثم تسعى

المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع 75 شتاء-ربيع، 2009، ص 144-148، ص

(1) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 80-81.

الذات الأنثوية في سردها لتجاوز هذه المعوقات، حتى لو كان ذلك عبر الخيال؛ أي من خلال صنع عوالم بديلة أو متخيلة تساعد على تخطي هذه المعوقات، التي تفرضها عليها سلطات الأعراف والتقاليد الاجتماعية، التي تكبلها وتحاصرها، ومن ذلك حديث المرأة التي سكنت البادية قريباً من قبور أهلها، وقد التقاها الأصمعي، يوم دُفع في تلمسه بالبادية إلى وادٍ خلاء لا أنيس به إلا بيت بفنائها أعنز وقد ظمى، فيممه، يقول: " فسلمت، فإذا عجوز قد برزت كأنها نعاماً راحم، فقلت: هل من ماء؟ فقالت: أو لبن؟ فقلت: ما كانت بغيتي إلا الماء، فإذا يسرَّ الله اللبن فإني إليه فقير، فقامت إلى قعب فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله ثم جاءت إلى الأعنز فتغبرت حتى احتلبت قراب ملء القعب، ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وطفت ثمالة كأنها غمامة بيضاء، ثم ناولتني إياه فشربت حتى تحببت رياً، واطمأننت فقلت: إني أراك معتزة في هذا الوادي الموحش، والحلة منك قريب، فلو انضمت إلى جنابهم فأنست بهم! فقالت: يا ابن أخي، إني لأنس بالوحشة، وأستريح إلى الوحدة، ويطمئن قلبي إلى هذا الوادي الموحش، فأتذكر من عهدت، فكأني أخاطب أعيانهم، وأتراءى أشباحهم، وتتخيل لي أندية رجالهم، وملاعب ولدانهم، ومندى أموالهم... فنظرت، فإذا قبورٌ نحو أربعين أو خمسين" (1).

إن سرد المرأة هنا يشكل العنصر الأساسي في الحديث، ويكشف عن خطاب أنثوي نشأ من داخل تجربة المرأة الواقعية، ومن وعيها؛ فهي تنتج سردها الخاص الذي تعبر فيه عن مرارة تجربتها الوجدانية المرتبطة بمحنة أهلها، وعالمها الذاتي، الذي قد لا يراه الرجل المسرود له - وهو الأصمعي هنا - معقولاً.

وتستحوذ المرأة على إنتاج السرد المتعلق بمحاولتها الفكاك ما كان يكبلها من العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية التي لا تعترف بها، وتتناهض حريتها الشخصية، وحقها في أن تكون ذاتاً فاعلة، وتحاصرها في أطر ضيقة، تبدأ بالبيت، ثم الحاجات الطبيعية، من زواج، وولادة، وحضانة أطفال وغيرها، فقد قسم الأعراب الذين تنتمي إليهم معظم الأحاديث النساء إلى ثلاثة أضرب " فهينة ليئة

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 6.

عَفِيفَةٌ مُسَلِّمَةٌ، تُعِينُ أَهْلَهَا عَلَى الْعَيْشِ، وَلَا تُعِينُ الْعَيْشَ عَلَى أَهْلِهَا؛ وَأُخْرَى وَرِيعًا
لِلوَلَدِ؛ وَأُخْرَى غُلٌّ قَمَلٌ يَضَعُهُ اللَّهُ فِي عُنُقِ مَنْ يَشَاءُ» (1).

ومن ذلك ما يتصل برفض المرأة فكرة الإكراه على الزواج ممن لا ترضاه
ولا تحبه، وهي تقوم على إدانة الرجل بوصفه ذكراً اجتماعياً، وترفض النظرة
الدونية إلى المرأة واستلابها وتهميشها في القضايا ذات الصلة الوثيقة بإنسانيتها
وعقلها وعواطفها، ومن ذلك ما جرى بين الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث
بن الشريد وأخيها معاوية، عندما خطبها دريد بن الصمة فأراد أخوها معاوية أن
يزوجها منه، وكان أخوها صخر غائباً في غزاة له، فأبت وقالت: لا حاجة لي به،
فأراد معاوية أن يكرهها، فرفضت ذلك في أبيات لها (2).

إن السرد النسوي في هذا الحديث يكشف عن أنها ترفض مظاهر التسلط
والضعف وثقافة هيمنة الرجل التي كانت مفروضة عليها في إطار القبيلة، وتكشف
عن اعتراضها بأنوثتها، وحريتها في اختيار زوجها.

ويتصل بذلك أيضاً السرد الذي تكشف فيه المرأة عن رفضها بعض التقاليد
والقيم الاجتماعية التي ترفض تجربة المرأة في الهوى الصادق والحب الخالص
الذي تؤمن به في علاقتها بالرجل، ومن ذلك الحديث الذي يتعلق بـ " خلية
الخرزية " التي كانت تهوى ابن عم لها، فعلم بذلك قومها فحجبوها، فقالت (3):

هَجَرْتُكَ لَمَّا أَنْ هَجَرْتُكَ أَصْبَحْتَ بِنَا شُمَّتًا تَلِكُ الْعَيْونُ الْكَوَاشِحُ
فَلَا يَفْرَحُ الْوَاشُونَ بِالْهَجْرِ رُبَّمَا أَطَالَ الْمُحِبُّ الْهَجْرَ وَالْجَيْبُ نَاصِحُ
وَتَغْدُو النَّوَى بَيْنَ الْمُحِبِّينَ وَالْهَوَى مَعَ الْقَلْبِ مَطْوِيٍّ عَلَيْهِ الْجَوَانِحُ

فهي تكشف عن أن المرأة ترفض كل أشكال الضغط الاجتماعي الذي تمارسه
الأسرة أو القبيلة من تفريق بين المحبين وإبعاد لهما، وتفريق بينهما، وهي تؤكد أنها
ستبقى محتفظة بالهوى بداخلها، طاوية عليه جوانحها.

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 156.

(2) انظر: المرجع نفسه، ج 2، ص 83.

(3) المرجع نفسه، ج 2، ص 83.

ومن أشكال هذا السرد ما يصدر عن المرأة المسكونة بالوجع المفجر للإبداع السردى، الذي يظهر من خلال المداهنة والحيل النسائية اللغوية والبلاغية لتجعل من السرد أداة تستخدمها لتخترق العوائق الاجتماعية والأعراف التي تحول دون تحقيق طموحها⁽¹⁾.

ومن ذلك حديث البنات العوانس الثلاث مع أبيهن همّام بن مُرّة، وقد كان منعهنّ من الزواج حتى عَنَسَهِنَّ، ولمّا خشين أن يذهب حظّ الرجال منهن، اتفقن على أن يعرضن له ما في نفوسهن، بشأن رغبتهن في الزواج، فتحايلن عليه باستخدام اللغة ليرجع عن رأيه، فلما رأى تواطؤهن على ذلك زوجهن⁽²⁾.

إن ذلك يكشف عن أنهن مجتمعات يعبرن عن رغبة شديدة في تغيير الواقع الاجتماعي والنفسي والعاطفي الذي يعشنه، ويسعين إلى خرق أقنعتهم والخروج على أدواته وأعرافه التي تحول دون كشف المستور منه.

إن المعاني التي انطوت عليها الأحاديث السابقة التي كانت فيها المرأة منتجة للخطاب السردى الموجّه للرجل، تكشف عن وعي ثقافي واجتماعي متميز، قاد المرأة إلى التخلص من أغلال الصمت الذي فرضته عليها التقاليد والأعراف والظروف الاجتماعية المختلفة التي كانت تضبط سلوك الأفراد ذكوراً وإناثاً، وهو أمر كان قد مر عبر مرحلتين، أولاهما: انتصار المرأة العربية على ذاتها، بعد أن اعتادت على الرضوخ للعادات التي تلزمها الصمت، والخوف من الكشف عن مكنون ذاتها، والتبعية لآراء الرجال. وثانيهما: الخروج على منظومة القيم والأعراف والتقاليد التي عملت على تغييب المرأة وإقصائها عن اتخاذ المواقف المتعلقة بذاتها، حين أسندت إليها الأعراف والتقاليد الجانب العاطفي، وكبلتها بمسؤوليات الخدمة الأسرية⁽³⁾؛ ما ألحق بها أضراراً اجتماعية وثقافية ونفسية مختلفة، غير أن ما نلمسه من السرد النسوي الذي مرت نماذج منه أن المرأة

(1) انظر: الصائغ، وجدان، الأنثى ومرايا النص مقاربة تأويلية لبلاغة الخطاب النسوي المعاصر، مكتبة نينوي، دمشق، 2004، ص 27.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 105-106.

(3) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 156.

استطاعت أن ترفض الأطر الثقافية والاجتماعية السائدة التي حصرتها بالهامش وضيق عليها الخناق فعاشت الظلم والمعاناة في حالات كثيرة.

2.1.1 المرأة موضوعاً للخطاب السردى الذكري والأنثوي معاً

ويتمثل هذا المحور في تلك الأحاديث التي غدت فيه الأنثى وشؤونها موضوعاً للخطاب السردى الذكري والأنثوي، ويتسم هذا اللون من السرد بحضور الأنثى والذكر معاً على مستويات مختلفة؛ فهو يقوم أحياناً على تكافؤ الطرفين في صناعة السرد، وقد يحتل الذكر فيه أحياناً مساحة أوسع بحكم اتساع المساحة الثقافية والأدبية والاجتماعية التي يتيحها المجتمع له، وقد يميل السرد أحياناً أخرى إلى جانب الأنثى بوصفها الطرف الإيجابي في الثنائية.

ومن ذلك ما جاء في الحديث الذي يذكر أن صهر سالم بن قحطان العنبري، " أتاه فأعطاه بغيراً من إبله وقال لامرأته: هاتي حَبلاً يقرُن به ما أعطيناك إلى بغيره، ثم أعطاه آخر وقال: هاتي حَبلاً آخر، ثم أعطاه ثالثاً وقال: هاتي حَبلاً، فقالت: ما بَقِيَ عندي حَبْلٌ، فقال لها، عَلَيَّ الجِمالِ وَعَلَيْكَ الحِبال، ثم قال:

لا تَعْدُلِينِي فِي العِطاءِ وَيَسِّرِي لِكُلِّ بَعِيرٍ جَاءَ طَالِبُهُ حَبْلاً⁽¹⁾

لقد جاء خطاب المرأة السردى هنا خطاباً مبنياً على الثنائية الضدية في المواقف، وقد احتل الرجل والمرأة مساحة ثقافية وأدبية متكافئة؛ ويشف عن موقف المرأة من إفراط زوجها في الجود، على نحو غير مباشر، فهي عاذلة له موجهة إليه اللوم والعتاب والملاحاة⁽²⁾، ولعلها تكشف عن وعيها وإدراكها أن ذلك ما يترك أثراً اقتصادياً سلبياً على أسرتها. إن هذا الخطاب السردى يشير إلى أن المرأة تحمل

(1) المرجع نفسه، ج 2، ص 4.

(2) انظر: السنجلوي، إبراهيم موسى، " العاذلة في الشعر الجاهلي "، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر، جامعة الكويت، م 7، ع 28، خريف 1987، ص 35-58، ص 37؛ نعناع، محمد فؤاد، " العاذلة في شعر الجاهلية وصدر الإسلام دراسة في التشكيل الفني "، في مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، م 25، ع 99 - 100، تشرين الأول 2005 - رمضان 1426، ص 94-119.

وجهة نظر مغايرة لرؤية الرجل الذي يعصي الزوجة العاذلة بإصرار كبير، ويعطي بلا حدود. إن ما تقوم به من خلال قولها " ما بقيَ عندي حَبْلٌ " يمثل محاولة منها ليعيد زوجها النظر في سلوكه، وإمكانية تخليه عنه؛ غير أنه يرفض مطالبها؛ فهو ذو حسب رفيع وجواد كريم تحزنه مصائب الدهر التي تقع على الناس، كما تقلقه الحقوق والواجبات حتى يؤديها.

ومن ذلك أيضاً ما وقع بين أبي الأسود الدؤلي⁽¹⁾ وامرأته من المخاصمة في ولدها منه بين يدي زياد، وأراد أخذه منها، فسارا إلى زياد بن أبيه وهو والي البصرة، فقال له زياد بعد أن سمع مخاصمتها: " أرُدُّدُ على المرأة ولَدَها فهي أَحَقُّ به منك، ودَعْنِي من سَجْعِك "⁽²⁾. ويكشف هذا الحديث عن قدرة المرأة على استخدام بلاغتها من خلال مسرودها في المطالبة بحقوقها المشروع؛ أي أنها كانت ألحن بحجتها من الرجل ففضى لها الحكم على نحو ما سمع منها، فكانت الغلبة لسرودها بوصفها الطرف الإيجابي المؤثر في المتلقي في هذه الثنائية الضدية.

(1) أبو الأسود الدؤلي: ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني (ت 69 هـ / 688 م)، تابعي، واضع علم النحو، كان معدوداً من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب. قيل أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) رسم له شيئاً من أصول النحو، فكتب فيه أبو الأسود، وفي صبح الأعشى أن أبا الأسود وضع الحركات والتنوين لا غير، سكن البصرة في خلافة عمر (رضي الله عنه) وولي إمارتها في أيام علي (رضي الله عنه). ولم يزل في الإمارة إلا أن قتل علي (رضي الله عنه)، وكان قد شهد معه (صفيين) ولما تم الأمر لمعاوية قصده فبالغ معاوية في إكرامه، وهو في أكثر الأقوال أول من نقط المصحف، مات بالبصرة. انظر ترجمته في: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 21-26؛ الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبدالرحمن (ت 577 هـ / 1181 م)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1967، ص 6-12.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 12.

ومن ذلك أيضاً حديث ما اشترطته هند على أبيها عتبة بن ربيعة⁽¹⁾ في زواجها قبل أن يزوجه من أبي سفيان، فقد قالت له: " إني امرأة قد ملكت أمري، فلا تزوجني رجلاً حتى تعرضه عليّ، قال: لك ذلك، فقال لها ذات يوم: إنّه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمىاً لك واحداً منهما حتى أصفه لك... " ⁽²⁾.

ومن ذلك حديث الغلام الذي كان يُحمق فقال لأمه: يُوشك أن ترينني عظيم الشأن، فقالت: فكيف؟ والله ما بين لأبنتيها⁽³⁾ أحمق منك! فقال: والله ما رجوتُ هذا الأمر إلا حيث يئست منه، أما علمت أن هذا زمان الحمقى وأنا أحدهم ⁽⁴⁾.

فهذه النادرة مبنية على الحوار القصير المتبادل بين الغلام وأمه، لا تشعر فيه بالملل، ويأتي تعليق الغلام على قول أمه في آخرها يحمل الفكاهة. ويظهر فيها أن الغلام يشارك أمه في صناعة الفكاهة؛ فهو لا يقف صامتاً أمام انتقاد أمه له بهذه العبارة التي تحمل دلالة ساخرة، بل يرد عليها بعبارة أخرى فيها سخرية، وفيها يتساوى دورهما في إثارة السخرية التهكمية.

(1) هند بنت عتبة العيمشية القرشية الكنانية، أبوها عتبة بن ربيعة سيد من سادات قريش وبني كنانة، عرف بحكمته وصداد رأيه. وهي إحدى نساء العرب اللاتي كان لهن شهرة عالية قبل الإسلام وبعده. زوجة أبي سفيان بن حرب، وأم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان. وكانت امرأة لها نفسٌ وأنفة، ورأي وعقل. شهدت أحداً كافراً مع المشركين، ومثلت بحمزة بن عبد المطلب عم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت من النسوة الأربع اللواتي أهدر الرسول دماءهن يوم فتح مكة، ولكنه عفا وصفح عنها حينما جاءته مسلمة تائبة حيث أسلمت يوم فتح مكة بعد إسلام زوجها أبي سفيان بليلة. انظر ترجمتها في: كحالة، أعلام النساء، ج5، ص 239-240؛ دعبول، تراجم أعلام النساء، ص 456-466.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 104-105.

(3) اللابة واللوبة: الحرّة، وهي الأرض التي قد ألبستها جارةٌ سودّ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، لوب.

(4) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 95.

3.1.1 المرأة متلقية للخطاب السردى

يتسم هذا اللون من السرد بقيام المرأة بدور المتلقي للخطاب السردى، حيث تعبر عن قدرتها على فهم النص المسرود عن طريق نقده أو تأويله انطلاقاً من تجربة جمالية أو فنية أو حياتية واقعية مرت بها، أو عاشتها، بعيداً عن تصور وعي الرجل؛ فهي تنتمي إلى قوم كان أعرابيُّ قد وصفهم بقوله: " أُولَئِكَ قَوْمٌ أَدَّبَتْهُمْ الْحِكْمَةُ، وَأَحْكَمَتْهُمْ التَّجَارِبُ" (1).

ومن ذلك الحديث الذي يذكر " أن أعرابية سمعت رجلاً ينشد:

وكأس سلافٍ يحلفُ الديكُ أنها لَدَى المَرْجِ من عينيه أصقَى وأحسنُ
فقال: بَلْغَنِي أن الديك من صالح طيركم، وما كان ليحلف كاذباً (2).

فالمراة الأعرابية كانت قد أدركت برجاحة عقلها، وحصافتها، وسعة معرفتها أن حديث الرجل المنشد يقوم على الكذب في تصوير المشاعر، والمبالغة في التعبير عنها، فردت عليه بطريقة جميلة لطيفة، فذكرته أن الديك حيوان صادق، لا يمكنه أن يحلف كاذباً، فلماذا نسبت إليه ما ليس من طبعه، ولماذا وظفته لتكذب به على الناس، فهي تستند في ردها على ما تشكل في فهمها ووعيتها، ومن ثم فعملية تلقيها البناء هي عملية استكشاف لدلالات الخطاب؛ التي استطاعت أن تقف عليها من خلال التفاعل بين إمكانيات النص المسرود وقدراتها الأدبية والمعرفية (3).

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 21.

(2) المرجع نفسه، ج2، ص 136.

(3) لعله من المفيد الإشارة إلى أن بول ريكور يعيد هذا اللون من التلقي إلى أن النص والمتلقي مرتبطان معاً، يندمج أحدهما في الآخر، ومن ثم فمعنى النص الأدبي لا يتحقق إلا في ذات المتلقي، وليس له وجود مستقل عنها مثلما يتكون القارئ بتكوينه للمعنى، وإدراك البنية الكامنة في النص، وبالتالي فإن مشكلة تملك معنى النص تصبح أمراً لا يقل مفارقه عند التأليف، فيتداخل حق القارئ بحق النص في نزاع يولد حركة التأويل برمتها، انظر: ريكور، بول، نظرية التأويل والخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006، ص، 46.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في جواب أم الشاب الذي ابتاع فرساً فجاء إلى أمه وقد كُفَّ بصرها، فقال: يا أمي، إني قد اشتريت فرساً، فقالت صفة لي، قال: إذا استقبلَ فطبي ناصب⁽¹⁾، وإذا استدبرَ فهقل خاضب⁽²⁾، وإذا استعرضَ فسيّد قارب⁽³⁾؛ مؤلّل⁽⁴⁾ المسمعين، طامح الناظرين⁽⁵⁾، مُذَعَلَق⁽⁶⁾ الصبيّين⁽⁷⁾؛ قالت: أجودت إن كنت أعربت؛ قال: إنه مشرف التليل⁽⁸⁾، سبط الخصيل⁽⁹⁾، وهواه الصهيل؛ قالت: أكرمت فاربت⁽¹⁰⁾.

فهذا النص يكشف عن أن شخصية المرأة المتلقية واعية وذات قدرات خيالية واسعة، انطلقت في بناء تصور لها للفرس من خلال وعيها مفردات جماليات الخطاب المسرود الذي يستند إلى مرجعيات متعددة، ذات صلة وثيقة بمخزونها الثقافي

(1) الناصب الذي نصب عنقه، وهو أحسن ما يكون. انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.، نصب.

(2) الهقل: الفتى من النعام. والخاضب من النعام: هو الذي أكل الخضرة أو الأنوار، فاحمرت أطراف ريشه. انظر: ابن منظور، لسان العرب، خضب. انظر: ابن منظور، هقل، وخضب.

(3) السيد القارب، الذئب الذي تعجل ليلة الورد ليلحق بالأنعام. انظر: ابن منظور، لسان العرب، قرب.

(4) يقال: أل الفرس يؤل: نصب أذنيه، وحددهما وكذلك ألل، والتليل: التحريف والتحديد، ومنه أذن مؤللة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ألل.

(5) يقال الفرس يطمح طمأحاً وطموحاً: رفع رأسه في عدوه رافعاً بصره. وفرس طامح الطرف: طامح البصر وطموحه، أي مرتفعه. انظر: ابن منظور، لسان العرب، طمح.

(6) الذعلوق: بقل كالكراث، وله لبن، وهو طيب للأكل. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ذعلق.

(7) الصبيان: مجتمع لحبيه من مقدمهما؛ وقال أبو عبيدة: الصبيان: العظمان المنحنيان من حرفي وسط المحبين من ظاهرهما عليهما لحم. انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 42.

(8) التليل: العنق. انظر: ابن منظور، لسان العرب، تلل.

(9) الخصيل: كل قطعة من لحم عظمت أو صغرت، وقيل: هي لحم الفخذين والساقين. انظر: ابن منظور، لسان العرب، خصل.

(10) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 41.

العربي بكل مكوناته المادية والروحية، التي شكلتها العادات والتقاليد والأعراف والبيئية الاجتماعية؛ أي أن المرأة في هذا السياق غدت ذات صوت ثقافي - اجتماعي غني بمخزونه التراكمي؛ إذ جاء إدراكها بأن ابنها قد اشترى فرساً أصيلاً مثمراً جاداً من خلال وعيها دلالات النص المسرود انطلاقاً من تجربة جمعية تتعلق بالخيال وصفاتها، لقد أحيى معنى النص المسرود إلى سلطة المتلقي/ المرأة وأفق توقعاتها⁽¹⁾.

ومن أمثلة هذا اللون من السرد الذي تقوم فيه المرأة بدور المتلقي ما روي عن المساجلة الشعرية التي جرت بين مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير، وقد اجتمعا ذات يوم عند عائشة - رضي الله تعالى عنها - والحجاب بينهما وبينها، يحدثانها ويسألانها، فجرى الحديث بين مروان وابن الزبير ساعةً وعائشة تسمع، إلى أن انتهى ابن الزبير إلى قوله:

وللخَيْرِ أَهْلٌ يُعْرَفُونَ بِهِمْ إِذَا اجْتَمَعَتْ عِنْدَ الْخَطُوبِ الْمَجَامِعُ
فقال مروان:

وللشَّرِّ أَهْلٌ يُعْرَفُونَ بِسُوبِهِمْ تَشِيرُ إِلَيْهِمْ بِالْفُجُورِ الْأَصَابِعُ
وأشار إلى عبد الله، فقال عبد الله: وفيها، ثم سكت. فقال له مروان: أخرستك.
فقال: لا.....، فقالت عائشة لعبد الله: يا ابن أختي ما منكما إلا شاعرٌ، ولكن لمروان إرث في الشعر ليس لك من قبل آل صفوان بن مُحَرَّثٍ.⁽²⁾

إن هذا القول يكشف عن الذوق الأدبي الرفيع لدى عائشة - رضي الله تعالى عنها، فهي استطاعت به أن تدرك الفرق بين طريقة كل منهما في الإبداع الشعري،

(1) حول هذا اللون من التلقي الذي يقوم على أن النص ينطوي على مرجعيات خاصة به يسهم المتلقي في بناء مرجعياته عبر تمثله للمعنى؛ أي أن ذلك يحقق توافقاً بين إحياء النص والمتلقي له، وهو الذي يحقق الاتصال الحقيقي في عملية التلقي، انظر: كليطو، عبد الفتاح، مسألة القراءة، في كتاب "المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية"، دار توبقال، الدار البيضاء، 1993. ص 19؛ فراي، نورثراب، المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية، ترجمة يوثيل يوسف عزيز، دار المأمون، بغداد، 1990 ص 46.

(2) انظر: ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 135-137.

وردت تفوق مروان على عبدالله بن الزبير إلى الإرث الشعري الذي ورثه عن جده لأمه صفوان بن المحرث الكناني. وينطوي هذا القول على ما فيه من بساطة وإيجاز، على نظرة نقدية صائبة هي من صميم النقد التقويمي، فهي ترى أن كلاً منهما شاعر، غير أن التجويد الفني والتدفق الشعري لدى مروان بن الحكم، الذي انحدر إليه من أجداده لأمه، قد قاده إلى التفوق على عبدالله بن الزبير، فهو يستطيع أن يقصد إلى المعنى، ويغوص عليه ويردده، وهي بذلك تملك وعياً نقدياً قادها إلى إدراك الاختلاف في الأساليب الشعرية، وردت ذلك في جانب منه إلى الوراثة⁽¹⁾.

ومن الأمثلة على هذا اللون من السرد ما جاء في حديث أعرابية تصف زوجها بمكارم الأخلاق عند أمها، فقالت: "يا أمه، من نشر ثوب الثناء فقد أدى واجب الجزاء، وفي كتمان الشكر جحودٌ لما وجب من الحق، ودخولٌ في كفر النعم؛ فقالت لها أمها: أي بُنيّة! أطبت الثناء، وقُمت بالجزاء، ولم تدعي للذمّ موضعاً؛ إني وجدت من عقل لم يعجل بزم ولا ثناء إلا بعد اختبار؛ فقالت: يا أمه، ما مدحت حتى اختبرت، ولا وصفت حتى عرفت"⁽²⁾.

لقد جاء استماع الأم لسرد ابنتها مثمراً جاداً؛ ذلك أنها تمتلك الوعي الاجتماعي والإدراك الثقافي الجمالي الذي مكنها من فهم مدار النص المسرود وتحليله انطلاقاً من تجربة اجتماعية وثقافية، دفعتها إلى الشعور بشيء من الاندماج الوجداني معه⁽³⁾.

2.1 الامتداد الزماني والمكاني لأحاديث النسوة

ينشأ العمل السردي عن فن السرد الذي هو "إنجاز لغوي في شريط محكي يعالج أحداثاً خيالية أو حقيقية، في زمان معين، وحيز محدد، تنهض بتمثيله

(1) حول دور المتلقي في فهم النص وتأويله، انظر: إبراهيم، نبيلة: "القارئ في النص: نظرية التأثير والاتصال"، مجلة فصول المصرية، المجلد 5، العدد 1، 1984، ص 103.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 221

(3) انظر: اليوسفي، محمد لطفي، كتاب المتاهات والتلاشي في النقد والشعر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005، ص 8.

شخصيات يصمم هندستها مؤلف أدبي⁽¹⁾، ومن هنا تعتمد أحاديث النسوة على وقائع وأحداث أو أخبار حدثت في أزمنة وأمكنة مختلفة؛ أي أنها وقعت في تواريخ متعددة، واتّصال التاريخ بالأحداث الواقعية في مرحلة زمنية محددة هو الذي يعطي العمل السردي نكهته وتشويقه⁽²⁾.

ويلاحظ الناظر في هذه الأحاديث أن ابن دريد يستخدم الإشارات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والتصريح المباشر أحياناً، والتلميح الضمني أحياناً أخرى، ما يعين على ربط متون الأحاديث بسياقها التاريخي والثقافي؛ أي تحديد الزمن التاريخي للأحداث، و الكشف عن ملامح الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تعبر عنها نصوص هذه الأحاديث.

لقد ضمت أحاديث النسوة إشارات إلى أزمنة مختلفة: الماضي البعيد، والماضي القريب، والحاضر، فالزمن الماضي يتمثل في زمن الحميريين والتبابعة⁽³⁾ في جنوب الجزيرة العربية، وهي أزمنة موهلة في القدم، وما تلاها من العصر الجاهلي في وسط الجزيرة العربية وشمالها، والماضي القريب يتمثل في ما قبل ظهور الإسلام بقليل، وزمن النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين. والحاضر بمعناه الواسع ويشمل العصر الأموي ومطلع العصر العباسي من خلال شخصياته التاريخية. ومهما يكن من أمر، فإنه يمكن تصنيف أحاديث ابن دريد المتعلقة بالنسوة وفق الأزمنة التالية:

1.2.1 الماضي البعيد

لقد استطاع ابن دريد أن يقف في بعض أحاديثه على فترات زمنية مُحدّدة هي فترة الجاهلية، أو الزمن الماضي البعيد في جنوب الجزيرة العربية. ويدور

(1) انظر: مرتاض، في نظرية الرواية، ص 256.

(2) انظر: عباس، إبراهيم، تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية: دراسة في بنية الشكل، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر، الجزائر، 2002، ص 107.

(3) حول الحميريين والتبابعة، انظر: ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد (ت328هـ/ 939م)، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، القاهرة، 1988، ج 3، ص 286-288.

بعضها حول أحداث ذات صلة وثيقة بالمرأة، كانت قد شهدتها منطقة جنوب الجزيرة العربية، قبل الإسلام، ومن ذلك " حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام" (1)، وهو يتعلق بالصراع بين " ثلاثة أبطن من قضاة كانوا مجتورين بين الشحر (2) وحضر موت: بني ناعب، وبني داهن، وبني رثام، وكان بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بني رثام، الذين كانوا أقلهم عدداً وأشجعهم لقاء، فحدث أن أغاروا على بني رثام في ظل يوم عرس لهم، وقد طعموا وأقبلوا على شرابهم، فقتلوا ثلاثين منهم، وتبع ذلك أن نهض أحد زعماء بني رثام (مرضاوي بن شعوة المهري) بالثار لقتلهم، فأوقع في بني ناعب وبني داهن (3).

وبعضها قد جرى في جنوب الجزيرة العربية في الزمن السحيق زمن ملوك حمير، ومنها " حديث النسوة اللاتي أشرن على بنت قيل من أقيال حمير بالتزوج ووصفن لها محاسن الزوج" (4). ومنها " حديث بعض مقول حمير مع ابنه: عمرو وربيعه، وما دار بينه وبينهما من المساءلة حين كبرت سنه، حول أي النساء أحب إليهما، وأي النساء أبغض إليهما" (5).

ومن ذلك حديث لقمان بن عادي (6) الذي عمرَ عمرَ سبعة أنسر، وكان مبتلى بالنساء، وكان مسكنه بمأرب، وكان يتزوج المرأة فتخونه، فتزوج غير امرأة، حتى

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 126-127.

(2) الشحر: ساحل البحر بين عُمان وعدن، انظر: الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص 338-339.

(3) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 127.

(4) المرجع نفسه، ج1، ص 80-83 القيل: الملك من ملوك حمير يتقيل من قبله من ملوكهم، أي يشبهه، انظر: الزبيدي، أبو الفيض السيد محمد المرتضى (ت 1790هـ)، تاج العروس من هوامش القاموس، دار صادر، بيروت، 1966، قيل.

(5) القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 152-153.

(6) تزعم العرب أن لقمان هو لقمان بن عادي. كان من قوم عاد، وهو شخص غير لقمان الحكيم الذي كان على عهد داود عليه السلام. هو الذي بعثته عاد في وفدائها إلى الحرم يستسقى لها، زاد ابن الشحنة: مع مرثد بن سعد، وكان مؤمناً، فلما دعوا قيل: قد أعطيتكم مناكم،

تزوج جارية صغيرة لم تعرف الرجال، فتعرض لها فتى من العماليق⁽¹⁾، فوقع في نفسه، ووقع في نفسها، فاحتال بأن يأتيها، حتى اكتشف لقمان الأمر فرمى بها من ذروة الجبل، فتقطعت قطعاً، وانحدر مغضباً، فإذا ابنة له يقال لها صُحر، فقالت: يا أبتاه ما شأنك؟ فقال: " وأنت أيضاً من النساء"، فضرب رأسها بصخرة فقتلها. فقال العرب: ما أذنبت إلا ذنب صُحر، فصارت مثلاً⁽²⁾.

وقد جرى بعض وقائع الأحاديث في وسط الجزيرة العربية وشرقها، أيام الجاهلية، ومن ذلك وقائع حديث همّام بن مرة مع بناته الثلاث اللواتي عنسهنّ، وقد حاورنه بشأن رغبتهن في الزواج، فلما رأى تواطؤهن على ذلك، قال لهن: قاتلكن

فاختاروا لأنفسكم، فقال مرثد: أعطني برأ وصدقاً، واختار قبل أن يُصيّبه ما أصاب قومه. فلما أهلكوا خير لقمان، أي قال له الله تعالى اختر ولا سبيل إلى الخلود بين بقاء سبع بعات، أو بقاء سبعة أنسر، كلما هلك نسر خلف بعده نسر، فاختار لقمان النُسور، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيض حتى إذا مات أخذ غيره، وكان يعيش كل نسر ثمانين سنة وكان آخرها لبداً، فلما مات مات لقمان، وذلك في عصر الحارث الراش أحد ملوك اليمن. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة لبد؛ بن منبه، وهب، (ت 114هـ)، التيجان في ملوك حمير برواية أبي محمد بن عبد الملك بن هشام الحميري، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، 1979، ص 82-85؛ حالو، شمس الإسلام أحمد، ديوان الشعراء المعمرين: أخبارهم وأشعارهم في الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2010، ص 513-514.

(1) تعليق من أمالي ابن دريد، ص 107-108. كلمة عملاق في اللغة تعني الطويل، ويبدو أن قبائل العماليق كانت تتميز بشيء من الطول والجسامة، وهم من أحفاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح". كانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية ثم رحلوا وسكنوا مع الأحفاد الآخرين لنوح في منطقة الرافدين ثم خرجوا مع مجموعات أخرى، وتكاثر أحفاد نوح حتى زاحم بعضهم بعضاً وخرجوا من العراق، وعاد العماليق إلى الجزيرة العربية وانتشروا في أنحاءها، وسكنت قبائلهم الكثيرة في نجد والبحرين وعمان واليمن وتهامة وبلغوا أطراف بلاد الشام. انظر: الزبيدي، تاج العروس، مادة عملق؛ علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتبة دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة، بغداد، 1968، ج1، ص 346-345.

(2) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 107-108.

الله! والله لا أمسيت أو أزوجكن! فزوجهن⁽¹⁾، وقد كان ذلك في الجاهلية في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي تقريباً، حيث كان همّام بن مرّة، ما يزال حياً أيام حرب البسوس التي دارت إثر قتل أخيه جساس بن مرة خاله كليياً بن ربيعة، سنة 494م⁽²⁾.

ومن ذلك أيضاً ما قالته أم الضحاك المحاربية⁽³⁾ عندما طلقها زوجها وكانت تحبه، وهي شاعرة جاهلية من شاعرات الغزل، كانت تحب زوجها الضباب وأسرفت في حبها له وتعلقها به، خاصة بعد أن طلقها، فتراها تتاجيه في عدد من المقطعات⁽⁴⁾.

ومن ذلك الحديث عن إتيان عمرو بن برّاقة (ت 11 هـ / 632 م) - شاعر همدان قبيل الإسلام، وأحد المخضرمين⁽⁵⁾ - سلّمى - وكانت بنت سيدهم وعن رأيها كانوا يصدرون - فأخبرها أن حريماً المرادي أغار على إبله وخيله، فحضته على

(1) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 105-106.

(2) انظر: حرب البسوس هي حرب قامت بين قبيلة تغلب بن وائل وأحلافها ضد بني شيبان وأحلافها من قبيلة بكر بن وائل بعد قتل جساس بن مرة الشيباني البكري كليياً بن ربيعة التغلبي ثأراً لخالته البسوس بنت منقذ التميمية بعد أن قتل كليب ناقة جارها سعد بن شمس الجرمي، ويذكر بعض رواة العرب أن هذه الحرب استمرت أربعين عاماً من سنة 494م، ويذكر بعضهم أنها استمرت بضعة وعشرين سنة. انظر: جاد المولى، محمد، والبجاوي، علي محمد، وإبراهيم، محمد أبو الفضل، أيام العرب في الجاهلية، دار الفكر، د. ت، ص 142-168.

(3) انظر أخبارها في: كحالة، عمر رضا، أعلام النساء، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1991، ج2، ص 357-358؛ دعبول، رضوان، تراجم أعلام النساء، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998، ص 512.

(4) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 86-87.

(5) هو عمرو بن الحارث بن عمرو بن منبه (ت 11 هـ / 632م)، من همدان، ويعرف بعمر بن برّاقة وهي أمه. شاعر همدان قبيل الإسلام. له أخبار في الجاهلية. عاش إلى خلافة عمر بن الخطاب، ووفد عليه. انظر: علاونة، شريف راغب، عمرو بن برّاقة الهمداني من مخضرمي الجاهلية والإسلام " سيرته وشعره، دار المناهج، عمان، 2005.

الإغارة عليه ورد ما أخذ منه، فأغار عمرو فاستأق كل شيء له، فأتى حريم بَعْدَ ذلك يطلب إلى عمرو أن يرُدَّ عليه بعض ما أخذ منه، فامتنع ورجع حريم⁽¹⁾.

2.2.1 الماضي القريب

يتمثل الماضي القريب في فترة ما قبل ظهور الإسلام بقليل، وزمن النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين. ومن ذلك حديث ما اشترطته هند على أبيها عتبة بن ربيعة في زواجها قبل أن يزوجها من أبي سفيان، إذ قالت لأبيها عتبة: "إني امرأة قد ملكت أمري فلا تزوجني رجلاً حتى تعرضه علي، قال: لك ذلك، فقال لها ذات يوم: إنه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمياً لك واحداً منهما حتى أصفه لك، فعرض عليها أمرهما، وبين لها خصالهما، فوقع رأيها على اختيار ثانيهما، فقال لها: ذلك أبو سفيان بن حرب، قالت: "فزوجه ولا تلق إلقاء السلس، ولا تسمه سوم الضرس، ثم استخر الله في السماء، يخر لك في القضاء"⁽²⁾. ويظهر أن هذا الأمر قد حدث بمكة قبل الهجرة بثماني عشرة سنة، إذ وُلد ابنها البكر معاوية بمكة قبل الهجرة بثماني عشرة سنة؛ أي أنها تزوجت في حدود ثماني سنوات قبل البعثة النبوية الشريفة⁽³⁾.

ومن ذلك حديث ما جرى مع الخنساء⁽⁴⁾ عندما خطبها دريد بن الصمة، وهو أمر يبدو أنه حدث في نجد حيث تقيم الخنساء مع قبيلتها قبل سنة 600 ميلادي؛ إذ

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 121-123.

(2) انظر: المرجع نفسه، ج2، ص 104-105.

(3) انظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت 276هـ/889م)، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، 1969، ص 349-350.

(4) الخنساء: تماضر بنت عمرو السلمية (ولدت سنة 575 م و توفيت سنة 24 هـ / 645م)، صحابية وشاعرة مخضرمة من أهل نجد أدركت الجاهلية والإسلام وأسلمت، واشتهرت برثائها لأخويها صخر ومعاوية الذين قتلوا في الجاهلية. لُقبت بالخنساء بسبب ارتفاع أرنبتني أنفها عن شفتها مع قصر قصبه أنفها ولزوقه بوجهها. توفيت الخنساء مطلع خلافة عثمان بن عفان سنة 24 هـ / 645 م. انظر ترجمتها في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 6، ص

ولدت الخنساء كما تذكر المصادر بحدود سنة 575 ميلادي، فأراد أخوها معاوية أن يزوجها منه، وكان أخوها صخر غائباً في غزاة له، فأبت وقالت: لا حاجة لي به، فأراد معاوية أن يكرهها؛ فقالت⁽¹⁾:

تُبَاكِرُنِي حُمَيْدَةُ كُلِّ يَوْمٍ بَمَا يُؤَلِي مُعَاوِيَةَ بْنَ عَمْرٍو
فَالِإِأَعْطَ مِنْ نَفْسِي نَصِيباً فَقَدَ أَوْدَى الزَّمَانُ إِذَا بَصَخِرِ

ومن ذلك أيضاً ما كان في مكة زمن ولادة النبي صلى الله عليه وسلم، وما كان من ظهور آياته عند الكهان، فقد حدث مروان بن قيس الدوسي⁽²⁾ أنه حضر النبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكرت عنده الكهانة فيما كان من آياته عند مخرجه. فقال له: يا رسول الله - صلى الله عليك - عندنا من ذلك شيء بين، فأخبره أنه كانت عندهم إحدى المتنبئات، وهي جارية حسنة ظرافة، يقال لها الخُلصة، ولم يعلم عليها إلا خيراً، وما يتصل بذلك من قصة أحد المتنبئين بولادة النبي صلى الله عليه وسلم، يقال له أحمد بن حابس، وسموه ذا الخُلصة؛ لأنه كان لا يقول شيئاً إلا وجدوه كما يقول، حتى دعاهم يوماً لقتال إحدى القبائل العربية، وتبأ لهم بالنصر، غير أن القوم هزموهم وفضحوهم، فاغترفوها له، فمكثوا ما شاء الله، فإذا هو يقول: يا معشر دوس، هل لكم في غزوة تهب لكم عزا؟ فأجابوه لذلك، وصدقوه، فخرجوا فلقوهم، فانهزموا أمام القوم وفضحوهم، فاستغربوا ما صنع بهم، وما كان من عدم صدق نبوءته، فقال لهم: ما أدري، أكذبني الذي صدقني؟ امكثوا عني ثلاثاً ثم

34؛ دعبول، تراجم أعلام النساء، ص 115-117؛ كحالة، أعلام النساء، ج 1، ص 360-

371.

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 161-163.

(2) هو مروان بن قيس الدوسي وكان قد أسلم وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على تقيف. وبنو دوس من حلفاء قريش في الجاهلية والإسلام، في مكة، وهم ينتسبون لدوس بن عَدْتان بن عبد الله بن زهران - ومنهم: حُمّة بن الحارث بن رافع، كان سيّد دوس في الجاهلية وكان أسخى العرب، وهو مُطعم الحج بمكة. ومنهم: أبو هُريرة صاحب النبي عليه الصلاة والسلام، واسمه عُمير بن عامر. انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت 774هـ/1327م)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر، القاهرة، 1979، ج 1، ص 353-354.

ائتوني. فلما مضت الثلاث خرج إلينا، فقال: يا معشر دوس، خرست السماء، وحل القضاء، وخرج خاتم الأنبياء. قلنا: أين؟ قال: مكة بكة، أنا ميت لثلاث، فادفوني في رأس موضع جفو، فاني سوف اضطرم ناراً، فلا أكون عليكم عاراً، فقولوا عند ذلك: باسم اللهم رب النار، وارموني بثلاثة أحجار، ففعلنا، فطفئت النار، ورجع إلينا الحاج فأخبرونا بمخرجك يا رسول الله.(1).

وواضح أن مجريات هذا الحديث كانت قد وقعت قبل ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم، بعدد من السنوات؛ أي قبل سنة 570 ميلادي؛ ذلك أنه كان قد ورد في كتب السير مبشرات على قرب مبعثه؛ إذ إن الأحبار من اليهود والكهّان من النصارى ومن العرب كانوا قد تحدّثوا بأمر النبي محمد قبل مبعثه لما تقارب زمانه، فأما الكهّان من العرب فأنتهم به الشياطين من الجن ما تسترق من السمع في السماء قبل أن تُحجّب عن ذلك برمي النجوم والشهب بمبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم(2).

ومنها بعض الأحاديث التي جرت وقائعها في مكة، بعد ظهور الإسلام، بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة؛ إذ وجّه النبي صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد إلى ودّ - صنم لكلب - فكسره جذاذاً وقاتل دونه ناساً من كلب، فقتل منهم رجال، وقتل منهم غلاماً يُقال له جامع، فجاءت أمه تتصفّح القتلى، فلما وجدته قالت شعراً في بكائه، ثم أسندته إلى صدرها، وشهقت شهقةً أتبعنها نفسها(3).

وتتصل بعض الأحاديث بوقائع تتعلق بالنساء في عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ومن ذلك ما كان في المدينة المنورة، الحديث المتعلق بالمرأة التي جاءت إلى السوق لبيع الحاجّة، فضرّ بها المخاض، فولدت. وهي إلى جنب دار قوم في السوق، فمرّ بها عمر - رحمة الله عليه - وقد أقبل معه جرّاد بن طارق،

(1) انظر: ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 122-125.

(2) انظر: ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت 218هـ/834م)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، دار الخير، بيروت، 1991، ج 1، ص 165-170.

(3) انظر: ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 127.

لصلاة الغداة، ثم دعا لها بشربة من سويق، فقال: اشربي هذا يقطع الحس ويقبض الحشا ويدر العرق، ثم دخل المسجد فصلّى بالناس⁽¹⁾.

ومن ذلك الحديث الذي عاين وقاعه عبدالله بن أبي عتيق عندما كان يسير في أرض بني عذرة في وادي القرى قرب المدينة المنورة، بحدود سنة 30 هـ/650م، "إذا امرأة تحمل غلاما ليس مثله يتورك، فعجبت من ذلك، فإذا رجل له لحيّة، فقال: من هذا رحمك الله؟ فقالت: أسمعت بعروة بن حزام؟ قال: قلت: نعم. قالت: هذا عروة، صيره الحب إلى ما ترى. فقلت: أنت عروة؟ فكلمني وعيناه تدوران في رأسه، فقال: نعم، وأنا والله الذي أقول:

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِنَّهُمَا شَفِيَانِي

ثم ذهبّت، فما رُحْتُ عن الماء حتى سمعتُ الصيحة، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: مات عروة⁽²⁾؛ ويظهر أن وقائع هذا الحديث كانت قد وقعت بحدود سنة 30 هـ/650م؛ إذ تذكر الروايات أن عروة بن حزام بن مهاجر الضني، كان يحب ابنة عم له اسمها (عفراء) نشأ معها في بيت واحد، لأن أباه خلفه صغيراً، فكفله عمه. ولما كبر خطبها عروة، فطلبت أمها مهراً لا قدرة له عليه فرحل إلى عم له في اليمن، وعاد فإذا هي قد تزوجت بأموي من أهل البلقاء (بالشام) فلحق بها، فأكرمه زوجها، فأقام أياماً وودعها وانصرف، فضنى حياً، فمات قبل بلوغ حيه ودفن في وادي القرى، قرب المدينة سنة 30 هـ/650م⁽³⁾.

3.2.1 العصر الأموي

وتتضمن بعض الأحاديث إشارات واضحة إلى أن أحداثاً تتعلق بالنسوة كانت قد وقعت في أمكنة معروفة، وارتبطت بشخصيات عاشت في أواخر العصر

(1) انظر: المرجع نفسه، ص 118.

(2) المرجع نفسه، ص 131-132.

(3) انظر: ترجمته في: الكتبي، محمد بن شاعر (ت 764هـ/1363م)، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1973، ج 2، ص 447-450.

الراشدي، وامتد بها طلق العمر إلى العصر الأموي، وبعضها عاش في عهد بني أمية.

ومن ذلك ما يتعلق بالزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية⁽¹⁾، وموقفها السياسي من الصراع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان؛ فقد كانت من ربات الفصاحة والبلاغة، ومن المواليات لعلي، حضرت معه حرب صيفين وخطبت خطباً بليغة، شجعت فيها الرجال على القتال. وبعد أن استشهد علي، وآلت الخلافة إلى معاوية بعث وراءها، فحملت إليه من الكوفة، في هودج وحمل قومها على خيل، فحاورها فأسمعتة كلاماً حاداً وأظهرت ولاءها لعلي، ثم سألتها معاوية حاجتها، فقالت: "إني آليت أن لا أسأل أحداً كنت له حرباً، ومثلك من وصل عن غير مسألة، وجاد عن غير طلب، فأمر لها وللذين كانوا معها بجوائز، وردّها إلى الكوفة"⁽²⁾.

ومن ذلك ما جرت أحداثه بين أدربيجان والشام، في مطلع الخلافة الأموية؛ فقد "كان عبد الله بن سبرة الحرشي بأدربيجان غازياً أو بغيرها، فبلغه أن تاجراً يُقال له: فيروز، يبيع العطر، ضرب بيده عجز امرأة من العرب، فقالت: يا عبد الله بن سبرة، فبلغه، فقال: يا لبيكاه. فخرج من أدربيجان إلى الشام حتى قتل فيروز ورجع."⁽³⁾

ومن ذلك أيضاً الحديث الذي يدور حول ما جرى بين أبي الأسود الدؤلي (ت 69 هـ / 688 م) وامرأته من كلام في ابن كان لها منه وأراد أخذه منها، فسارا إلى زياد بن أبيه (ت 53 هـ / 673 م)، وهو والي البصرة يومذاك، ولعل ذلك كان في

(1) انظر خبرها في: ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 201 - 203.

(2) انظر: المرجع نفسه، ص 201-203.

(3) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 196. عبد الله بن سبرة الحرشي، نسبة إلى جده الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن قيس عيلان، شاعر، فارس، إسلامي، وهو أحد الفتاك في الإسلام، شهد الجسر في فتوح العراق. له بيت يخاطب به يزيد بن معاوية، وكان له سيف اسمه المزعف ذكره في أشعاره. له شعر قليل، يمثل نونجاً للفتوة والفروسية والصلابة من جهة، والغيرة على القيم والمبادئ الإسلامية من جهة أخرى. انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص 90.

الفترة التي ألحقه معاوية بنسبه سنة 44هـ/664م، فكان عضده الأقوى. وولاه البصرة والكوفة وسائر العراق، فلم يزل في ولايته إلى أن توفي سنة ثلاث وخمسين⁽¹⁾.

وكذلك الحديث الذي دارت وقائعه بين بادية أقصَى الحجاز وخراسان، وهو يدور حول خروج وفد من أهل المدينة إلى طَّلحة الطَّلحات⁽²⁾، في خراسان التي وليها سنة 63 هـ/ 682م، وتوفي بعدها بقليل، ومرورهم في بعض البوادي على عجوز، فاتخذت لهم طعاماً وأكرمتهم، ثم حملتهم له كِتَاباً. فلما قدموا على طلحة، جعل يسألهم عما خلفوا، وما رأوا في طريقهم، فأخبروه بقصة العجوز وصنيعها وقولتها ودفعوا إليه بكتابها، وفهم مغزاها، وقد سألته العطاء، وحملهم ما سألته، فلما قَدِمُوا عَلَيْهَا نَزَلُوا وَأَخْرَجُوا لَهَا مَا سَأَلَتْ⁽³⁾.

4.2.1 العصر العباسي

تشير متون بعض الأحاديث إلى أنها كانت تدور حول واقع المرأة الأعرابية أو البدوية وقومها، في مطلع العصر العباسي؛ أي في حدود منتصف القرن الثاني

(1) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص 346-347.

(2) طلحة الطَّلحات، هو طلحة بن عبد الله بن خلف، أبو المطرف الخزاعي المعروف بطلحة الطَّلحات؛ أحد الأجواد الأسخياء المفضلين المشهورين، كان أجود أهل البصرة في زمانه؛ سمع عثمان بن عفان، وكان أبوه مع عائشة يوم الجمل، وكان أبوه كاتب عمر بن الخطاب بالمدينة. قال الأصمعي: المعروفون بالكرم طلحة بن عبد الله بن عثمان التيمي وطلحة بن عمرو بن عبيد الله بن معمر التيمي، وهو طلحة الجود، وطلحة بن عبد الله بن عوف، وهو طلحة الندى، وطلحة ابن الحسين بن علي، وهو طلحة الخير، وطلحة بن عبيد الله بن خلف الخزاعي، وهو طلحة الطَّلحات، وسمي بذلك لأنه كان أجودهم. وذكر ابن دريد: أن أم طلحة بنت الحارث بن طلحة بن أبي طلحة العبدري، فلذلك سمي طلحة الطَّلحات. وكان هذا طلحة الطَّلحات أموياً، وكان بنو أمية يكرمونه، وفي سنة ثلاث وستين بعث زياد بن مسلم طلحة الطَّلحات والياً على سجستان، وبها توفي بعد قليل. انظر ترجمته في: الكتبي، فوات الوفيات، ج 2، ص 125-134.

(3) انظر: ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 72-74.

الهجري، إذ روى هذه الأحاديث ابن دريد عن سلسلة من الرواة الذين انتهوا بالأصمعي الذي ولد سنة 121 هـ / 740م، وكان الأصمعي قد اعتمد في كثير منها على المشاهدة والمعينة أو المشاركة في أحداثها؛ أي أن هذه الأحاديث تتعلق بأحداث وقعت بينه وبين بعض نساء الأعراب، أو رجالهم حول المرأة، وهو يصرح بذلك في ثنايا هذه الأحاديث، فقد كان الأصمعي قوي الصلة بالأعراب وبواديهم في مقتبل عمره، في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، للسمع منهم والنقل عنهم، حتى غدا " أكثر سماعه من الأعراب والبادية "(1)، فقد رحل الأصمعي إلى البادية التي تتصل بالبصرة وتحاذيها، وكانت مضارب تميم تمتد من البصرة حتى مشارف الكوفة، وكان الأعراب من باطن البادية من بني تميم يتوافدون على البصرة لقضاء حاجاتهم(2).

وقد أشار الأصمعي إلى ذلك بقوله: " كنت أغشى بيوت الأعراب، أكتب عنهم كثيراً حتى ألفوني وعرفوا مرادي، فأنا يوماً مار بعدادى البصرة، قالت لي امرأة: يا أبا سعيد أنت ذلك الشيخ، فإن عنده حديثاً حسناً، فاكتبه إن شئت. قلت أحسن الله إرشادك، فأتيت شيخاً هماً، فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، وقال من أنت؟ قلت أنا

(1) السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبدالله المرزبان (ت 368هـ / 978م)، أخبار النحويين البصريين، تحقيق طه محمد الزيني، و محمد عبدالمنعم خفاجي، مصطفى البلبي الحلبي، القاهرة، 1955، ص 51. لعله من المفيد الإشارة إلى أن البادية في عصر الأصمعي كانت مصدراً مهماً من مصادر جمع اللغة والأدب، وقد حرص الرواة واللغويون على جمع مادتهم عن القبائل العربية التي كانت تقيم في المنطقة التي تمتد من غربي نجد حيث تنحدر هضبتها نحو الغرب وبين سفوح جبال الحجاز حين تأخذ الهضبة في الارتفاع مكونة تلك السلسلة الجبلية في غربي الجزيرة، وقد سمي القدماء هذه المنطقة " عالية السافلة وسافلة العالية"، فلم يأخذوا عن حضري قط، ولا عن سكان أطراف بلاد العرب المجاورة لسائر الأمم في مصر والشام وفارس والهند والحيشة وغيرها، انظر: السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد الجاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1987، ج1، ص 211-212.

(2) انظر: إبراهيم، إياد عبدالمجيد، الأصمعي وجهوده في رواية الشعر العربي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد، 1989، ص 52-53.

عبد الملك بن قريش الأصمعي. قال: ذو⁽¹⁾ ينتبع الأعراب فيكتب ألفاظهم؟ قلت نعم، وقد بلغني أنّ عندك حديثاً حسناً متعجباً رائعاً، وأخبرني باسمك ونسبك، قال نعم، أنا حذيفة بن سور العجلاني....⁽²⁾، ويقول أيضاً " ثم رجعت إلى البصرة فمكثت بها حيناً ثم قدمت البادية"⁽³⁾.

ومن ذلك حديث المرأة التي سكنت البادية قريباً من قبور أهلها، وقد التقى بها الأصمعي ذات يوم، وإلى ذلك يشير بقوله: " قال: دُفِعْتُ يوماً في تَلَمُّسِي بالبادية إلى وادٍ خَلَاءٍ لا أنيس به إلا بَيْتٌ مُعْتَنَزٌ بِفِنَائِهِ أَعْزُوقٌ وقد ظَمِئْتُ فَيَمَمْتُهُ فَسَلَمْتُ، فإذا عجوز قد بَرَزَتْ... "⁽⁴⁾.

لقد انتقل الأصمعي إلى البادية، وأخذ العربية عن بعض الأعراب، وكان من هؤلاء الأعراب من يعرفه أهل اللغة، وأخذوا عنه، ومنهم المغمور الذي لم يذكر الرواة إلا اسمه حيناً وقبيلته حيناً آخر. وقد لقي الأصمعي بعض الأعراب المجهولين في أمكنة معلومة، فقد سمع الأصمعي أعراباً لم يذكر أسماءهم، ولكنه ذكر الأماكن التي لقيهم فيها، ومن ذلك أيضاً قوله: " أنشدتني عجوز بحمي ضريّة (شعراً)... فما رأيت امرأة أحلى لفظاً منها ولا أفصح لساناً"⁽⁵⁾، فهو يثني على فصاحة المرأة الأعرابية، وحلاوة منطقتها دون أن يذكر قبيلتها، لكنه يذكر مكانها، فهي تقيم بحمي ضريّة، وقد كانت قرية عامرة قديمة، في نجد، تقع في الطريق إلى مكة من البصرة⁽⁶⁾.

(1) ذو: بمعنى الذي وهي لغة طيء، انظر: السيوطي، المزهري، ج2، ص 308.

(2) السيوطي، المزهري، ج2، ص 307-308.

(3) المرتضى، الشريف (ت 436هـ/ 1044م)، أمالي الشريف المرتضى، تحقيق محمد أبو

الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967، ج1، ص 497.

(4) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 6.

(5) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 287.

(6) انظر: الحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت 626هـ/ 1229م)، معجم البلدان، دار

صادر، بيروت، 1957، ج 3، ص 457.

ومن ذلك أيضاً ما رواه من أنه رأى بالبادية امرأة على راحلة لها تطوف حول قبر وهي تقول شعراً ترثي صاحبه؛ فدنا منها ليسألها عن أمرها فإذا هي ميتة⁽¹⁾.

ومن ذلك أيضاً ما يذكره من أن أعرابياً " قَدِمَ البصرة ومعه بنات له حسان، فذكر أهل البصرة حسنهنَّ، فجاء شابٌ فجلس فنظر إلى بعضهنَّ ونظرت إليه، ففطن أبوها، فقام إليها بعمودٍ - وكان في يده - يضربها، فدخلت البيت، وأنشأت تقول⁽²⁾:

أَيَعْدَرُ صَابِيهِمْ وَأُضْرَبُ فِي الصَّبَا وما نَحْنُ وَالْفِتْيَانُ إِلَّا شَقَائِقُ

وترد بعض الأحاديث التي رواها الأصمعي غُفلاً من أي إشارة إلى الزمن أو المكان الذي جرت فيه، وعلى الرغم من ذلك فإن الباحث يستطيع أن يقدر أن وقائع هذه الأحاديث كانت قد جرت في البادية العربية التي كان يتردد عليها الأصمعي. ويدخل ضمن هذا النوع ذلك الحديث الذي نقله عبد الرحمن عن عمِّه الأصمعي حول " ما قالته بعض نساء الأعراب وهي تحاور أمها وتصف زوجها بمكارم الأخلاق"⁽³⁾.

ومن ذلك أيضاً حديث الأصمعي مع امرأة تكلى من بني عامر بن صعصعة كان قد نزل عليها، وقد مات ابنٌ لها، وهي من القلق على مثل الرضفة، فقامت تعالج له طعاماً، فقال لها: " يا هذه، إنك لفي شغل عن هذا، فقالت والله لا تجوز بيتي إلا مقربياً، ولكن أنشدني أبياتاً أسلو بهنَّ، فإني أراك لوذعياً، فأنشدتها أبيات نؤيرة بن حصين المازني يرثي ابنه،..... قال: فكأنني والله زبرت الأبيات في صدرها، فما زالت تنشدها وتصلح طعامي حتى قررتي ورُحت من عندها"⁽⁴⁾.

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 39-40.

(2) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 171.

(3) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 221.

(4) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 261-263.

3.1 أشكال السرد النسوي

يعد مصطلح " حديث " من أكثر الكلمات دلالة على معنى القصة في التراث العربي القديم عامة، والتراث السردى خاصة، ولعل ذلك يعود إلى أنها تشير إلى معنى اللقاء المباشر بين المحدث أو الكاتب وجمهوره، وهو أمر يسجل حضوراً واضحاً في النثر العربي القديم، بأنواعه المختلفة⁽¹⁾، وعلى الرغم من أن هذا المصطلح انتشر عند أصحاب الأعمال الإبداعية السردية القديمة، مثل الجاحظ (ت255هـ/868م)، وابن قتيبة الدينوري (ت 276هـ/889م)، والمحسن التتوخي (ت 384هـ/994م)، وغيرهم من سابقى ابن دريد ومعاصريه⁽²⁾، فإن ابن دريد نفسه لم يطلق مصطلح " أحاديث " على نصوصه القصصية التي جاءت فناً جامعاً لمجموعة

(1) انظر: دوم، خيرى، " من مصطلحات السرد العربى " مصطلح الحديث: محاولة للتأصيل"،

فى مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، م 61، ع 1، يناير، 2001، ص 246.

(2) لمزيد من التفصيل حول ذلك انظر: غبور، وليد، " الإبداع القصصى لابن دريد الأنبارى

بين التأثر والتأثير "، فى ابن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء، تحرير عليان الجالودى،

وكمال المقابلة، منشورات وحدة الدراسات العمانية، جامعة آل البيت، 2011، ج3، ص

1597-1598؛ بن رمضان، فرج، الأدب العربى ونظرية الأجناس: القصص، دار محمد

علي الحامى، صفاقس، تونس، 2001، ص 63-65.

من الأنواع الأدبية، مثل الحكاية والقصة والنادرة والخبر القصصي وغيرها⁽¹⁾، غير أنها اشتهرت بذلك بين الباحثين القدماء والمعاصرين⁽²⁾.

ومهما يكن من أمر، فإن السرد يعد أحد صيغ الخطاب الذي يعتمد على الحدث القصصي، والتسلسل، والحبكة، والوصف والحوار، وعلى ضوء ذلك ستسعى هذه الدراسة إلى تصنيف أحاديث النسوة عند ابن دريد بناء على مدى حضور هذه العناصر فيها، والكشف عن ملامح هذه الأشكال وخصوصيتها، فقد تعددت أشكال السرد النسوي في تلك الأحاديث؛ ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، هي:

(1) لعله من المفيد القول إن الباحث في الموروث السردى العربى المبكر يجد تداخلاً واضحاً بين مفهوم كل من الحكاية والسمر والنادرة والخبر، فهذا موسى سليمان يستخدم مصطلح القصة الإخباري ويعني به " تلك الحكايات القصيرة، والأسمار الكثيرة، والنوادر الظرفية، والأخبار المشتتة هنا وهناك، لا يجمعها كتاب واحد من الأصول، لأنها لم تدون في مكان واحد معين، ولم يكتبها كاتب واحد معروف لغرض من الأغراض الأدبية. وإنما هي روايات مختلفة الألوان، متشعبة الأهداف، متعددة الأغراض، جمالها في ظرفها، وخفة روح روايتها، وأدبها في رشاقة أسلوبها، ونصاعة لغتها". انظر: سليمان، موسى، الأدب القصصي عند العرب، منشورات دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة، بيروت، 1956، ص 70.

(2) انظر على سبيل المثال: مبارك، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ج 1، ص 278-285؛ فاعور، إكرام، مقامات بديع الزمان الهمداني وعلاقتها بأحاديث ابن دريد، دار اقرأ، بيروت، د.ت، 84-109؛ الشكعة، مصطفى، بديع الزمان الهمداني: رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، 1973، ص 314-320.

1.3.1 الخبر الأدبي القصصي وغير القصصي

يعد الخبر أصغر بنية حكاية⁽¹⁾، ويتميز ببساطة الموضوع والشكل، ووحدة الزمن والحدث، وتفرد الفضاء المكاني والزمني أو غيابه في كثير من الأخبار، وندرة الشخصيات وقلتها، وهيمنة الخطاب المسرود⁽²⁾. وتتمثل بساطة الخبر في هذا الانتقال السريع بين الوظائف التي تربط البداية بالنهاية، في مساحة خطابية لا تتجاوز أحياناً السطرين أو الثلاثة. وهذا ما يجعل الحدث في الخبر بسيطاً، كما يجعله بؤرة الفعل السردي بصفة عامة. وبساطة الحدث وحدثه تنعكس على البنية الزمانية والفضائية التي لا تتجاوز هي الأخرى هذه البساطة، وبالتالي فبساطة النوع تنعكس على الثوابت الحكائية التي تدعم هذه البساطة وتؤكد⁽³⁾.

(1) يقطين، سعيد، الكلام والخبر: مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1997، ص 195. لعله من المفيد الإشارة إلى أن عبيد بن شرية الجرهمي يعد أول من ألف كتاباً في الأخبار زمن معاوية بن أبي سفيان وبأمر منه. حيث تروي المصادر أن معاوية استقدم عبيداً، وطلب منه أن يجيب عن جملة من الأسئلة المتعلقة باهتمامات الناس العامة، وما يثير انتباههم من الأخبار، فانصرف عبيد إلى حكاية ما تواتر ما له علاقة بأخبار الماضين والمتقدمين، وملوك العجم والعرب. ثم دعا معاوية ديوانه وكتابه أن يدونوا كل ذلك، وأن ينسب إلى عبيد بن شرية. انظر: ابن النديم، الفهرست، دار المعارف، بيروت، 1978، ج1، ص 132.

(2) انظر: جبار، سعيد، الخبر في السرد العربي: الثوابت والمتغيرات، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، بيروت، 2004، ص 218-220؛ غبور، "الإبداع القصصي لابن دريد الأزدي بين التأثر والتأثير"، ص 1609؛ القاضي، محمد، الخبر في الأدب العربي: دراسة في السردية العربية، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، 1998، ص 358-362، 368.

(3) انظر: جبار، الخبر في السرد العربي، ص 224؛ القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 368-370، 397؛ بن رمضان، الأدب العربي القديم نظرية الأجناس القصص، ص 72-

ويجد الباحث في أحاديث ابن دريد عدداً كبيراً من الأخبار التي تتوزع بين نوعين، هما: الخبر القصصي⁽¹⁾ والخبر غير القصصي⁽²⁾؛ وذلك تبعاً لتفاوت توفر العناصر القصصية فيها. ومن النوع الأول ما نقل عن الأصمعي من أنه قال⁽³⁾: " كنت بالبادية فرأيت امرأة عند قبر وهي تبكي وتقول:

فَمَنْ لِّلْسُـوَالِ وَمَنْ لِّلنَّوَالِ وَمَنْ لِّلْمَقَالِ وَمَنْ لِّلخُطْبِ
 وَمَنْ لِّلحُمَاةِ وَمَنْ لِّلكُمَاةِ إِذَا مَا الكُمَاةُ جَثَوَا لِّلرُكْبِ
 إِذَا قِيلَ مَاتَ أَبُو مـَا لِك فَتَى المَكْرُمَاتِ قَرِيعُ العَرَبِ
 فَقَد مَاتَ عـَزُّ بَنِي آدَمِ وَقَد ظَهَرَ النُّكْدُ بَعْدَ الطَّرَبِ

قال: فَمِلْتُ إِلَيْهَا فَقَلْتُ لَهَا: مَنْ هَذَا الَّذِي مَاتَ هُوَ لَاءِ الخَلْقِ كُلِّهِمْ بِمَوْتِهِ؟ فَقَالَتْ: أَوْ مَا تَعْرِفُهُ؟ قُلْتُ لِّلهِم لَّا، فَأَقْبَلْتُ وَدَمَعْتُهَا تَتَّحَدِرُ وَإِذَا هِيَ مَقَاءَ بَرِّشَاءِ ثَرْمَاءِ⁽⁴⁾،

(1) لمزيد من الأخبار القصصية انظر: " حديث الأصمعي مع امرأة تكلى من بني عامر نزل بها "، و" حديث سالم بن قحطان العنبري وإعطائه صهره الأبعرة وما قاله لامرأته من الشعر وقد لامته على البذل "، و" حديث همام بن مرة مع بناته الثلاث مع أبيهن وكان قد عنسهن"، القالي، كتاب الأمالي، ج1 ص261-263، ج2، ص 104، 105، على التوالي.

(2) لمزيد من الأخبار غير القصصية انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 42-44، 91. لمزيد من الأمثلة انظر: حديث خلبية الخضرية التي تهوى ابن عم لها، وما فعله قومها بها، وما قالته أم الضحاك المحاربية عندما طلقها زوجها وكانت تحبه الحديث الذي وصفت فيه هند ابنها معاوية رحمهما الله وهي ترقصه، والحديث الذي وصفت فيه ضباعة بنت عامر ابنها المغيرة بن سلمة وهي ترقصه، وحديث ما وصفت به أم الفضل ابنها عبد الله بن عباس وهي ترقصه، وحديث الأعرابية التي سمعت رجلاً ينشد، والحديث حول " كتاب امرأة إلى زوجها وكان مع الحجاج يحضر طعامه وهي في سوء حال"، والحديث الذي جرى بين دريد بن الصمة والخنساء، على التوالي: الأمالي ج2، ص82، 107، 116-117، 136، 173-174، 181.

(3) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 62.

(4) المرأة المقاء: الدقيقة الفخذين؛ وامرأة برشاء: في لونها نقطٌ مختلفة، نقطة حمراء وأخرى سوداء أو غبراء؛ والأنثى الثرماء هي التي تعاني من انكسار سنٍّ من الأسنان المقدّمة مثل الثنايا والرّباعيات، وقيل: انكسار الثنّية خاصّة، انظر: لسان العرب، برش، ثرم، مقق.

فقال: فديتُك! هذا أبو مالك الحَجَّامُ خَتَنُ أبي منصور الحائك! فقلت عليك لعنةُ الله!
والله ما ظننت إلا أنه سيد من سادات العرب".

لقد بنى السَّارد هذا الخبر القصصي على بساطة الموضوع والشكل، ووحدة
الحدث والمكان، والاقتصار على شخصية رئيسة هي شخصية الأعرابية الباكية،
وشخصية ثانوية هي شخصية الأصمعي، وشخصية أبي مالك الحَجَّام وهي هامشية
متحدث عنها، وحوار قصير. لقد دار الخبر حول حدث واحد يتمثل في بكاء امرأة
عند قبر، وإنشادها شعراً يضيء على صاحب القبر آيات الجلال والعظمة، وميل
الأصمعي إليها متسائلاً، وقد انتابته لحظة شعورية واحدة عن هذا الذي مات الخلق
كلهم بموته، ما جعله في موقف ترقب لحل عقدة الحدث، من خلال الحوار القصير
بينه وبين تلك الأعرابية.

وتبدو أهمية الحدث في هذا الخبر في أنه جاء شديد التعبير عن الحالة النفسية
للمرأة الأعرابية التي تبكي الميت؛ وعلى الرغم من أن ذكر مكان الحدث جاء مقتضباً
" في البادية... عند قبر "، ولم يقدم الراوي وصفاً له، فقد استطاع أن ينقلنا إلى عالم
القصة ويدخلنا في أجوائها النفسية الصعبة التي كانت تعيشها الأعرابية. أما زمن
الحدث فقد كان مغيباً.

أما الخبر غير القصصي فيعد أقل الأشكال الأدبية اقتراباً من الشكل القصصي،
حيث تقل فيه العناصر القصصية ولا تكتمل، ويعتمد -غالباً- على الأسلوب الإخباري
المجرد، الذي قد يقصر أو يطول اعتماداً على عدد الأخبار الجزئية، ولا يتضمن
توالداً للأحداث ولا تشابكاً فيها⁽¹⁾، فهو ينزح إلى التقاط الحدث الفذ، والقول الطريف،
ونقل الأقوال المأثورة، والأجوبة المفحمة، ويسعى إلى البساطة، ويأتي في أكثر
الأحيان كلاماً ينقل كلاماً⁽²⁾، ومن ذلك حديث " ما وقع بين رجل من العرب وزوجته
من الخصام والمشاتمة "، إذ كان الأصمعي قد سمع " امرأة من العرب تخاصم زوجها

(1) انظر: غبور، " الإبداع القصصي لابن دريد الأزدي بين التأثر والتأثير "، ص 1609؛

القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 358-359.

(2) انظر: القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 355-356، 358.

وهي تقول: والله إن شربك لاشتفأف⁽¹⁾، وإن ضجعتك لانجعاف⁽²⁾، وإن شملتك لالتفأف، وإنك لتتسبع ليلة تضاف، وتتام ليلة تخاف؛ فقال لها: والله إنك لكرواء الساقين⁽³⁾، قعواء الفخذين⁽⁴⁾، مقاء الرفغين⁽⁵⁾، مفاضة الكشحين⁽⁶⁾؛ ضيفك جاع، وشرك شائع⁽⁷⁾.

ويظهر أن هذا الخبر يقوم على نقل كلام كل من المرأة وزوجها، معتمداً على الوصف الذي يشكل عنصراً مهماً وركناً أساسياً في تشكيل الخطاب السردى، فهو يقوم على وصف أحوال كل منهما وتعطيل السرد، ذلك أن الراوي عندما يشرع في الوصف يقطع بصيغة وقتية تسلسل الأحداث، ويصبح فيها الزمن معلقاً.

لقد بنى الراوي جزءاً كبيراً من حديثه على الوصف والتصوير اللذين يقومان بتحليل شخصيتي المتخاصمين ونفسيتهما، ووصف ردود أفعالهما، ويعني ذلك أن الراوي لا يسعى وراء الوقائع والأحداث، بل يسعى إلى تحليل النفوس من خلال تصوير الموقف الذاتي لكل منهما، أمام الآخر، فالرجل لم يدع مجالاً إلا اتخذته وسيلة للانتقاص من أنوثة زوجته وهيئتها وكشف المستور من عيوبها الجسمية والنفسية، أما هي فقد وقفت عند ما رأته من عيوب نفسية وأخلاقية وسلوكية تنتقص من كرامته وشهامته، وهو موقف يتسم بالسخرية والتهمك. لقد نزع السرد إلى التركيز على القول

(1) الإشتفأف: من شَفَّ الماءَ يَشْفُهُ شَفًّا واشتَقَّه واستشَفَّه وتشافَّه وتشافاه تقصي شرب جميع ما في الإناء، انظر: لسان العرب، شفف.

(2) الانجِعَاف: الانصراع، يقال: ضربه فجعه: صرَعَهُ، وضربَ به الأرضَ، انظر: ابن منظور، لسان العرب، جعف.

(3) الكرواء: الدقيقة الساقين والكرأ: دقة الساق، والكرى: النوم، والكرأ: بمعنى الكروان.

(4) القعواء: المتباعدة ما بين الفخذين، وامرأة قعواء: دقيقة الفخذين أو الساقين، وقيل: هي المقاء: الدقيقة الفخذين، انظر: ابن منظور، لسان العرب، قعا.

(5) الرفغاء من النساء: الدقيقة الفخذين المعيقة الرفغين الصغيرة المتاع، الرفغ والرفغ: أصول الفخذين من باطن، انظر: ابن منظور، لسان العرب، رفع.

(6) المفاضة من النساء العظيمة البطن المسترخية اللحم، وقد أفيضت. والكشحان: الخاصرتان، انظر: ابن منظور، لسان العرب، فيض، كشح.

(7) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص104.

الطريف الذي جاء في هيئة سخرية تهكمية ترصد العيوب الجسمية والنفسية، وتتحدث عن العورات، أكثر من تركيزه على الحدث، وهو التخاصم والتشاحن.

ومن ذلك أيضاً ما حدث به ابن دريد من أن رجلاً " من أهل الشام مرَّ بامرأة من كلب فقال: هل من لبنٍ يُباع؟ فقالت: إنك للثيم أو حديث عهد بقومٍ لئام، هل يبيع الرسلَ كريمٌ أو يمنعه إلا لثيم! إنا لندع الكومَ لأضيافنا تكوس، إذا عكفَ الزمان الضروس؛ ونغلي اللحمَ غريضاً، ونهينه نضيحاً" (1).

لقد سعى السرد إلى نقل قول الشخصيتين: " رجل من أهل الشام "، و" امرأة من كلب "، وهو يقوم على الوصف لحال كل منهما، وهو خبر عادي اعتمد على الأسلوب الوصفي الإخباري المجرد لأحوال، من خلال الحوار القصير الذي جرى بينهما، ولم يكن السرد معنياً بالجرى وراء الحدث.

نخلص إلى القول هنا أن هذه النماذج التي أوردناها عن الخبر غير القصصي قد اجتمعت فيها شروط الخبر غير القصصي وإن كانت بشكل متفاوت (2)، من اعتماد

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 206. الكوم: القطعة من الإبل. وناقاة كَوْماء: عظيمة السنم طويلته. والرسل: اللبن؛ يقال: كثر الرسل العام أي كثر اللبن. وكاس البعير يكوس كوساً، إذا مشى على ثلاث قوائم، وقيل: هو أن يرفع البعير إحدى قوائمه. والغريض: الطري من اللحم والماء واللبن والتمر. يقال: أطعمنا لحمًا غريضاً أي طرياً. والنضيج: المطبوخ، يقال: جاد نضج هذا اللحم. وقد أنضج الطاهي، وأنضجته إبانته، "فهو" منضجٌ ونضيجٌ وناضجٌ، ابن منظور، لسان العرب، رسل، غرض، كوس، كوم، نضج.

(2) لمزيد من الأمثلة انظر: حديث خلبية الخضرية التي تهوى ابن عم لها، وما فعلوه قومها بها، وما قالت أم الضحاك المحاربة عندما طلقها زوجها وكانت تحبه الحديث الذي وصفت فيه هند ابنتها معاوية رحمهما الله وهي ترقصه، والحديث الذي وصفت فيه ضباعة بنت عامر ابنتها المغيرة بن سلمة وهي ترقصه، وحديث ما وصفت به أم الفضل ابنتها عبد الله بن عباس وهي ترقصه، وحديث الأعرابية التي سمعت رجلاً ينشد، والحديث حول " كتاب امرأة إلى زوجها وكان مع الحجاج يحضر طعامه وهي في سوء حال"، والحديث الذي جرى بين دريد بن الصمة والخنساء، على التوالي: القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 83، 86، 116 - 117، 136، 173-174.

على الأسلوب الإخباري الجاف، أو قلة في العناصر القصصية، أو اعتماد على تعدد الأخبار الجزئية، أو تفاوتها.

2.3.1 الحكاية

تعد الحكاية من أقرب أشكال أحاديث ابن دريد إلى الشكل القصصي؛ وذلك لاشتمالها على قدر كبير من العناصر القصصية، وعرضها أحداثاً متسلسلة مركبة تترابط فيما بينها معاً لتنتج حدثاً وأثراً متكاملًا، يكشف عن حقيقة الشخصية المحورية وتقديمها بصورة فنية، ويعني ذلك أن الحكاية تشتمل على أحداث متعددة ومتوالدة عن بعضها بعض، كما أنه قد يتولد أكثر من حدث عن حدث واحد؛ ما يؤدي إلى تشابك الأحداث وتعددتها في بعض الأحيان⁽¹⁾، إذ " إن هذا التشابك يؤدي إلى تداخل المواقف وتطور الأحداث، حيث يجد الخيال فرصة للحركة وتجد صنوف التعبير فرصة للظهور، كما يجد اللغوي فرصة للشرح، والقاص فرصة للإثارة،"⁽²⁾ لكنها عامة تتسم بالترابط والتسلسل المنطقي، وتعدد الأحداث وتشابكها قد يؤدي إلى تعدد الشخصيات إلى حد ما، وتشابك العلاقات بينها؛ لأن الشخصية هي المنتجة للأفعال والمتأثرة بها، كما اتسمت الشخصيات أيضا بالتنوع، فثمة شخصيات محورية، ورئيسية، وهامشية، كما تعد الحكاية أكثر الأشكال القصصية توظيفاً لعنصري الزمان والمكان"⁽³⁾.

وتحفل أحاديث ابن دريد بعدد من الحكايات التي تتفاوت في طولها، منها ما جاء طويلاً⁽⁴⁾، ومن أمثله "حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام من قضاة"⁽⁵⁾، حيث

(1) غبور، " الإبداع القصصي لابن دريد بين التأثر والتأثير"، ص 1608. وانظر أيضاً:

درويش، ابن دريد رائد فن القصة العربية، ص 120-122.

(2) درويش، تقنيات الفن القصصي عبر الراوي والحاكي، ص 58.

(3) غبور، " الإبداع القصصي لابن دريد بين التأثر والتأثير"، ص 1608.

(4) لمزيد من الأمثلة، انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 126-128، ج2 ص 6؛ ابن

دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 72-75، 107-108، 135-137؛ ابن دريد، "من

أخبار أبي بكر بن دريد"، ص 166، 167.

(5) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 126-128.

كان ثلاثة أبطن من قضاة: بنو ناهب، وبنو داهن، وبنو رثام، يقيمون بين الشحر وحضرموت، وكان بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بني رثام، وكانت لبني رثام عجوز تسمى خويلة، لها أمة تسمى زبراء، فاجتمع بنو رثام ذات يوم في عرس لهم وهم سبعون رجلاً، فطعموا وأقبلوا على شرايهم، وكانت زبراء كاهنة، فقالت لخويلة: انطلق بنا إلى قومك أنذرهم، عن أبناء جسام؛ فوافقت قوماً أشارى سكارى؛ فأقسمت لهم زبراء أنها تشم ذفر الرجال تحت الحديد، فانصرف عنهم وارتاب قوم من ذوي أسنانهم، فانصرف منهم أربعون رجلاً وبقي ثلاثون فرقدوا في مشربهم، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعب فقتلواهم أجمعين، وأقبلت خويلة مع الصباح فوقف على مصارعهم، ثم عمدت إلى خناصيرهم فقطعتها، وشكلت منها قلادة وألقتها في عنقها، وخرجت حتى لحقت بمرضاوي بن سعوة المهري، وهو ابن أختها، فأناخت بفنائها وأنشأت تستحثه على الثأر شعراً. فيحرم مرضاوي على نفسه المتعة حتى يثأر لقومه، ثم طرق ناعباً وداهناً فأوجع فيهم.

لقد اشتمل هذا الحديث على عدد كبير من العناصر القصصية المتشابهة كالشخصيات الرئيسية (المركزية) والتي تقوم بدور البطولة، ويقدمها النص بتفصيلات دقيقة، يمكن المتلقي من رسم صورة واضحة لها، وأول هذه الشخصيات (خويلة) التي تمثل الشخصية الرئيسية التي تدور حولها الأحداث والشخصيات الأخرى الرئيسية والثانوية منذ استهلال الحديث. وثاني هذه الشخصيات زبراء الكاهنة، التي تنتمي إلى عالم الكهانة، الذي يقوم على ادعاء إدراك الغيب. أما الشخصية الثالثة فهي (مرضاوي)، وهي شخصية تاريخية شاركت في الأحداث من خلال علاقتها (بخويلة البطل). أما الشخصية الرابعة فهي شخصية فتى بني رثام (هذيل بن منقذ) الذي سخر من تنبؤ زبراء الكاهنة عندما أكدت لهم صدق نبوءتها. وهناك الشخصيات الثانوية،

ومنها شخصيات الأربعين رجلاً من ذوي الأسنان من بني رثام، وقوم بني راغب وقوم بني داهن⁽¹⁾.

ويظهر لنا عند دراسة هذه الحكاية المشاهد التي تعتمد على السرد والحوار؛ حيث يأتي على شكل سرد تتوالى فيه الأفعال بحيث يشعر القارئ بتطور الحدث وتناميه، ويشعر القارئ أن النص غطى مدة زمنية مناسبة، ويأتي المشهد على شكلين: الأول: السرد الذي تتوالى فيه الأفعال والأحداث، والثاني: الشكل الحوارى المسرحي، وقد ظهرت المشاهد القائمة على وصف التفصيلات الدقيقة للأحداث في هذا الحديث، ومن ذلك مجيء خويلة تتوكأ على زبراء وقيام القوم إجلالاً لخويلة⁽²⁾.

أما الأحداث فهي تتوالى في الزمان على نحو فني، حيث تبدأ من انطلاق خويلة مع زبراء الكاهنة إلى قومها، ثم خروج مرضاوي وطرق بني داعب وبني داهن وتحريض خويلة مرضاوي للأخذ بالثأر، ونجد أن كل هذه الأحداث المتعددة والمتوالدة عن بعضها البعض مترابطة ومتسلسلة منطقياً، ومتلاحمة ومتتابعة؛ بحيث يفضي ذلك إلى تشكيل حكاية تقوم على جملة من العناصر الفنية التي جعلتها حكاية قصصية كاملة⁽³⁾.

وتأتي بعض الأحاديث في شكل حكايات قصصية قصيرة جداً⁽⁴⁾، وتقوم على توظيف المقومات السردية كالأحداث والشخصيات والزمان والمكان بشكل مكثف،

(1) انظر: دراسة هذا الحديث: القيسي، فايز، "جماليات خطاب النسوة في أحاديث ابن دريد: حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام أنموذجاً"، في ابن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء، تحرير عليان الجالودي، وكمال المقابلة، منشورات وحدة الدراسات العمانية، جامعة آل البيت، 2011، ج3، ص 1566-1569.

(2) انظر: المرجع نفسه، ص 1575-1576.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص 1563-1583.

(4) لمزيد من الأمثلة، انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 35-36.

ويتحقق ذلك من خلال الإيجاز واختيار الجمل القصيرة في التعبير عن الأحداث، والابتعاد عن الإسهاب، في المشاهد والوقفات الوصفية قياساً للحكايات العادية⁽¹⁾.

ومن ذلك ما نقله ابن دريد عن أبي عبيدة، " قال: خَطَبَ رجلٌ من بكرِ بنِ وائلٍ إلى رجلٍ من مرادِ ابنته، فهمَّ أن يزوجهَا، فبينما الجاريةُ يوماً تلعبُ مع الجواري إذ جاء البكريُّ، فقلن لها: هذا خاطئك. فقالت: ما رجلٌ هو أحبُّ إليَّ أن أكونَ قد رأيتُه منه - فلما رأت رجلاً كبير السن، قبيحَ الوجه، قالت أوقدُ رضيَ أبي؟ قلن: نعم. فدخلت البيتَ، واشتملت على السيف، وشدَّت عليه، فسبقها عدوًّا، ونالته بضربةٍ "⁽²⁾.

لقد عمد السارد في هذه القصة إلى اقتناص لحظة عابرة في حياة الفتاة التي تمثل الشخصية الرئيسية في القصة، عندما أخبرتها الجواري وهي تلعب معهن أن والدها همَّ أن يزوجهَا، وأُشرن إلى خاطبها، فرأت رجلاً كبير السن، قبيحَ الوجه، فكانت نظرة تحمل المفاجأة الصادمة التي تصل حدَّ الإثارة وتحفيز مخيلة المتلقي وهو اجسه تجاه ما يسمع، فانفلتت من بواطن نفس الفتاة الصغيرة رغبة جامحة في الانتقام من هذا الخاطب، وردة فعل قوي تولدت من شعور خفي بالتهميش والظلم، وشطط السلطة الأبوية، وزيف الأعراف والتقاليد التي تعطي الأب حق اختيار زوج لابنته دون مشورتها دفعتها إلى أن تدخل البيت، وتشتمل على السيف، وتشدُّ على الرجل، الذي سبقها عدوًّا، ونالته بضربة. كما عمد السارد إلى تكثيف لغته، وتخليصها من الوصف من خلال الإكثار من استعمال أفعال الحركة " فبينما الجاريةُ يوماً تلعبُ، قالت: أوقدُ رضيَ أبي؟ قلن: نعم. فدخلت البيتَ، واشتملت على السيف، وشدَّت عليه، فسبقها عدوًّا، ونالته بضربةٍ "، إلى جانب الاعتماد على الجمل القصيرة، واستخدام الحوار بين البطل/ الفتاة وزميلاتها، أكثر من الاعتماد على السرد، إضافة إلى أن الحكاية تنتهي بخاتمة مدهشة أو مفتوحة على احتمالات كثيرة.

(1) انظر: الحسين، أحمد جاسم، القصة القصيرة حداً، دار عكرمة للطباعة والنشر، دمشق، ص 33-39؛ يوسف الشاروني، دراسات في القصة القصيرة، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق، 1989، ص 43-55.

(2) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 183.

3.3.1 النادرة

تعد النادرة وحدة سردية قصيرة جداً⁽¹⁾؛ إذ تتراوح معظم نصوصها بين سطرين إلى أربعة أسطر؛ لذا فهي تتسم بالتركيز والتكثيف الشديدين؛ إذ تقوم على تصوير موقف معين صغير في لحظة معينة من حياة شخصية من الشخصيات التي تدور حولها، دون تحليل هذا الموقف أو محاولة ذكر الدوافع التي أدت إليه، أو الآثار التي تنجم عنه؛ ومن ثم فهي لا تهتم بما قبل هذا الموقف أو بما بعده، وتتميز بقلّة عدد الشخصيات فيها، التي تقدم بصورة نمطية ومسطّحة دون اهتمام بالجوانب النفسية فيها، أو سبر لأغوارها ودواخلها؛ ذلك أنها تنتمي إلى القص الشفاهي وبالندرة والطرافة⁽²⁾، الذي يركز على الصراع الخارجي للشخصيات لا الصراع الداخلي⁽³⁾. وتتسم العلاقات بين الشخصيات بالبساطة النابعة من قلّة الأحداث وعدم

(1) انظر: خليفة، علي محمد السيد، بنية السرد في النادرة: نوادر الأعراب في كتاب عيون الأخبار نموذجاً، دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2010، ص 75؛ الشاروني، يوسف، الحكاية في التراث العربي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2008، ص 229؛ ابن رمضان، فرج، الأدب العربي القديم نظرية الأجناس القصص، ط1، دار محمد علي الحامي للنشر، 2001، ص 98-100؛ عبيد، علي، "في تحليل النص السردى القديم: النادرة أنموذجاً"، في الراوي: دورية تعنى بالسرديات العربية، النادي الثقافي بجدة، ع 25، شوال 1433هـ/سبتمبر 2012م، ص 33-58؛ ص 33-34.

(2) لعله من المفيد القول إن النوادر نشأت شفاهية، ودونت بعد ذلك في القرنين الثاني والثالث الهجريين حول نشأة النادرة وتطورها، انظر: النجار، محمد رجب، من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2002، ج2، ص 151؛ النجار، النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية، ج1، ص 252؛ بن رمضان، فرج، الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس: القصص، ص 98-102.

(3) انظر: إبراهيم، نبيلة، "لغة القص في التراث العربي القديم"، مجلة فصول، يناير-فبراير، مارس، 2م، ع 2، 1984، ص 15؛ مرتاض، عبدالمك، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 240، 1998، ص 101؛ نجم، محمد يوسف، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص 103؛ راغب، نبيل، فن التأليف الروائي، مكتبة نهضة مصر، دار مصر للطباعة، 1990، القاهرة، ص 46؛ النجار، "من فنون الأدب الشعبي" في التراث العربي، ج 2، ص 183، 216.

تشابكها⁽¹⁾. وتسعى النادرة في الغالب إلى إبراز جانب واحد من جوانب الشخصية التي تدور حولها، كالبخل أو التطفل أو الكرم، أو السذاجة أو غير ذلك من الصفات والطبائع⁽²⁾.

وتعد النادرة ضمن بلاغة الهزل والطرافة؛ ذلك أنها تهدف إلى إثارة الضحك وإدخال السرور إلى نفسية المتلقي، ودفع الملالة عنه⁽³⁾.

ومن الأحاديث التي جاءت في شكل نادرة ما حدث به ابن دريد عن أبي حاتم وعبد الرحمن عن الأصمعي قال: "مرّ أعرابي بأعرابية تبكي زوجها، فقال: وما يُبكيك! لا جمَعَ اللهُ بينك وبينه في الجنة، ثم مرّ بها بعد ذلك فقال: يا فلانة، رَفِّئيني فإنّي قد تزوّجت، فقالت: نَعَمْ، بالبيت المهذوم، والطائر المشؤوم، والرّحم المَعقُوم"⁽⁴⁾.

ومن الملحوظ أن هذه النادرة تضم شخصيتين تتشاركان في البطولة؛ هما شخصيتا الرجل والمرأة اللتان تنتميان إلى عالم الأعراب، وقد تشاركتا معاً في صناعة النادرة، وقامتاً بدور أساسي فيها، فقد أثار الرجل الأعرابي الطرافة بقوله للمرأة: " لا جمَعَ اللهُ بينك وبينه في الجنة"، وهو قول غير متوقع في ظرف تبكي فيه المرأة زوجها، وقد جاء قول الرجل متضاداً مع الموقف، وهو أمر من هذا النوع ولا يختلف ما قام به الأعرابي الرجل من تصرفات وأقوال غريبة مثيرة للسخرية عما

(1) انظر: غبور، "الإبداع القصصي لابن دريد"، ص 1609؛ خليفة، علي محمد السيد، بنية السرد في النادرة (نوادير الأعراب في كتاب عيون الأخبار نموذجاً)، ط1، دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2010، ص 25-26.

(2) انظر: شرف، عبدالعزيز، الأدب الفكاهي، الشركة المصرية العالمية (لونجمان)، القاهرة، 1992، ص 94؛ خليفة، بنية السرد في النادرة، ص 75.

(3) انظر: خضر، عادل، "صناعة النادرة، بحث في بلاغة الهزل"، الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم: أعمال الندوة التي نظمها قسم اللغة العربية في كلية الآداب، جامعة منوبة، من 22 إلى 24 أبريل 199، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، 1994، ص 243؛ بن رمضان، الأدب العربي القديم نظرية الأجناس القصص، ص 93-94.

(4) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 173.

قامت به الأعرابية المرأة، من ردة فعل على قوله المستنفر السابق؛ إذ رفأته بقولها: " بالبيت المهذوم، والطائر المشؤوم، والرحم المعقوم "(1).

لقد أظهر هذا الحديث بعض الجوانب الاجتماعية في ذلك العصر؛ إذ هو يتناول بعض مفردات الحياة اليومية، وهي تمثل ردة فعل الأعرابية بالنقد الساخر على كل ما هو خارج عما هو متعارف عليه بين الناس، وعلى الأفعال الغريبة المستنزة وقتذاك(2).

أي تدعو له بالرفاء والبنين، أي بالالتئام والاتفاق والبركة والنماء وجمع الشمل وحسن الاجتماع، وما يتصل بذلك من السكون والهدوء والطمانينة(3)، وهو أمر لم يكن متوقعا منها؛ إذ هي تدعو عليه بالشؤم فيما تكره عاقبته لأن مذهب العرب كان التطير بالسوانح والبوارح من الطير، بأن يكره صحبة امرأته فيفارقها بأن يطلقها، وأن يتداعى بيته للخراب ويتكسر فينهدم عليه، وأن تكون امرأته معقومة الرحم كأنها مسدودتها، وأن يعقم الله رحمها فلا تلد، وهو أمر يناقض ما اعتادت عليه العرب في آدابها الاجتماعية.

وتظهر في بعض نصوص النوادر شخصية واحدة تقوم بالدور الأساسي فيها، وتأتي الشخصية الأخرى هامشية(4)؛ ومن ذلك حديث الغلام الذي كان بالمدينة يحمق " فقال لأمه: يوشك أن تريني عظيم الشأن، فقالت: فكيف؟ والله ما بين لأبنتيها أحقق منك! فقال: والله ما رجوتُ هذا الأمر إلا حيث يئست منه، أما علمت أن هذا زمان الحمقى وأنا أحدهم"(5).

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 173.

(2) انظر: خليفة، بنية السرد في النادرة، ص 101؛ النجار، محمد رجب، من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2003، ج 2، ص 181-182؛ إبراهيم، نبيلة، " لغة القص في التراث العربي القديم "، مجلة فصول، يناير - فبراير، مارس، م 2، ع 2، 1984، ص 17-18.

(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب، رفاً.

(4) انظر: خليفة، بنية السرد في النادرة، ص 85.

(5) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 95. اللأبة واللوبة: الحرّة، وهي الأرض التي قد ألْبَسَتْهَا حِجَارَةٌ سَوْدٌ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، لوب.

ومن الملاحظ أن شخصية الغلام الأعرابي الذي تكلف الحمّاقَة في هذه النادرة فاعلة بما يقوله من كلام يثير الدهشة والفاكاهة معاً، وكان التركيز في النادرة على شخصيته، فأُسند إليه دور البطولة. أما الشخصية الأخرى " الأعرابية الأم " فهامشية ذات دور محدد فيها، فقد قامت بتهيئة الموقف في النادرة ليرد عليها ابنها بقول غريب مثير للفاكاهة. وتشتمل هذه النادرة على تلميحات وإشارات سياسية يقدم نقداً عاماً للأوضاع السياسية في الدولة، ومنها تبوء الحمقى والمغفلين مواقع بارزة في المجتمع، وهي بذلك يتحدث عن المسكوت عنه في المجتمع، وتكشف عن أن بعض رجال الدولة لم يكونوا أهلاً لمناصبهم.

الفصل الثاني

السرد النسوي في أحاديث ابن دريد (الرؤى)

لقد تشعبت موضوعات الخطاب النسوي تبعاً لتشعب جوانب الحياة في المجتمعات التي اتصلت بها الأحاديث، وواقع المرأة العربية فيها، من حيث الامتداد الزماني والمكاني، فقد ضمت أحاديث النسوة - كما سبق - إشارات إلى أزمنة مختلفة: الماضي البعيد الذي يتمثل في زمن الحميريين والتبابعة في جنوب الجزيرة العربية، وهي أزمنة موعلة في القدم، وما تلاها من العصر الجاهلي في وسط الجزيرة العربية وشمالها، والماضي القريب الذي يتمثل في ما قبل ظهور الإسلام بقليل، وزمن النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين. والزمن الحاضر بمعناه الواسع ويشمل العصر الأموي ومطلع العصر العباسي؛ أي في حدود منتصف القرن الثاني الهجري.

وقد اعتمدت الباحثة على ربط متون الأحاديث بسياقها التاريخي والثقافي والمكاني؛ أي تحديد الزمن التاريخي للأحداث والأمكنة التي جرت فيها، والكشف عن ملامح الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تعبر عنها نصوص هذه الأحاديث، وذات الصلة بالمرأة.

وقد حاولت الباحثة في هذه الدراسة أن تصنف موضوعات الخطاب النسوي في مجموعات متجانسة بحسب مضامينها وتقاربها في أغراضها، حتى تكون صورة الخطاب النسوي واضحة المعالم بينة القسمات، ومعبرة عن دور المرأة العربية في ميادين الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية المختلفة. من هنا رأت الباحثة أن تكون هذه المجموعات: عالم الغيب والمرأة، ثم المرأة وشؤون القبيلة، ومشكلات المرأة الاجتماعية، وصورة المرأة، وصورة الرجل.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه المجموعات لا تعني الحرفية في الدلالة على مضامين الخطاب؛ إذ إن وشائج القربى بين هذه المضامين قوية جداً، والتداخل والامتزاج بينها وثيق أيضاً، فهناك تشابه وتقارب في موضوعات عديدة بين عالم

الغيب والمرأة، والمرأة وشؤون القبيلة والمجتمع، وبين مشكلات المرأة وصورة المرأة والرجل.

1.2 عالم الغيب والمرأة

لقد عالجت بعض نصوص السرد النسوي عدداً من القضايا المتصلة بعالم الغيب الذي كان يحتل مكانة مهمة في التفكير العربي عامة، وقبل الإسلام خاصة، مثل: الكهانة، والخط بالرمل، ورمي الحصى، والاتصال بالجن، والتنبؤ بأحوال السماء وتقدير فرص سقوط المطر، وغير ذلك.

1.1.2 عالم الكهانة

لقد حظي عالم الكهانة بمكانة رفيعة في وجدان الناس في العصر الجاهلي، ونسجت حوله أساطير وأخبار غريبة عن الكهان من الرجال والنساء الذين كانوا يعرفون المخبأ أو يدعون بذلك اتصالهم بالجن التي تسترق لهم السمع فتكشف لهم الحجب وما تأتي به ألواح الغد. فقد كان الواحد من هؤلاء الكهنة يرتبط مع ربي يفرغ إليه لاستشارته في الأمور الكبرى كإعلان حرب أو قعود عن نصره أحلاف أو كشف قتل إنسان أو ناقة أو إخلال بنذر من النذور لأربابهم لا يستطيعون أداءه، وقد يلجأون إليهم للحكم أو للمنافرة ممثلين لأحكامهم؛ فهي لا تنقص ولا تزد، وقد يطلبون إليه تعبير رؤاهم وأحلامهم، وهم بدورهم قد يتنبئون لأقوامهم بوقوع كارثة أو حدوث غزو⁽¹⁾.

(1) لمزيد من التفصيل انظر: فهد، توفيق، الكهانة العربية قبل الإسلام، ترجمة حسن عودة ورندة بعث، مراجعة توفيق فهد وزياد مدني، تقديم الترجمة العربية رضوان السيد، شركة قدمس للنشر والتوزيع، بيروت، 2007، ص 99-100؛ ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1960، ص 38؛ الحوسني، عبد الحي بن علي سيد أحمد، نثر المرأة من الجاهلية إلى نهاية القرن الأموي ج1، دراسة وتحقيق المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2004، ص 23؛ بلبع، عبد الحكيم، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ط3،

وعلى الرغم من انقراض عالم الكهانة بمجيء الإسلام؛ فقد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب في زمن البعثة النبوية، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء وعلى الرغم من ذلك فإن بقايا له ظلت في ذاكرة الناس ووجدانهم، وظلت أخبار وأساطير تتناقل عن هؤلاء الذين يعرفون المخبأ أو يدعون ذلك⁽¹⁾.

وقد عالجت بعض أحاديث ابن دريد المتصلة بالنساء والكهانة عدداً من الموضوعات منها الحرب والغزو، والتنبؤ بمجيء الرسول صلى الله عليه وسلم، والأحوال الجوية، والكشف عن الجمال الضالة، والمسروقة وغيرها.

وكانت وظائف الكاهن تكتسي أهمية كبيرة في زمن الحرب واللقاءات بين القبائل العربية؛ ذلك أن دور الكاهن كان رئيساً عند الانطلاق للحرب أو الغزو أولاً، ثم في أثناء الطريق أو المسير، وأخيراً خلال أحداث اللقاء، فقد كانت الكهانة لدى العرب تسهم بدور كبير في مجرى الأحداث والوقائع⁽²⁾.

لقد تعددت الأحاديث التي تدور حول كاهنات أو عرفات قمن بأدوار مهمة قبل غزوة من الغزوات⁽³⁾، ومن هؤلاء زبراء الكاهنة التي كانت قد انطلقت مع سيدتها العجوز " خويلة " إلى قومها بني رثام وكانوا قد اجتمعوا " ذات يوم في عرسٍ لهم وهم سبعون رجلاً، فَطَعَمُوا وَأَقْبَلُوا على شرابهم "، لتتذرهم عن أنباء جسام، كانت قد طالعتها، من خلال وحي كانت قد تلقته من أن هناك غزواً سيلحق بهم أذى كبيراً، فقد كان بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين عليهم. وقد أقسمت لهم

مكتبة وهبة، القاهرة، 1975، ص 26؛ القيسي، " جماليات خطاب النسوة في أحاديث ابن

دريد: حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام أنموذجاً"، ص 1567.

(1) انظر: درويش، أحمد، ابن دريد رائد فن القصة العربية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2004، ص 143.

(2) فهد، الكهانة العربية، ص 99-100.

(3) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 126-130.

بعدد من ظواهر الكون الطبيعية⁽¹⁾؛ لتوكيد كلامها وإبراز معانيه ومقاصده على نحو يدفع إنكارهم وإزالة شكهم وتوكيد الأمر في نفوسهم، تقول مخاطبة إياهم: ب اللوح الخافق، والليل الغاسق، والصبح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوداق أن شجر الوادي ليمشي مَشْيَ الْمُتَقَلِّ، وليخدع عن غَفْلَةٍ، وإن صخر الجبل العظيم، لينذر بموت وهلاك، لا منجاة منه، وتقول: " واللوح الخافق⁽²⁾، والليل الغاسق، والصبح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوداق؛ إِنَّ شَجَرَ الْوَادِي لَيَأْدُو خَتْلًا⁽³⁾، وَيَحْرِقُ أَنْبَابًا عَصَلًا⁽⁴⁾، وَإِنْ صَخَرَ الطَّوْدُ لَيُنْذِرُ تَكْلًا⁽⁵⁾، لَا تَجِدُونَ عَنْهُ مَعْلًا⁽⁶⁾... " (7).

إلا أن تحذيرها لهم لم يفدهم في شيء؛ ذلك أنها " وافقت قوماً أشارى سُكَارَى " (8)، كانوا قد استهزؤوا بقولها، وخالفوا أمرها؛ إذ استولى عليهم الفرح والغرور والتكبر والخيلاء، فعاودت محاولتها مرة أخرى لإقناعهم فقالت لهم: مهلاً

(1) حول أساليب القسم في العصر الجاهلي انظر: عمايرة، حليلة أحمد، أسلوب القسم في العربية دراسة وصفية إحصائية، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، م33، ع 369، 2012.

(2) اللوح: الهواء بين السماء والأرض. انظر: ابن منظور، لسان العرب، لوح.

(3) الختل: تخادع عن غفلة. ختله يختله ويختله ختلاً وختلاناً وختلته: خدعه عن غفلة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ختل.

(4) حرق أنيابه إذا حك بعضها ببعض، والعرب تقول عند الغضب يغضبه الرجل على صاحبه: "هو يحرق على الأرم" أي الأسنان، والعصل: المعوجة، واحدها أعصل. انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 129.

(5) التكل: بالضم: الموت والهلاك وفقدان الحبيب والولد وعلى الأخير اقتصر. انظر: ابن منظور، لسان العرب، تكل.

(6) المعل: سير النجاء. والمعل: السرعة في السير؛ أي لا تجدون فرصة للنجاة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، معل.

(7) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص127.

(8) المرجع نفسه، ج1، ص127. الأشر: الفرح والغرور والتكبر والخيلاء، انظر: ابن منظور، لسان العرب، أشر.

يا بني الأعزة، والله إني لأشُمُّ دَفَرَ الرجال⁽¹⁾ تحت الحديد، فقال لها فتى منهم يقال له هُذَيْل بن مُنْقَذ: يا خَذَاق⁽²⁾، والله ما تَشْمِينِ إِلَّا دَفَرَ إِبْطِيكِ، فانصرفتَ عنهم"، وارتأب قوم من ذوي أسنانهم، فانصرف منهم أربعون رجلاً وبقي ثلاثون فرقدوا في مَشْرَبِهِمْ، وطَرَقْتَهُمْ بنو داهن وبنو ناعب فقتلوهم أجمعين"⁽³⁾.

وتتصل بعض أحاديث الكاهنات بالتنبؤ بمجيء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁽⁴⁾، ومن ذلك حديث سوداء بنت زهرة بن كلاب، وهم أحد بطون قريش، وذلك أنها حين ولدت ورأها أبوها بيضاء ناصعة البياض، وبها شامة سوداء، فسمّاها السوداء، أمر بوأدها، وكانوا يئدون من البنات ما كان على هذه الصفة⁽⁵⁾، فأرسلها إلى الحَجُونِ⁽⁶⁾ لتدفن هناك. فلما حفر لها الحافر، وأراد دفنها سمع هاتفاً يقول:

يا وائِد الجارية الصبيّة
خلّ وذرّها عنك في البريّة
إنّ لها الأعقاب في الأنسيّة

فالتفت فلم ير شيئاً فعاد لدفنها، فسمع الهاتف فعاد إلى أبيها وأخبره بما سمع، فقال: "دعها فسيكون لها نبأ". فكانت كاهنة قريش. وقد كبرت هذه الجارية وتزوجت وانتشر رحمها في الناس، ولما حضرتها الوفاة قالت: "أعرضوا عليّ ولدي"، فعرض عليها رجالات عدة من بني زهرة وبني عبد مناف وغيرهم، وقد تنبأت لكل واحد منهم، وكان من بينهم "عبد الله بن جدعان، فقالت: هذا سيد

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص127. الدَفَرُ: النَّتْنُ خاصة ولا يكون الطيبَ البتّة، ويقال أَدْفَرَ الرجلُ إذا فاح ريح صنّانِهِ. غيره: الدَفَرُ، بالذال وتحريك الفاء، شدّة ذكاء الرائحة، طيبة كانت أو خبيثة؛ ومنه قيل: مِسْكٌ أَدْفَرٌ، ورجل أَدْفَرٌ ودَفِرٌ، وامرأة دَفْرَاءٌ ودَفِرَةٌ. ويقال للأمة إذا شُتِمَتْ: يا دَفَارٍ، مثل قطام، أي يا مُنْتِنَةً. انظر: ابن منظور، لسان العرب، دفر.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص127. المَخْدَقَةُ بالكسر: الاسْتُ. ويقال للأمة: يا خَذَاق، يكونون به عن ذلك. انظر: ابن منظور، لسان العرب، خذق.

(3) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص127.

(4) انظر على سبيل المثال: ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 122-125.

(5) انظر: ابن دريد، من أخبار أبي بكر ابن دريد، ص 167.

(6) الحَجُونُ، بفتح الحاء، جبل بمكة وهي مقبرة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، حجن.

البطحاء غير أن الخمر تغلب عليه"، ثم عرض عليها هشام بن المغيرة، فقالت: شريف فارس مطاع عابس". ثم عرض عليها أبو ربيعة بن المغيرة، فقالت: سيد لبيب شريف حسيب إن انقرض بقي الذكر، وليس في ولده شرف، فإن كان ففي امرأة فكانت ابنته أم سلمة زوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁽¹⁾.

ثم قالت: "أعرضوا عليّ بناتي فإن فينا نذيراً أو من تلد نذيراً، فعرضت عليها الشفاء بنت عوف أم عبد الرحمن بن عوف⁽²⁾ فقالت: ليست بها وستلد، فولدت عبد الرحمن بن عوف. ثم عرضت عليها هالة بنت وهيب، فقالت: ليست بها وستلد، فولدت عبدالله بن مسعود⁽³⁾، ثم عرضت عليها نَعَم بنت الحارث بن زهرة، فقالت ليست بها وستلد، فولدت ذا الشمالين بن عمرو الخزاعي، ثم عرضت عليها آمنة بنت وهب، فقالت واللات والعزى إنها لنذير أو تلد نذيراً، فولدت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".⁽⁴⁾

لقد تحدثت هذه الكاهنة بما أتتها به الشياطين من الجن ما تسترق من السمع في السماء قبل أن تُحجَب عن ذلك برمي النجوم والشهب بمبعث أمر النبي محمد قبل ولادته⁽⁵⁾، فقد تنبأت بأن في بنات قومها بني زهرة "نذيراً أو من تلد نذيراً"؛ لهذا طلبت أن يعرضن عليها، وقد عرضن عليها فتنبأت لكل واحدة منهن، غير أنها

(1). ابن دريد، من أخبار أبي بكر ابن دريد، ص 167.

(2) هو عبد الرحمن بن عوف بن غبد عوف بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ولد بعد الفيل بعشر سنوات ومات سنة اثنتين وثلاثين وهو ابن خمس وسبعين سنة، انظر: عكاشة، ثروت - تحقيق -، المعارف لابن قتيبة، ط2، دار المعارف بمصر، 1969، ص 235-236.

(3) هو من (هُذَيْل)، وكان من حلفاء (بني زهرة)، ويكنى: أبا عبد الرحمن، وشهد مع رسول الله بدرا، وبيعة الرضوان، وجميع المشاهد، توفي في المدينة سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع، انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص 249.

(4) ابن دريد، من أخبار أبي بكر بن دريد، ص 167.

(5) انظر: ابن هشام، أبو محمد عبدالملك بن هشام، (ت 218هـ/834م)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، دار الخير، بيروت، 1991، ج 1، ص 165-170.

قالت عن آمنة بنت وهب وكانت يوم ذاك طفلة، بأنها نذيرة أو ستلد نذيراً، فولدت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويبدو أن رئيها قد صدق في إخبارها.

2.1.2 العرافة

وما يتصل بعالم الغيب العرافة، وقد عدّها العرب أدنى مرتبة من الكهانة؛ ذلك أن الكاهن يزاول التكهن أو الظن الحدسي، والتكهن الاستدلالي في آن معاً، أما العراف فيقتصر على التكهن الاستدلالي⁽¹⁾. وتقوم العرافة على معرفة الحوادث الغيبية، انطلاقاً من علامات تتضمنها بعض الحوادث الجارية، وذلك عن طريق اكتشاف العلاقات فيما بينها، أو بمشابهة حقيقية، أو عن طريق المشابهة والعلاقة معاً⁽²⁾، من خلال أساليب متعددة، منها الطَّرْقُ بالحصى والخطُّ في التراب وغير ذلك⁽³⁾. ولقد استقر في وعي العرب القدماء أن العرافين يسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه، ويأخذون فيه بالظن والتخمين، بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال (مع العالم العلوي) والإدراك، ويدعون بذلك معرفة الغيب، وليس منه على حقيقة أن الكاهن مطلع على أمور الغيب الخفية، في حين يزعم العراف أنه يعرف مكان وجود الأشياء المسروقة، والحيوانات الضالة، والأمور المشابهة⁽⁴⁾.

ومن ذلك حديث مصاد بن مذعور وخروجه في طلب قطيع له من الإبل كان قد ضل سبيله، وما كان من حديث الجواري الأربع الطوارق بالحصى⁽⁵⁾، فقد ذهب مصاد للبحث عن ذوده⁽⁶⁾، وعندما شعر بالتعب وأراد الراحة إذ به يرى أربع جوار

(1) لمزيد من التفصيل حول ذلك انظر: فهد، الكهانة العربية، ص 95.

(2) لمزيد من التفصيل حول ذلك انظر: المرجع نفسه، ص 96.

(3) لمزيد من التفصيل حول ذلك انظر: ابن منظور، لسان العرب، طرق.

(4) انظر: فهد، الكهانة العربية، ص 96.

(5) القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 142-143.

(6) الذود: القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع، وقيل: ما بين الثلاث إلى العشر، وقيل: من ثلاث

إلى خمس عشرة، وقيل: إلى عشرين وفوق ذلك، وقيل: ما بين الثلاث إلى الثلاثين، وقيل:

ما بين الثلاثين والتسع، انظر: ابن منظور، لسان العرب، ذود.

يرعين بهما، يقول: " فلما خالطت عيني السنة أقبلن حتى جلسن قريباً مني وفي كف كل واحدة منهن حصيات تُقلِّبن، فخطت إحداهن ثم طرقت فقالت: قلن يا بنات عراف، في صاحب الجمال النيف⁽¹⁾، والبرد الكثاف⁽²⁾، والجرم⁽³⁾ الخفاف⁽⁴⁾»⁽⁵⁾، إنها علمت من خلال الضرب بالحصى وهو ضرب من التكهّن أن هذا الرجل القريب منهن يملك جمالاً، ذات أسنمة طويلة، كثيرة اللحم خفيفة الحركة، ثم رمت الثانية بحصياتها فقالت: " مُضل أدواد علاكد⁽⁶⁾، كوم⁽⁷⁾ صلاحد⁽⁸⁾، منهن ثلاث مقاحد⁽⁹⁾، وأربع جدائد⁽¹⁰⁾، شسف⁽¹¹⁾ صمارد⁽¹²⁾، إنها علمت بالخط بالحصى عدد هذه الجمال وأوصافها: فقد يكون عددها سبعة جمال، منتصبية القامة، ثلاثة منها أصل السنام فيها عظيم، وأربع منها مقطوعة الأذن يابسة الجسد مقطوعة اللبن، وهذه الثالثة ترمي بحصياتها وتعرف أين ذوده وماذا فعلن؟" ثم طرقت الثالثة فقالت:

-
- (1) الجمال النيف: هي ذات السنام الطويل، انظر: ابن منظور، لسان العرب مادة نيف.
(2) البرد الكثاف: هي الكثيرة اللحم والمتراكم، انظر: ابن منظور، لسان العرب، برد.
(3) الجرم بكسر الجيم: وهو جسد الإبل، انظر: ابن منظور، لسان العرب، جرم.
(4) الخفاف بضم الخاء: خفيف الجسد، انظر: ابن منظور، لسان العرب، خفف.
(5) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص143.
(6) علاكد: جمع علكد: وهو الغليظ الشديد العنق والظهر، من الإبل وغيرها. انظر: ابن منظور، لسان العرب، علكد.
(7) كوم: العظيم في كل شيء وقد غلب على السنام، سنام أكرم: عظيم، انظر: ابن منظور، لسان العرب، كوم.
(8) صلاحد: جمال منتصبية القامة، انظر: ابن منظور، لسان العرب، صلخد.
(9) مقاحد: أصل السنام، وقيل: هي ما بين المأنتين من شحم السنام، وقيل: هي السنام، والمقحاد هي الناقة عظيمة السنام، انظر: ابن منظور، لسان العرب قحد.
(10) الجدائد من الإبل المقطوعة الأذن، انظر: ابن منظور، لسان العرب جدد.
(11) شسف: اليايس، انظر: ابن منظور، لسان العرب، شسف.
(12) صمارد، الصمرد، بالكسر، من الإبل: الناقة القليلة اللبن، انظر: ابن منظور، لسان العرب، صمرد.

رَعَيْنَ الْفَرَعِ⁽¹⁾ ثم هَبَطْنَ الْكَرَعِ⁽²⁾، بين العَقَدَاتِ⁽³⁾ وَالْجَرَعِ⁽⁴⁾»⁽⁵⁾، إنها تخط وتكشف الغيب له؛ ذلك أنها أخبرته أن الجمال قد رعت بأعلى الجبل وشربت من ماء الغدير، وثم تأتي الرابعة لتوصل مصاد بن مذعور إلى نهاية الخط بالحصى وتحدد له مكان الجمال " لِيَهْبَطَ الْغَائِطُ⁽⁶⁾ الْأَفْيَحِ⁽⁷⁾، ثم لِيُظْهَرَ فِي الْمَلَأِ الصَّخْصَحِ، بين سَدِيرٍ وَأَمْلَحٍ، فهناك الذَّوْدُ رِتَاعٌ بِمُنْعَرَجِ الْأَجْرَعِ⁽⁸⁾.".

ومن أحاديث العرافات حديث أنيسة وبنيتها الأربعة الذين خرجوا في سفر، فطلبهم أخوهم الزبَّانُ العدواني في آثارهم ليردهم، فلم يجد لهم خبراً، حتى نزل على رجل من نهد، وبينما هو عنده إذ طلعت جُوَيْرِيَّةُ أمام غنم فرزاء، على عنقها علبة⁽⁹⁾، والجارية فوق الخماسية، فلما رآها قال: " مرحبا يا بنيتي صُحْبِيَّةُ، وانعمي واسلمي، قالت: قد كان ما قلت، وأنتَ بمثله، لا زلت في غيث وواد يرف بقله، قال: اخبرينا يا بنيتي كَيْفَ كُنْتَ بَعْدَنَا وَكَيْفَ كُنَّا بَعْدَكَ؟ وَأَمَّا أَنْتُمْ بَعْدِي فَإِنْ ضَيَّقَكُمْ هَذَا

(1) الفرع: الأماكن المرتفعة، وْفَرَعٌ كُلُّ شَيْءٍ: أعلاه، والجمع فُرُوعٌ، الفراع: ما علا من الأرض وارتفع؛ والفرعة: رأسُ الجبل وأعلاه، والمقصود أنها رعت بأعلى الجبل، انظر: ابن منظور، لسان العرب، فرع.

(2) الكَرَع، هو المكان الذي تخوضه الماشية بأكارعها، ويقال: شربت الإبل بالكراع إذا شربت من ماء الغدير. انظر: ابن منظور، لسان العرب، كراع.

(3) العُقْدَةُ: المكان الكثير الشجر يرعونه من الرمث والعرفج. والعُقْدَةُ أيضاً: المكان الكثير الكلا، الكافي للإبل، وفي الأمهات اللغوية: الماشية. وكلُّ أرضٍ مُخْصِيَّةٍ كَثِيرَةَ الشَّجَرِ، فهي عُقْدَةٌ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، عقد.

(4) الأَجْرَعُ المكانُ الواسع الذي فيه حُزُونَةٌ وَخُشُونَةٌ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، جرع.

(5) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص143.

(6) الغائط: المكان المتسع من الأرض، والمقصود: دخلت في مكان متسع تغوط فيه الأقدام، انظر: ابن منظور، لسان العرب، غوط.

(7) الأفيح: كل موضع واسع، انظر: ابن منظور، لسان العرب، فيح.

(8) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص143.

(9) العَلْبَةُ: جِلْدَةٌ تُؤَخَذُ مِنْ جَنْبِ جِلْدِ الْبَعِيرِ، فَتُسَوَّى مُسْتَدِيرَةً، وَتُتْرَكُ حَتَّى تَجِفَّ وَتَبْيَسَ، وَتُشَبِّهَ قَصْعَةً مُدَوَّرَةً كَأَنَّهَا نُحِتَتْ نَحْتًا أَوْ خُرِطَتْ خُرْطًا، وَيُعَلَّقُهَا الرَّاعِي وَالرَّكَّابُ، فَيَحْلُبُ فِيهَا وَيَشْرَبُ بِهَا. انظر: ابن منظور، لسان العرب، علب.

ولدت بعده امرأته غلاماً، فسمته عصاماً، ولقد نزل عليكم فتية أربعة معهم ناقاة جذعة، قالوا الضحى، فارتحلوا الظهيرة، فهم واردون ماء جويرة، فيردونه غلساً، فيشربون منه نفساً، ثم يميلون وهم كألون⁽¹⁾، فيموتون أجمعون، ثم ألقوا العلبلة وصدفت بيدها، وقالت: مه، فسدت اللعبة، أخوهم ورب الكعبة، قال: فهل ترى لهم من فرج؟ قالت: نعم، إن سار في الأصل، حتى يُدركهم بطفيل، في ورودهم حين تهبُّ الرياح، وينفخُ الشَّيخ، طابَ الشرابُ وسلمَ إليّاب⁽²⁾.

وقد أكد الزبان صدق عرافتها، إذ يقول: " فخرجتُ سريعاً، وكنْتُ إذا استنبطتُ ناقتي طردتُ وسعيتُ، حتى أدركهم فأجدهم قد شربوا، وأجدهم موتى أجمعين"⁽³⁾.

لقد كانت صبيحة عرافة تعرف كنه الغيب من خلال قراءتها للعلامات الدالة، إذ يخاطبها أبوها طالباً إليها أن تكشف له ما جرى لها ولهم في مدة ابتعادها عنهم، يقول: " اخبرينا يا بنية كيف كنت بعدنا وكيف كنا بعدك؟"⁽⁴⁾. لقد استطاعت معرفة مجريات الأحداث التي ألمت بأبيها بعد أن بعدت عنه، وما كان من الحوادث الغيبية، انطلاقاً من علامات تتضمنها بعض الحوادث الجارية المتعلقة بأحوال ضيوف الشيخ الأخوة الأربعة الذين استضافهم الشيخ النهدي، وذلك عن طريق اكتشاف العلاقات فيما بينها، أو بمشابهة حقيقية، أو عن طريق المشابهة والعلاقة معاً.

3.1.2 اتصال البشر بالجن

وتدور بعض الأحاديث حول اتصال المرأة بالجن اتصالاً مباشراً، ومن ذلك ما حدث لابنة النضر بن عمرو الحارثي قبل بدء الدعوة الإسلامية، وكان والدها قد أرسلها إلى الغدير لتأتي له بماء ولم تعد، وإذا به بعد فترة طويلة من الزمن خيّل

(1) كَالٌ: من كلَّ يَكُلُّ كَلاً وِكَلاً وِكَلاً: أَعْيَا. وِكَلَّتْ من المشي أَكَلٌ كَلاً وِكَلاً أي أَعْيَيْت. انظر: ابن منظور، لسان العرب، كَلَّ.

(2) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 126.

(3) المرجع نفسه، ص 126.

(4) المرجع نفسه، ص 125.

إليه بأنه يرى في المكان نفسه شبح ابنته، يقول: " فإني لجالس إلى جنب مطنبي (1) عند جنح الليل إذا بشبح قد طلع، فنظرت فقلت ابنتي والله! فقالت: إي والله يا أبتيه، فقلت: أي بنية أين كنت؟ قالت رأيت ليلة بعثتني بالصحفة (2) إلى الغدير آتيك بماء فإن جنياً ذهب بي، فلم أزل عنده حتى نشبت بينه وبين حي من الجن حرب فأعطى الله عهداً لئن ظفر بهم ليردني إلى أهلي فإذا هي (3). لقد كانت ابنته، وقد تغيرت ملامحها الجسدية، ولم تكن شبحاً، وقد عادت بعد أن أطلق الجنى سراحها. وعندما صلح حالها خطبها ابن عم لها، وأقامت عنده، وعلم أن تصرفاتها وأحوالها غريبة عن عالم البشر، وهي أشبه بتصرفات الجن وأحواله، فقال لها وقد غضب عليها: " ما أنت إلا شيطانة وما أنت بأنسية، وقد كان الجنى جعل لها إمارة إذا أرادت جاءها (4) وكان قد أخبره بذلك جنى متزوج منها، وقد طلب منه أن يتركها، " فناداه مناد من جانب البيت: مالك وهذه أما والله لو كنت قبل هذا تقدمت إليك للقيت عنتاً، إن هذه حفظتها في الجاهلية بحسبي وفي الإسلام بديني. (5)، ويبدو من هذا الحوار أن اتصال هذه الفتاة كان بجني قد أسلم، كما يظهر لنا من خلال بقية الحوار أن الجنى لم يظهر بجسده بل بصوته وهذه طبيعة في الجن إذ لا يظهرون إلا مع من يتلبسونهم ويقترنون بهم (6).

(1) يقال خِباءٌ مُطَنَّبٌ، ورواقٌ مُطَنَّبٌ؛ أي مَشْدُودٌ بحبل. والطَّنْبُ: حَبْلُ الخِباءِ والسَّرَادِقِ ونحوهما. انظر: ابن منظور، لسان العرب، طنب.

(2) الصَّحْفَةُ كَالْقَصْعَةِ، وهي تُشْبِعُ الخمسةَ ونحوهم، والجمع صحافٌ. وفي التنزيل: يُطَافُ عليهم بِصِحَافٍ من ذهب. انظر: ابن منظور، لسان العرب، صحف.

(3) ابن دريد، من أخبار أبي بكر ابن دريد، ص 166.

(4) المرجع نفسه، ص 166.

(5) المرجع نفسه، ص 166.

(6) انظر: المرجع نفسه، ص 166.

4.1.2 معرفة أحوال السماء وتقدير فرص سقوط المطر

تشير المصادر التاريخية إلى أن العرب بسبب حاجتهم الدائمة إلى الماء والمطر ملكوا القدرة على معرفة أحوال السماء، وتقدير فرص سقوط المطر، وهو أمر يتعلق بأدب الأنواء⁽¹⁾. ومن أحاديث النسوة التي تناولت ذلك حديث المُعَرِّ بن حمار البارقي⁽²⁾ قال لابنته وهي تَقُوده وقد كُفَّ بصره وسمع صوت رعد: " ما تَرَيْن؟ قالت: أراها حَمَاءَ⁽³⁾ عَقَّاقَةَ⁽⁴⁾، كأنها حَوْلَاءُ نَاقَةٍ⁽⁵⁾، لها سَيْرٌ وان، وصدْرٌ دان، فقال: مري لا بأسَ عليك! ثم سمع رعداً آخر فقال: ما تَرَيْن؟ قالت: أراها كأنها لَحْمٌ ثَبِتَ⁽⁶⁾ منه مسيكَ⁽⁷⁾ ومنه منهرت⁽⁸⁾، فقال: وائلي⁽⁹⁾ إلى

(1) انظر: أبو سويلم، أنور، المطر في الشعر الجاهلي، دار عمار، عمان، ودار الجيل، بيروت، 1987، ص 11-16، توفيق فهد، الكهانة العربية قبل الإسلام، ص 205.

(2) هو عمرو بن سفيان بن حمار بن الحارث بن أوس البارقي (ت45ق م - 580 م)، المشهور بـ معقر بن أوس، شاعر من قبيلة بارق أحد شعراء العصر الجاهلي، من شعراء الجود المقلين وفارس من فرسان الجاهلية، شارك مع قومه في يوم جبلة، وكان حليف بني نمير بن عامر (قبل الإسلام بتسع وخمسين سنة، وقبل المولد النبوي بتسع عشرة سنة) وله شعر في ذلك اليوم وفي غيره. انظر أخباره في: جاد المولى بك، أيام العرب في الجاهلية، ص: 349-367.

(3) الحماء: السوداء تضرب إلى الحمرة. انظر: ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت321هـ/ 933م)، كتاب وصف المطر والسحاب وما نعتته العرب الرواد من البقاع، تحقيق عز الدين التيوخي، دار صادر، بيروت، 1992، ص 7.

(4) العَقَّاقَةُ تنعق بالبرق، يريد أن البرق ينشق، وسحابة مَعْقُوقَةٌ إذا عَقَّتْ فأنعقت أي تَبَعَّجت بالماء، وسحابة عَقَّاقَةُ إذا دفعت ماءها وقد عَقَّتْ، ويقال: سحابة عَقَّاقَةُ منشقة بالماء. انظر: ابن منظور، لسان العرب، عقق؛ ابن دريد، كتاب وصف المطر والسحاب، ص 7.

(5) حَوْلَاءُ: جلدة رقيقة تقع مع سليل الناقة كأنها مرآة، انظر: كتاب وصف المطر والسحاب، ص 7.

(6) لَحْمٌ ثَبِتَ: مُسْتَرخٍ؛ وَنَثِتَ. انظر: الزبيدي، تاج العروس، ثنت.

(7) مسيكَ: متماسك، انظر: ابن دريد، كتاب وصف المطر والسحاب، ص 7.

(8) مُنْهَرِتٌ: مُتَسَاقِطٌ. انظر: ابن دريد، كتاب وصف المطر والسحاب، ص 7.

(9) وَأَلٌ إِلَيْهِ: لَجَأٌ، وَوَأَلٌ يَبُلُّ، فَهُوَ وَائِلٌ إِذَا التَّجَأَ إِلَى مَوْضِعٍ وَنَجَا. انظر: ابن منظور، لسان العرب، وأل.

قَفْلَةٌ⁽¹⁾ فَإِنَّهَا لَا تَنْبُتُ إِلَّا بِمَنْجَاةٍ مِنَ السَّيْلِ⁽²⁾.

لقد أجادت الابنة في وصف أحوال السحاب والمطر والرعد، في مراحلها المختلفة، وتتبع نزول المطر تتبعاً غريباً فراقبته بدقة ووصفت لون السحابة الحافلة بالمطر، وحركتها، وبرقها اللامع ورعدها القاصف، ورسمت صورة رائعة لمناظر المطر وهو ينثال من السماء. فقد وصفت السحابة في مرحلتها الأولى بأنها سوداء تضرب إلى الحمرة؛ لأنها تتعق بالبرق، وهي في تشققها بالماء ودفعها إياه كتشقق الحولاء التي هي جلدة رقيقة تقع مع سليل الناقة كأنها مرآة، ويخرج من تشققها الولد. ثم شبهتها في المرحلة الثانية باللحم المسترخي الذي بعضه متماسك وبعضه الآخر متساقط، وقد أجاد والدها في تقدير فرصة سقوط المطر، وأدرك بفعل الخبرة في أحوال السحاب والمطر أن الأمر سيقود إلى نشأة السيول وتدافعها؛ لذلك طلب إلى ابنته أن تلجأ إلى موضع ضرب من الشجر لا ينبت إلا في منطقة لا يبلغها السيل.

2.2 المرأة وشؤون القبيلة والمجتمع

تكشف بعض الأحاديث النسوية عن أنه كان للمرأة العربية منذ العصور التاريخية القديمة في جنوب الجزيرة وشمالها مشاركة بارزة في الشؤون العامة المتعلقة بالقبيلة أو المجتمع، وهي مشاركة تعد ثمرة وعي حضاري لدى المرأة من جهة ولدى مجتمعها بصفة عامة.

1.2.2 إدارة شؤون الرعية

ومن ذلك ابنة قَيْلٍ من أقبال حمير كان قد مُنِعَ الولدَ دهرًا، ثم وُلِدَتْ له هذه الابنة " فَبَنَى لها قصرًا مُنِيفًا بعيداً من الناس، ووَكَّلَ نساء من بنات الأقبال يَحْدُمْنَهَا وَيُؤَدِّبْنَهَا حتى بلغت مبلغ النساء، فنشأت أحسن منشأً وأتمَّه في عقلها وكمالها، فلما

(1) قَفْلَةٌ: ضرب من الشجر. انظر: ابن دريد، كتاب وصف المطر والسحاب، ص 8.

(2) المرجع نفسه، ص 6.

مات أبوها مَلَكَهَا أَهْلُ مِخْلَافِهَا⁽¹⁾، فَاصْطَنَعَتِ النِّسْوَةَ اللُّوَاتِي رَتَّبَتْهَا وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهِنَّ وَكَانَتْ تَشَاوِرُهُنَّ وَلَا تَقْطَعُ أَمْرًا دُونَهُنَّ... وَكَانَ بَنَاتُ مَقَاوِلِ ذَوَاتِ عَقْلِ وَرَأْيٍ.⁽²⁾

لقد كانت هذه الملكة سليمة حسب ونسب، فأبوها كان قبلاً، وقد ورثت الملك بولاية منه؛ لأنه على ما يبدو لم يرزق بأبناء بنين. ويظهر أن أشرف قومها لم يستكروا توليها العرش ولم يقابلوا هذا الأمر بالازدراء والاستياء، بل كان قد مَلَكَهَا أَهْلُ كُورِ بَلَدِهَا وَأَطْرَافِهَا، لَمَّا رَأَوْهُ مِنْهَا مِنْ حَسَنِ مَنَشْنِئِهَا وَتَمَامِ عَقْلِهَا وَكَمَالِهَا⁽³⁾.

وقد اتخذت من النساء وزيرات لها، وكان بنات مقاول ذوات عقل ورأي، وكانت تشاورهن ولا تقطع أمراً دونهن، ومن هنا يمكن القول إن حالة هذه القبيلة ووزيراتها ومستشاراتها قد أكدت قدرة المرأة على امتلاك السلطة وتسيير أمور الرعية من جهة، وتقدير المجتمع العربي في جنوب الجزيرة للمرأة وكفاءتها، ذلك أنها تشكل جزءاً أساسياً في بنائه.

2.2.2 موقف المرأة من الصراع السياسي

لقد كشفت بعض نصوص الخطاب النسوي عن مشاركة المرأة في بعض جوانب الصراع السياسي الذي نشب بين كبار المسلمين حول السلطة، ومن ذلك ما يتعلق بالزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية⁽⁴⁾، وموقفها السياسي من الصراع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان؛ فقد كانت من ربّات الفصاحة والبلاغة، ومن المواليات لعلي، حضرت معه حرب صفين وخطبت خطباً بليغة، شجعت فيها الرجال على القتال. وبعد أن استشهد علي، وآلت الخلافة إلى معاوية، " فبينما معاوية ليلة يسمر ومعه عمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص وعُتْبَةُ بن أبي سفيان، إذ ذكروا الزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية، التي كانت مع علي هي

(1) المِخْلَافُ: الكُورَةُ يُقَدَّمُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ، وَمِنْهُ مَخَالِيفُ الْيَمَنِ أَي: كُورُهَا. وَيُقَالُ: اسْتَعْمَلَ فَلَانٌ عَلَى مَخَالِيفِ كَذَا، وَهِيَ الْأَطْرَافُ، وَالنَّوَاحِي. انظر: الزبيدي، تاج العروس، مادة خلف.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 80-81.

(3) المرجع نفسه، ج 1، ص 80.

(4) انظر خبرها في: ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 201-203.

وقومها يوم صفين، وألقت خطبة بليغة تحرض فيها الناس على قتال معاوية، فقال لهم معاوية: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ كَلَامَهَا؟ فقالوا جميعاً: نحنُ نحفظُ كلامها. قال: فَأَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أَمْرِهَا. قالوا: نُشِيرُ بِقَتْلِهَا. قال: بئس ما أشرتُم عليَّ، أَيَحْسُنُ بِمِثْلِي أَنْ يُتَحَدَّثَ عَنْهُ أَنَّهُ قَتَلَ امْرَأَةً بَعْدَ أَنْ ظَفِرَ بِهَا؟⁽¹⁾.

إن ردة فعل الخليفة من عدم استحسانه ما أشاروا به عليه، من اللجوء إلى العنف مع معارضة سياسية له؛ تكشف عن أنه كان له نصيب كبير من الذكاء والدهاء والسماحة والحلم، وسعة الأفق، وقدرة فائقة على التعامل مع الناس على قدر أحوالهم بصفة عامة، ومعارضيه بصفة خاصة؛ ذلك أن العنف لا يليق بمكانة الخليفة وسمعته؛ ولذلك سعى في طلبها من الكوفة، وأمر بأن تحمل إليه هي وقومها، بتودد وإحسان، فقد " كتب إلى عامله أن ضع المراصد على الزرقاء بنت عديّ الهمدانيّة مع نفر من قومها؟ وسماهم له، فإذا ظفرتَ بها وبهم فاحملهم إليَّ، وأوسع عليهم في النفقة. فأخذها العامل مع من سمى له، فحملها في هودجٍ وحمل قومها على خيلٍ. فلما قدّمت قال لها معاوية: مرحباً ورحباً، قدّمتِ على خيرٍ مقدّمٍ قدّمه وإفد، كيف حالك؟ قالت: بخير والحمد لله. قال: كيف كنت في مسيرك؟ قالت: كنتُ كأنّي في بيتٍ مُمهّدٍ. قال: بذلك أمرناهم. قال: هلُ تدرين فيما بعثتُ إليك؟ قالت: وأنّى لي علمُ ذلك؟ قال: ألسنتِ الرّاكبةَ الجملِ الأحمرِ بين الصّافين بصّفين تُحرّضين على القتال، وتوقدين الحرب؟ قالت: بان الرّأسُ من الذّنب، ولن يعود ما ذهب، والدّهْرُ ذو عجب، ولا يُعتبُ من عتب، ومن تفكّر أبصر، والدّهْرُ ذو عير، والأمرُ يحدّثُ بعده الأمرُ"⁽²⁾.

لقد استقبل الخليفة الزرقاء استقبالاً محفوفاً بالتقدير والاحترام، ثم استرجع ماضيها، وألقى بعض الضوء على دورها في صفين، عندما كانت تمارس نشاطها السياسي لصالح علي بن أبي طالب، يوم كانت تخطب في الناس محرّضة إياهم على قتال معاوية وأتباعه. أما الزرقاء فتكشفت في ردها على صنيع الخليفة عن إيمانها بفقهِ الواقع الذي يقوم على عدم الالتفات إلى نوازل الماضي، وتجاوز أحداثه،

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 201.

(2) المرجع نفسه، ص 201، 202.

والأخذ بما استقرت عليه أحوال المسلمين السياسية؛ ويعود ذلك إلى وعيها الفكري والسياسي، بوصفها شخصية سياسية أدبية، أسهمت في الصراع السياسي بين علي ومعاوية، وكانت ذات موقع مهم في صفوف أتباع علي، من خلال اشتراكها في أحداث صفين.

كما أن هذا التعامل مع معارضة سياسية للخليفة تكشف عن سعي الخليفة إلى تضميد جراح الأمة، وتسكين نفوسها، وتأليف قلوبها بعد فترة مضطربة من حياتها، والإحسان والتودد إلى كبار الشخصيات التي كانت قد شاركت في تلك الأحداث.

وتحاور الزرقاء الخليفة حول "أحداث صفين" وما خلفته من مأس وجراح عميقة في جسم الأمة الإسلامية؛ فتزداد في مناقشاتها معه اعتداداً بموقفها السياسي، واهتماماً بالقضايا السياسية التي تشغل بال المجتمع، بوصفها امرأة مساوية للرجل، وشريكة له في كل مجالات الحياة، بما فيها العمل السياسي؛ إذ ترد عليه قائلة: "بان الرأس من الذنب، ولن يعود ما ذهب، والدَّهْرُ ذو عَجَبٍ، ولا يُعْتَبُ من عَتَبٍ، ومن تفكَّر أبصر، والدَّهْرُ ذو عَيْرٍ، والأمرُ يحدُّثُ بَعْدَهُ الأمرُ"⁽¹⁾.

وهي تكشف في حوارها عن وعي سياسي كبير وفهم عميق لضرورة تقبل الواقع.

ويعبر الخليفة عن تقديره لبقائها وفية لموقفها السياسي لصالح علي بعد موته، وقد ملك نفسه، وكظم غيظه، ومن هنا استطاع أن يكون سياسياً ناجحاً، يقول: "والله لقد شَرَكْتُ في كلِّ دَمٍ سَفَكَه عليُّ بن أبي طالب. قالت: أحسن الله بشارتك فَمِثْلُكَ من بَشَرٍ بخَيْرٍ جليسه. قال: وقد سُرِرْتُ بذاك؟ قالت: إي والله لقد سُرِرْتُ، وأنى لي بتصديق هذا القول؟ فضحك معاوية."⁽²⁾

ويكشف خطاب الزرقاء معاوية عندما سألها حاجتها، فأجابت: "إني آليتُ أن لا أسأل أحدا كنت له حرباً، ومثلك من وصل عن غير مسألة، وجاد عن غير طلب" عن جانب إنساني كبير في شخصيتها على خلاف موقفها السياسي من معاوية، فهي ليست محض سياسية، بل هي تمتلك شخصية ذات شفافية وحساسية وصدق تجاه

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 201.

(2) المرجع نفسه، ص 203.

شخصية الخليفة، وتعلي من صفاته وقيم الرجولة لديه، وتظهر إنصافه، إذ تقول: "ومثلك مَنْ وَصَلَ عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، وَجَادَ عَنْ غَيْرِ طَلَبٍ"، ولا شك في أن هذه الشفافية، تمنح شخصية الزرقاء بعداً آخر، يكسبها حضوراً أكبر، فتبدو مقنعة صادقة نظيرة للواقع بكل ما تجسده.

وفي ظل هذا الموقف يأمر الخليفة لها وللذين كانوا معها بجوائز، ويردّها إلى الكوفة على الرغم من أنها كانت قد حدثته أغلظ الحديث، وجابتهه أقبح الجبهه، وهو يداعبهم تارة، ويغافل عنهم أخرى، ولا يعيدهم إلا بالجوائز الثمينة، والصلوات الجمّة.

إن هذا التعامل مع معارضة سياسية للخليفة يكشف عمّا امتاز به معاوية من الدهاء السياسي والحلم معاً، كما يكشف عن سعي الخليفة إلى تضميد جراح الأمة، وتسكين نفوسها، وتأليف قلوبها بعد فترة مضطربة من حياتها، والإحسان والتودد إلى كبار الشخصيات التي كانت قد شاركت في الأحداث.

وتشير بعض الأحاديث إلى أن المرأة ظلت على صلة بالحياة السياسية في العصر الأموي، وذات تأثير في مجال النصح، ومن ذلك ما يتعلق بموقف عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوج عبد الملك بن مروان من خروجه بنفسه لقتال مصعب بن الزبير في العراق؛ إذ يسرد الخطاب النسوي " أن عبد الملك بن مروان - رحمه الله - كان يُوجّه إلى مُصعَب جيشاً بعد جيش فَيَهْزَمُونَ، فلما طال ذلك عليه واشتدّ غمّه أمرَ الناسَ فعسكروا، ودعا بسلاحه فلبسه، فلما أراد الركوب قامت إليه أم يزيد ابنة - وهي عاتكة بنت يزيد بن معاوية - فقالت: يا أمير المؤمنين، لو أقمّت وبعثت إليه لكان الرأي، فقال: ما إلى ذلك من سبيل، فلم تزل تمشي معه وتكلمه حتى قرب من الباب، فلما يئست منه رجعت "(1).

ويكشف ذلك عن طبيعية شخصية المرأة - زوجة الخليفة - فبدت شخصية ذات اهتمامات سياسية ليست معزولة عن مجتمعها. أو منسلخة عن بيئتها، لقد استطاعت أن تبدي وجهة نظرها في الأحداث السياسية التي كانت تشغل زوجها، وهي فرض سياسة الدولة على معقل الزبيريين في العراق، لقد سعت عاتكة إلى

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 13.

ثني عزم زوجها عن الخروج لمواجهة الزبيريين، وحاولت إقناعه باتخاذ الرسل والسياسة وسيلة لحل الخلاف معهم، لكنها أخفقت في تحقيق ذلك؛ ذلك أن طريقها كان صعباً.

ويلح السرد على الصفات المعنوية لشخصية زوجة الخليفة، بوصفها العناصر اللافتة فيها. وتتبع جاذبيتها من مصدرين اثنين: يتمثل الأول، في وعيها السياسي، وذكائها، وخبرتها الحياتية وهي تضع كل ذلك في خدمة قضايا أمتها، فتقوم بتتوير عقل الخليفة، وبث الوعي في نفسه وعقله. أما المصدر الثاني: فيتمثل في قدرتها على التأثير في الآخرين عندما أدركت أنها لم تستطع أن تثني زوجها عن رغبته في محاربة الزبيريين " بكت وبكى حشمها معها، فلما علا الصوت رجع إليها عبد الملك فقال: وأنت أيضاً ممن يبكي! قاتل الله كثيراً، كأنه كان يرى يومنا هذا حيث يقول:

إذا ما أراد الغزو لم تثن عزمه حصان عليها نظم درّ يزينها
نهته فلما لم تر النهي عاقه بكت فبكى ما شجاها قطينها

ثم عزم عليها بالسكوت وخرج"⁽¹⁾.

لقد كشف لنا السرد عن رقة عواطف المرأة- زوجة الخليفة التي تتجاوز ذاتها لتصل إلى هموم الآخرين ممن على خلاف مع زوجها الخليفة، فتتفاعل مع الموقف بدموعها حين تعجزها الوسائل الأخرى. وعلى الرغم من أن الدموع دليل على ضعف المرأة، فقد جاءت دليلاً على حساسيتها، وانفعالها بقضايا الأمة السياسية التي هي في أعماقها قضايا إنسانية، إضافة إلى إحساسها بكونها زوجة لرجل قائد كان قد عزم على الخروج إلى الحرب، فقد " أمر الناس فعسكروا، ودعا بسلاحه فلبسه"⁽²⁾، وربما كان إلحاحها عليه بعدم الخروج صادراً أيضاً من خوفها على زوجها من الوقوع في مهالك الحرب، فلا يعود.

ولقد أثرت ببكائها على حاشيتها، ويعود الفضل في ذلك إلى إيمانها بنبيل الأهداف التي بكت من أجلها، وتواضعها مع الآخرين على مختلف مستوياتهم

(1) القالي، كتاب الأمالي ، ج1، ص 13.

(2) المرجع نفسه، ج1، ص 13.

الاجتماعية، وبذلك استطاعت أن تمارس سلطتها المعنوية على أفراد حاشيتها، وأن تؤثر فيهم، وتحظى بتعاطفهم معها وتقديرهم لها.

3.2 مشكلات المرأة الاجتماعية

لقد عالجت الأحاديث النسوية بعض القضايا التي كانت المرأة تتن تحت وطأتها في المجتمع، كالطلاق وما يترتب عليه من خلاف حول حضانة الأطفال، ونظرة المجتمع السلبية إلى حب الفتاة، وغياب الوعي الاجتماعي اللازم لطبيعة الأنثى، وحرمان المرأة الحرية في اختيار زوجها، وغير ذلك من المشكلات التي تعود إلى ظروف مختلفة وأسباب متعددة ومفاهيم كثيرة، ينبع كثير منها من التقاليد والأعراف الاجتماعية السائدة، وينبع بعضها الآخر من التصرفات السلبية للأشخاص المحيطين بالمرأة. وعلى الرغم من أن تلك القضايا قد عكست واقع أشخاص محددين في المجتمع، فإنها تعبر بشكل عام عن حالة اجتماعية كانت سائدة في مجتمعهم وهمومه وقضاياها بشكل عام. ومن هذه القضايا:

1.3.2 تعدد الزوجات

لقد شكل تعدد الزوجات مشكلة اجتماعية ذات تأثير كبير في حياة المرأة التي تحدث عنها السرد، وعدتها المرأة واحداً من أساليب القهر الذي تعاني منه؛ ذلك أنها ترى أن الزوج ملك لها وحدها، ولا يمكن لغيرها من النساء أن تشاركها فيه. لقد ترجمت المرأة ذلك من خلال الغيرة على الزوج⁽¹⁾، ومن ذلك حالتا امرأتين: عجوز وشابّة، كانتا زوجتين لرجل عياديّ، " فكانت العجوز إذا رأت في لحيته شَعْرَةً سوداء نتفتها، وكانت الشابّة إذا رأت بيضاء نتفتها، حتى تركتاها مَعَطَ (2) " (3).

(1) انظر: الترماني، عبدالسلام، الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام: دراسة مقارنة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص 198-199.

(2) يقال: مَعَطَ الشَّعْرَ مِنْ رَأْسِهِ: نَفَقَهُ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مَعَطَ.

(3) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 112.

ووقع رجل ضحية ما قيل له من أنه من " لم يتزوج امرأتين لم يذق حلاوة العيش فتزوج امرأتين "(1)، فتزوج امرأتين وغدت كل واحدة منهما تلازمه وتراقبه، ضاربة حوله دائرة سحرية تحاول من خلالها أن تمنع الزوجة الأخرى من دخولها. وقد وقع هذا الرجل فريسة الغيرة بين زوجته، فوصف ما جرى له وما حل به، وقد أصبح حاله مع زوجته كحال خروف بين نعجتين كل منهما تشده في ناحية، أو كنعجة مسلوبة الإرادة بين ذئبتين؛ حتى غدا نادماً على ما فعل ولات ساعة مندم، وقد انتهى بعد تجربة واقعية أن الزواج من اثنتين مرتع مبتغيه وخيم، ولهذا يقدم خلاصة تجربته ونصيحة للآخرين بأن يؤثر الواحد منهم حياة العزوبة أو خوض الحروب مع جحافل المجاهدين، على الزواج، ذلك أنه أهون عليه من العيش مع ضرائر يعجز عن إرضائهن، ويلقى العذاب من سخطهن، يقول(2):

تَزَوَّجْتُ اثْنَتَيْنِ لِفَرْطِ جَهْلِي بِمَا يَشْقَى بِهِ زَوْجُ اثْنَتَيْنِ
فَقُلْتُ أَصِيرُ بَيْنَهُمَا خَرُوفًا أَنْعَمَ بَيْنَ أَكْرَمِ نَعَجَتَيْنِ
فَصِرْتُ كَنَعْجَةٍ تُضْحِي وَتُمْسِي تُدَاوِلُ بَيْنَ أَخْبَثِ ذَيْبَتَيْنِ
رِضًا هَذِي يُهَيِّجُ سَخَطَ هَذِي فَمَا أَعْرَى مِنْ أَحَدِي السُّخْطَتَيْنِ
وَأَلْقَى فِي الْمَعِيشَةِ كُلَّ ضُرٍّ كَذَاكَ الضُّرُّ بَيْنَ الضَّرَّتَيْنِ
لِهَذِي لِيَبْلُغَ لِيَتَلَقَّ لَتَاكَ أُخْرَى عِتَابٌ دَائِمٌ فِي اللَّيْلَتَيْنِ
فَإِنْ أَحْبَبْتِ أَنْ تَبْقَى كَرِيمًا مِنْ الْخَطِيرَاتِ مَمْلُوءَةِ الْيَدَيْنِ
وَتُتْرَكَ مُلْكُ ذِي يَزَنٍ وَعَمْرٍو وَذِي جَدَنٍ وَمُلْكِ الْحَارَتَيْنِ
وَمُلْكِ الْمُنْذَرَيْنِ وَذِي نَوَاسٍ وَتُبَّعِ الْقَدِيمِ وَذِي رُعَيْنِ
فَعِشْ عَزْبًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْهُ فَضَرْبًا فِي عِرَاضِ الْجَحْفَلَيْنِ

إن الحديثين السابقين يكشفان عن حساسية أنثوية بعيدة الأغوار تضرب في عمق العلاقات بين المرأة والمرأة(3) حين تقوم على الغيرة التي تشكل حالة نفسية

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص35، 36.

(2) المرجع نفسه، ج2، ص35، 36.

(3) انظر: الغدامي، عبد الله، المرأة واللغة، ط1، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، بيروت، 1996، ص167.

تنتاب المرأة، إذا وجدت ما كانت تأمل أن يكون لها قد أضحى لغيرها، أو طمعت أن يكون لها ما في يد غيرها، ولم تكن له قدرة على نواله، اعتقاداً منها أنها أحق به، وهي ظاهرة ضعف يشعر بها الضعيف نحو القوي، والأدنى نحو الأعلى، وتثير في نفس الغيور الحقد والكراهية (1).

2.3.2 رفض تجربة المرأة في الحب

ومن المشكلات التي كانت تواجه الفتاة رفض التقاليد والقيم الاجتماعية تجربة المرأة في الهوى الصادق والحب الخالص الذي تؤمن به في علاقتها بالرجل، ومن ذلك الحديث الذي يتعلق بـ " خليبة الخضرية " التي كانت تهوى ابن عم لها، فعلم بذلك قومها فحجبوها، فقالت (2):

هَجَرْتُكَ لِمَا أَنْ هَجَرْتُكَ أَصْبَحَتْ بِنَا شُمَّتَا تَلِكِ الْعَيُونِ الْكُوشِحِ
فَلَا يَفْرَحُ الْوَاشُونَ بِالْهَجْرِ رَبِّمَا أَطَالَ الْمُحِبُّ الْهَجْرَ وَالْجَيْبُ نَاصِحِ
وَتَغْدُو النَّوَى بَيْنَ الْمُحِبِّينَ وَالْهَوَى مَعَ الْقَلْبِ مَطْوِيٍّ عَلَيْهِ الْجَوَانِحِ

إنّ خطاب المرأة هنا يكشف عن إحساسها بظلم الأسرة لها، من خلال عدم اعترافها بحقها في الحب والهوى، وهو أمر لا شك ينبع من التقاليد الاجتماعية التي تحرم الحب، على الرغم من براءته وصدقه؛ لهذا فهي تؤكد أنها ترفض كل أشكال الضغط الاجتماعي الذي تمارسه الأسرة أو القبيلة من تفريق بين المحبين وإبعاد لهما، وهي تؤكد أنها ستبقى محتفظة بالهوى بداخلها، طاوية عليه جوانحها.

ويتصل بذلك ما ينتج عن إيمان المجتمع بأنّ الحب مقصور على الرجل فقط، ومن ذلك حال الأعرابي الذي قَدِمَ البصرة ومعه بنات له حسان، فذكر أهل البصرة حسنهنّ، فجاء شابٌ فجلس فنظر إلى بعضهنّ ونظرت إليه، ففطن أبوها، فقام إليها بعمودٍ - وكان في يده - يضربها، فدخلت البيت، (3) وأنشأت تقول:

أَيُعْذَرُ صَابِيهِمْ وَأُضْرَبُ فِي الصَّبَا وَمَا نَحْنُ وَالْفَتَيَانُ إِلَّا شَقَائِقُ

(1) انظر: الترماني، الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام، ص 195.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 83.

(3) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 171.

لقد كشفت الفتاة عن إحساس عميق بالتمييز بين الذكور والإناث، وشعور كبير بأنها متهمّة بأنوثتها، من خلال موقف الرجل الأب الذي يقوم بدور المتسلط الظالم، وقد واجهته بخطابها الرفيع المستوى، ولكنّ هذه المواجهة بينهما لم تكن حادّة، بحيث تُنتج تمرّداً نسوياً، وانقلاباً على المفاهيم السائدة التي يمثلها موقف الأب، بل كانت مواجهة لطيفة، اکتفت بالاحتجاج القولي على الظلم والتهميش والدونيّة، ودعت بلطف إلى المساواة بينها وبين الرجال، وانسحبت من الموقف ودخلت البيت.

إنها تستعير بيتاً شعرياً يتسم بالبلاغة للتعبير عن حالها وحال أمثالها من الفتيات، اللواتي يشعرن بالتمييز، وتحيز المجتمع إلى جانب الذكور، فهي ترى أن الفتيات وأمثالهن من الفتيان ما هم إلا نظائر وأمثال يتشابهون في الأخلاق والطباع، كأنهن شققن من الرجال كما تشق العصا شقين.

3.3.2 الحرمان من حرية اختيار الزوج

ومن المشكلات التي كانت تواجه المرأة ما تشير إليه بعض المصادر التراثية من أن المرأة في مجتمع الأعراب تخطب إلى وليها: أبيها أو عمها أو أخيها، فيقبل الولي الخاطب أو يرده، ولا يحق للمرأة أن تبدي رأيها في خاطبها فإذا ارتضى الولي الخاطب جرى الاتفاق على المهر وتحدد يوم الخطبة⁽¹⁾، وهو أمر على غير ما كانت تجري به العادة في البيوتات الشريفة عند العرب من استشارة الفتاة عندما يخطبها أحد⁽²⁾.

لقد شكلت هذه المفاهيم الاجتماعية في الأعراب تقاليد أعطت الأب السلطة التي تحرم المرأة من حق اختيار زوجها، ولا يحق للمرأة أن تبدي رأيها في خاطبها، وإذا تقدم لخطبتها رجل وافق أبوها فليس لها أن ترفضه إذا رضي أبوها،

(1) لمزيد من التفصيل انظر: الترماني، الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام، ص 55.
(2) ومن ذلك أن عتبة بن ربيعة قال لابنته هند ذات يوم: إنّه قد خطبك رجلان من قومك ولستُ مسمياً لك واحداً منهما حتّى أصفه لك. انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص

وما يشير إلى ذلك أنّ " رجلاً من بكر بن وائل خطب إلى رجلٍ من مرادِ ابنته، فهمّ أن يزوجهَا، فبينما الجاريةُ يوماً تلعبُ مع الجوّاري إذ جاء البكري، فقلن لها: هذا خاطبك. فقالت: ما رجلٌ هو أحبُّ إليّ أن أكونَ قد رأيتُه منه - فلما رأت رجلاً كبير السن، قبيحَ الوجه، قالت أوقدَ رضي أبي؟ قلن: نعم. فدخلت البيت، واشتملت على السيف، وشدّت عليه، فسبقها عدوّاً، ونالته بضربة⁽¹⁾.

ويكشف الحوار السّردي بين الفتاة وأترابها من الجوّاري عندما أخبرنها وهي تلعب معهن أن والدها همّ أن يزوجهَا، عن أنها: كانت تحلم بأن يكون خاطبها وسيماً شاباً؛ إذ قالت: " ما رجلٌ هو أحبُّ إليّ أن أكونَ قد رأيتُه منه "، لكنّ حلمها سرعان ما اصطدم بالواقع المأساوي وحمل مفاجأة صادمة؛ إذ " رأت رجلاً كبير السن، قبيحَ الوجه "، ما صادر فرحها وحلمها، وحملت موافقة والدها على هذا الخاطب " مفاجأة صادمة، تجلى بقولها: " أوقدَ رضي أبي؟ قلن: نعم"⁽²⁾. لقد أثار هذا الأمر ردة فعل في نفس الفتاة الصغيرة ورغبة جامحة في الانتقام من هذا الخاطب، وردة فعل قويّة تولدت من شعور خفي بالتهميش والظلم، وشطط السلطة الأبوية، وزيف الأعراف والتقاليد التي تعطي الأب حق اختيار زوج لابنته دون مشورتها، ما دفعتها إلى أن تدخل البيت، وتشتمل على السيف، وتشدُّ على الرجل الخاطب، الذي سبقها عدوّاً، وتنااله بضربة⁽³⁾.

لقد عبرت الجارية عن احتجاجها الذي بلغ مرتبة من العنف حملها إلى الانتقام بضرب خاطبها، ما يمثل رفضاً صريحاً لعادات المجتمع وتقاليدته التي تسلب المرأة حريّة اختيار الزوج، بحيث يبدو الأمر صراعاً بين المرأة والمجتمع، أو تمرّداً تُطالب المرأة فيه بحقّها في الحبّ واختيار الزوج وتعديل العادات الاجتماعيّة الخاصّة بالزواج، دون أيّ انفصال عن ثقافة هذا المجتمع وعقيدته، ودون أيّ رفض لمفاهيمه الثقافيّة المهيمنة، وخصوصاً سيادة الأب. ولهذا السبب اتّسم الاحتجاج على الأب بالسّلاسة وعدم المواجهة المباشرة لرأيه.

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص. 183.

(2) المرجع نفسه، ص. 183.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص. 183.

4.3.2 تعرض المرأة للتحرش والإيذاء النفسي

تكشف بعض النصوص عن بعض الحالات إلى كانت تتعرض فيها المرأة للتحرش والإيذاء النفسي والجسدي، وهي ما كان يترتب على غياب الزوج في الجهاد، أو في التجارة أو غيرها، في ظل شيوع ظاهرة الاضطراب الاجتماعي الذي كان من آثاره أن زالت من بعض النفوس الأنفة الإسلامية، وغابت عنها الفضائل الدينية، واضطربت لديها القيم الخلقية؛ حتى عادت لا تثني الرجل عن الإساءة إلى نساء المسلمين اللواتي غاب عنهن أزواجهن؛ والتحرش بهن؛ ما كان يدفعهن إلى الاستجداد بذوي الفتوة والفروسية والصلابة من جهة، والغيرة على القيم والمبادئ الإسلامية من جهة أخرى⁽¹⁾.

ومن ذلك أن رجلاً كان قد تحرش بامرأة مُغَيَّبَةً وَعَرَضَ عَلَيْهَا مَا هِيَ عَنْهُ غَنِيَّةً، وَحَاوَلَ الْإِغْرَاءَ بِهَا، فَكَانَ أَنَّ مَرَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَبْرَةَ الْحَرَشِيُّ بِمَنْزِلِهَا " فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ خَادِمَهَا، أَنَّ هُنَا امْرَأَةٌ مِنْ قَيْسٍ تُرِيدُ أَنْ تُكَلِّمَكَ. فَقَالَ: نَعَمْ، فَدَخَلَ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: إِنِّي امْرَأَةٌ مُغَيَّبَةٌ، وَهِيَ هُنَا رَجُلٌ يُرِيدُنِي عَلَى نَفْسِي، وَلَا أَمْنٌ أَنْ يَفْضَحَنِي قَالَ: فَابْعَثِي إِلَيْهِ، فَبَعَثَتْ، فَلَمَّا جَاءَ، قَامَ إِلَيْهِ فَفَتَلَهُ، وَقَالَ لِلجَارِيَةِ: احْفَرِي. فَلَمَّا حَفَرَتْ أَلْقَاهُ فِي الْحَفِيرَةِ، وَضَرَبَ عُنُقَ الْجَارِيَةِ وَأَلْقَاهَا مَعَهُ، وَأَعْطَاهَا سَبْعِينَ دِينَاراً، وَقَالَ: اشْتَرِي بِهَا خَادِمًا مَكَانَ خَادِمِكَ. وَقَالَ: أَلَا كُلُّ سِرٍّ جَاوَزَ اثْنَيْنِ شَائِعٌ"⁽²⁾.

إن هذا السرد يكشف عما كانت تعاني المرأة الحرة الصالحة الشريفة التي غاب عنها زوجها فحفظت في غيبته سمعته وشرفه وعرضه، من تصرفات بعض من الرجال، الذين لا يراعون إلا ولا ذمةً، ويتجاوزن غيرهم بالظلم والاعتداء، على أن هذا السرد يكشف أيضاً عن صورة أخرى لرجال كانوا مثلاً للنخوة والحمية، من أمثال عبد الله بن سبرة الحرشي، الذي كان - وفق ما تذكر المصادر التي ترجمت له - نموذجاً للفتوة والفروسية والصلابة من جهة، والغيرة على القيم والمبادئ الإسلامية من جهة أخرى⁽³⁾.

(1) انظر: ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص. 196.

(2) المرجع نفسه، ص. 196.

(3) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص. 90.

ومن ذلك أيضاً أن تاجرًا عطاراً يدعى فيروز كان قد دخل منازل العرب في الشام، فضرب بيده عجز امرأة من العرب، كانت من جيران عبد الله بن سبرة الحرشي الذي كان غازياً بأذربيجان أو غيرها، فاستجدت به قائلة: "يا عبد الله بن سبرة، فبلغة ذلك، فقال: يا لبيكاه. فخرج من أذربيجان إلى الشام حتى قتل فيروز ورجع" (1).

ومن المشكلات التي كان تواجهها المرأة غياب الابن، ومن ذلك حال المرأة التي تكشف عن معاناتها، وطول صبرها على غياب ابنها الذي خرج غازياً في جيش الحجاج، إلى أمكنة بعيدة، ومكث فيها فترة طويلة، دون أن يخلفه أحد لرعاية أمه، التي وجدت نفسها تتحمل أعباء نفسية فوق طاقتها، فقامت إلى الحجاج قائلة: "أصلحك الله، إن لي ابناً جهّز في ثغر كذا وكذا منذ كذا وكذا، فأنا كما قال الشاعر:

مِثْلُ عَجُولٍ فَقَدْتُ بَوَّهًا⁽²⁾ قد فاتها الواردُ والصادرُ
أرعى نجومَ الليلِ مكروبةً والقلبُ مني واله طائرُ
فأمنن على من لبها ذاهلٌ وليها من همها ساهرُ

فأمر بقفوله، ثم قال: عليك لعنة الله إن عقتها أو هممتها" (3).

لقد استعارت هذه المرأة أبياتاً لشاعر يصف امرأة عجولاً والهة كانت قد فقدت ولدها الثكلي لعجبتها في جيبتها وذهابها جزعاً، لقد استطاعت هذه الأم بذوقها الأدبي الرفيع أن تبين عن مشكلتها بغياب ابنها، وأن تستعير أبياتاً شعرية لتتوب عن إبداعها في وصف حالها؛ ما دفع الحجاج إلى أن يأمر بإرجاع ابنها من الغزو، وأن يطلب إليه أن يبرها فيلازمها، وألاً يشق عصا طاعتها، أو يبعث الحزن في نفسها بابتعاده عنها.

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص. 196.

(2) العجول من النساء والإبل: الواله التي فقدت ولدها الثكلي لعجبتها في جيبتها وذهابها جزعاً. جزعاً. انظر: ابن منظور، لسان العرب، عجل.

(3) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص. 106.

5.3.2 عدم امتلاك الزوج القوامة على الأسرة

لقد شكل عدم امتلاك الزوج القوامة على الأسرة، واتصافه بصفة البخل التي تدفعه إلى أن يؤثر نفسه على الآخرين تهديداً للمرأة وأسرتها. ومن ذلك المرأة التي كان زوجها مع الحجاج بن يوسف وكان يحضّر طعامه، فكتب إلى أهله يخبرهم بما هو فيه من الخصب، وأنه قد سمن فكتبت إليه امرأته⁽¹⁾:

أَيُّهُدِي لِي الْقِرطاسُ وَالْخُبْزُ حاجتي
إِذَا غَبْتِ لَمْ تَذْكَرِ صَدِيقاً وَلَمْ تُقَمِّمْ
فَأَنْتِ كَكَلْبِ السَّوِّءِ جَوْعَ أَهْلِهِ
وَأَنْتِ عَلَيَّ بِأَبِ الأَمِيرِ بَطِينُ
فَأَنْتِ عَلَيَّ مَا فِي يَدَيْكَ ضَنِينُ
فَيَهْزِلُ أَهْلَ البَيْتِ وَهُوَ سَمِينُ

إن ما كتبه هذه المرأة مخاطبة زوجها يكشف عمّا تعانيه من الفقر وضنك المعيشة، نتيجة تخلي الزوج عن مسؤوليته الأسرية، حتى صار ينسى لفرط شرهه وغلبة الجشع على طبعه، أنّ امرأته في حاجة ملحة إلى الخبز. لقد دفع إحساس الزوجة بظلم الزوج لها، وما ترتب عليه من معاناتها إلى هجاء زوجها وكشف عيوبه والتناقضات في سلوكه وتصرفاته، فرسمت له صورة مثيرة، واستعارات قول العرب في أمثالها " سَمِنُ كَلْبٍ بِجَوْعِ أَهْلِهِ " ⁽²⁾ وأعدت صياغتها لتصوير حالها مع حال زوجها، فحال زوجها وقد عظم بطنه لامتلأته من طعام الآخرين وقد أمسك عن إطعام زوجه كحال الكلب إذا وقع في الإبل السّواف وهو مرض ⁽³⁾ فماتت يأكل الكلب الجيف فيسمن، وأهله جائعون.

6.3.2 شكُّ الزوج وسوء ظنه

تكشف بعض نصوص الخطاب النسوي عما كانت تعانيه بعض النساء الأعرابيات من شكوك الزوج، وعدم الثقة بين المرأة وزوجها، وخاصة ما يتعلق بتبعية المولود لأبيه. ويشكل هذا الأمر تهديداً لشخصية المرأة وطعناً في شرفها، ومن ذلك أن رجلاً من بني عامر بن صعصعة كان قد تزوج امرأة من قومه، "

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 136.

(2) الزبيدي، تاج العروس، جوع.

(3) السّواف: مَرَضُ الإِبِلِ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ص 136.

فخرج في بعض أسفاره ثم قدم وقد ولدت امرأته وكان خلفها حاملاً، فنظر إلى ابنه فإذا هو أحمر و غضب⁽¹⁾، شديد الحُمْرَة، أزبُ الحاجبين⁽²⁾،⁽³⁾ على غير شاكلة أبناء قبيلته بني الجُونِ، ما وُلد في نفسه الشكُّ من أمر زوجته، والريبة في نسب الولد، فدعاها لسؤالها، وقد استطار شراً بها، " وانتضى السيف وأنشأ يقول⁽⁴⁾:

لا تمشطي رأسي ولا تفليني وحاذري ذا الريق في يميني⁽⁵⁾
واقتربي دونك أخبريني ما شأنه أحمر كالهجين

خالف ألوان بني الجون

فقالته تجيبه:

إنَّ له من قبلي أجدادا بيض الوجوه كرمًا أنجادا
ما ضرهم إن حضروا مجادا⁽⁶⁾ أو كافحوا يوم الوغى الأندادا
ألا يكون لوئهم سوادا

لقد بدا جواب الزوجة سلساً لطيفاً على سؤال زوجها الذي استطار شراً بها، وأضر سوءاً لها؛ ما جعل المواجهة بينهما لطيفة؛ إذ اكتفت بتسوية ذلك بأن الحمرة التي جاء عليها المولود قد انحدرت إليه من أجداده لأمه الذين عرفوا بالكرم والشجاعة والفروسية.

7.3.2 طلاق المرأة

لقد شكّل طلاق المرأة من زوجها أحد التحديات الاجتماعية والعاطفية التي

-
- (1) الغضب: الشديد الحُمْرَة أو الأحمَرُ من كلِّ شيء. الزبيدي، تاج العروس، غضب.
(2) الأزب، وهو كثرة شعر الذراعين والحاجبين والعينين. انظر: الزبيدي، تاج العروس، زيب.
(3) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص35.
(4) المرجع نفسه، ج1، ص35.
(5) ريق السيف: اللّمعان. انظر: الزبيدي، تاج العروس، ريق.
(6) مجاد: يقال: أمجد الله فلاناً ومجده كرم فعاله. يقال: أمجد فلان العطاء ومجده، إذا كثرة.
انظر: الزبيدي، تاج العروس، مجد.

كانت تواجه المرأة، وتهدد كيانها، ومن ذلك أن أم الضحاك المحاربية التي كانت تحت رجل من بني الضَّبَّاب، وكانت تحبه حباً شديداً فطلقها⁽¹⁾، وأسرفت في حبها له وتعلقها به، خاصة بعد أن طلقها، فتراها تناجيه في كثير من المقطعات، فقالت:

هَلْ الْقَلْبُ إِنْ لَاقَى الضَّبَّابِيَّ خَالِيًا لَدَى الرُّكْنِ أَوْ عِنْدَ الصَّفَا مُتَحَرِّجٌ
وَأَعَجَّلْنَا قَرَبَ الْمَحَلِّ وَبَيْنَنَا حَدِيثٌ كَتَتَشِيحَ الْمَرِيضَيْنِ مُزْعَجٌ
حَدِيثٌ لَوْ أَنَّ اللَّحْمَ يُصَلَّى بَحْرَهُ طَرِيًّا أَتَى أَصْحَابَهُ وَهُوَ مُنْضَجٌ

وتتحدث عن حبها الصادق له:

سَأَلْتُ الْمُحِبِّينَ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا تَبَارِيحَ هَذَا الْحُبِّ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ
فَقُلْتُ لَهُمْ مَا يُذْهَبُ الْحُبُّ بَعْدَمَا تَبَوَّأَ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالصَّدْرِ
فَقَالُوا شِفَاءُ الْحُبِّ حُبُّ يُزِيلُهُ مِنْ آخِرٍ أَوْ نَائِيٍّ طَوِيلٌ عَلَى هَجْرٍ
أَوْ الْيَأْسُ حَتَّى تَذْهُلَ النَّفْسُ بَعْدَمَا رَجَبَتْ طَمَعًا وَالْيَأْسُ عَوْنٌ عَلَى الصَّبْرِ

لقد كانت ردة فعلها على طلاقها الثبات على الحب والإخلاص للحبيب الزوج السابق؛ فهي لا تستطيع نسيانه، أو استبدال حبه بحب آخر، وهي تعيش بعد طلاقها على ذكريات أيامهما الجميلة الخوالي، وأحاديثهما المتوقدة بعاطفة الحب التي تسوي اللحم من شدة حرارتها، وكانت تسأل أصحاب الحب السابقين عن شفاء من هذا الحب الذي تبوأ منها ما بين الجوانح والصدر، فأخبروها أن الشفاء منه مرهون بتجربة حب جديدة تدفع التجربة الأولى، أو نأيٍ طويلٍ على هجرٍ، أو يأس يذهل النفس، وهي أمور لا سبيل إليها.

ومن المشكلات التي كانت تواجه المرأة المطلقة المخاصمة بينها وبين زوجها حول حضانة الأطفال، ومن ذلك ما جرى بين أبي الأسود الدؤلي وامرأته من كلام في ابن كان لها منه وأراد أخذه منها، بعد أن طلقها، فسارا إلى زياد ابن أبيه وهو والي البصرة، وتحتاجاً أمامه. فقد قالت المرأة: " أصلح الله الأمير، هذا ابني كان بطني وعاءه، وحجري فناءه، وثديي سقاءه؛ أكلوه إذا نام، وأحفظه إذا قام؛ فلم أزل بذلك سبعة أعوامٍ حتى إذا استوفى فصالة⁽²⁾، وكملت خصاله، واستوكتت

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص86، 87.

(2) الفصال: الفطام. انظر: ابن منظور، لسان العرب، فصل.

أوصالُهُ⁽¹⁾؛ وأمّلتُ نفعَهُ؛ ورجوتُ دفعَهُ⁽²⁾؛ أرادَ أن يأخذه مني كرهاً، فأدبني⁽³⁾ أيها الأميرُ، فقدَ رامَ قَهْرِي، وأرادَ قَسْرِي⁽⁴⁾.

لقد عمدت المرأة إلى إيراد الحجج والبراهين والأدلة التي تعينها على كسب قضيتها، وإفحام خصمها، من خلال الكشف عن ألوان المشقة التي تحملتها في سبيل ولدها، مدة حملها إياه إلى منتهى الوقت الذي أمّلت معونته، وعلى الرغم من ذلك فقد أرادَ زوجها أن يأخذه منها كرهاً؛ لذلك فإنها تستنجد بالأمير وتطلب عونه على احتضان ابنها، ودفع قهر زوجها لها ومحاولة قسرها بانتزاع ولدها منها. أما أبو الأسود فقد قال: " أصلحك الله، هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في أوده؛ وأمنحه علمي، وألهمه حلمي؛ حتى يكمل عقله، ويستحكم فتله⁽⁵⁾."

لقد حاول أبو الأسود أن يدحض ما ادعته زوجته من مشقة كبيرة في سبيل ابنها: " وأن يورد عدداً من الحجج والبراهين والأدلة التي تعينه على دحض ما زعمته زوجته وكسب قضيته ضد زوجته. وتعهد الزوجة بعدئذ إلى تبيان وجه التضاد بين حالها وحال زوجها في رعايتهما لابنهما، تقول: " صدق أصلحك الله، حملهُ خِفاً، وحملته ثِقْلاً؛ ووضَعَهُ شَهْوَةً، ووضَعْتُهُ كُرْهاً⁽⁶⁾."

وبعد أن استمع الأمير لمحااجة الزوجين المتخاصمين، قال للزوج: " أرِدْ على المرأة وِلْدَهَا فهي أَحَقُّ به منك، ودَعْنِي من سَجْعِك⁽⁷⁾". لقد انتصر الأمير للمرأة؛ ذلك أنه أدرك عظم ما تحملته المرأة وكبر ما لاقته في سبيل تربية ابنها، ما جعلها أحق من الرجل في احتضان ابنها.

(1) اسْتَوَكَعَ أي اشتدَّت طبيعته. انظر: ابن منظور، لسان العرب، وكع.

(2) الأَوْصَالُ: المفاصل، الواحدُ وِصْلٌ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، وصل.

(3) أدبني: قوني عليه. انظر: ابن منظور، لسان العرب، أيد.

(4) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 12.

(5) المرجع نفسه، ج2، ص 12.

(6) المرجع نفسه، ج2، ص 12.

(7) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 12.

8.3.2 الخصام والتشاحن والمشاتمة

لقد كان وقوع الخصام والتشاحن والمشاتمة بين المرأة زوجها، من المشكلات التي كانت تواجهها المرأة الأعرابية. ومن ذلك ما ذكره الأصمعي من أنه سمع " امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول: والله إن شربك لاشنفاف، وإن ضجعتك لانجعاف، وإن شملتك لالتفاف، وإنك لتشبع ليلة تضاف، وتنام ليلة تخاف؛ فقال لها: والله إنك لكرواء الساقين، قعواء الفخذين، مقاء الرفغين، مفاضة الكشحين؛ ضيفك جائع، وشرك شائع" (1).

لقد نزع كل من الزوجين إلى الكشف عن العيوب الجسمية والنفسية والسلوكية التي تنتقص من شخصية الآخر، ونقل من شأنه، في إطار من السخرية التهكمية، وهو أمر يقوض دعائم أسرتهما، ويهدد العلاقة بين الزوجين. ومثل هؤلاء الأزواج الذين يشيعون السيئات ويدفنون الحسنات لا تصلح معهم الحياة الزوجية ولا يصلحون لها، ذلك أن سلوكهما يؤدي إلى تراخي رباط الزوجية، في إطار حياة تخلو من وازع الأخلاق والقيم والدين، وتقوم على سلسلة متصلة من مظاهر الشحاء والخصام التي تقود إلى فساد الحياة الزوجية.

4.2 صورة المرأة

لقد قدم الخطاب النسوي نماذج وصوراً مختلفة للمرأة. وشكل الرجل العنصر الرئيس في تقديم ملامح المرأة، وهي صور متباينة تبعاً لاختلاف المواقف التي ينطلق منها الرجال؛ ذلك أن الشخصيات النسائية التي ينطوي عليها السرد تحمل رؤية الرجال، ويتجلى دورها وحضورها وطبيعتها الشخصية من خلال ذلك، وتتجلى الصور التي قدمها الخطاب السردى، فيما يأتي:

1.4.2 المرأة الخائنة

(1) المرجع نفسه، ج1، ص104.

لقد قدمت بعض نصوص السرد النسوي بعض الملامح لصورة المرأة الخائنة، التي تبني سلوكها الشائن على الغدر بالزوج وخيانتها، ومن الأحاديث التي تسرد قصة خيانة بعض النساء ما جاءت به امرأة لقمان بن عادي الذي كان رجلاً مبتلى بالنساء، وكان لا يتزوج امرأة إلا خائنته، فتزوج غير امرأة، وقد كان الموت من نصيب كل النساء اللواتي تزوجهن، وقد دفعته تجربته السلبية مع المرأة إلى التشدد في الحرص على الزوجة، واتخاذ أساليب متعددة ظناً منه أن ذلك يحول دون خيانة المرأة، ومن ذلك أنه " تزوج جارية صغيرة لم تعرف الرجال، ثم نقر لها بيتاً في صفح جبل، وجعل له درجةً سلاسل ينزل بها ويصعد، فإذا خرج رفعت السلاسل حتى يرجع "(1).

ويشير السرد إلى أنه على الرغم من ذلك فقد بصر بها فتى من العماليق، فوقعت في نفسه، ووقع هو في نفسها، ففكر في حيلة للوصول إليها، فكان أن " أتى بني أبيه فقال: والله لأجنين عليكم حرباً لا تقومون بها، قالوا وما ذاك؟ قال: امرأة لقمان هي أحبُّ الناس إليّ، قالوا فكيف نحتال لها؟ قال اجمعوا سيوفاً ثم اجعلوني بينها، وشدوها حزمة عظيمة، ثم ائتوا لقمان فقولوا: إنا أردنا أن نساقر ونحن نستودعك سيوفنا هذه حتى نرجع، وسمّوا له يوماً. ففعلوا، وأقبلوا بالسيوف فدفعوها إلى لقمان، فوضعها في ناحية بيته "(2).

ويكشف النص السردى عن أن المرأة الزوجة كانت قد مكنت الفتى من نفسها، فمارست معه فعل الخيانة مدة طويلة، ولم يزل معها مقيماً حتى قدم لقمان فردته في السيوف كما كان، وقد حاولت إبقاء هذا الأمر سراً، فعندما كان لقمان يخرج، يتحرك الفتى فتحلُّ الجارية عنه " فكان يأتيها، فإذا أحست بلقمان جعلته بين السيوف، حتى انقضت الأيام، ثم جاءوا إلى لقمان فاسترجعوا سيوفهم "(3).

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 107.

(2) المرجع نفسه، ص 107.

(3) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 107-108.

ثم إن لقمان كان ذات يوم جالساً في ذلك الموضع على سريرٍ له مع امرأته، فرفع رأسه " فإذا نخامة⁽¹⁾ تنوس⁽²⁾ في سقف البيت " فقال لأمرأته: من نخم هذه؟ قالت: أنا، قال: فتنخمي، ففعلت، فلم تصنع شيئاً. فقال: يا ويلتاه، السيوفُ دهنتي، ثم رمى بها من ذروة الجبل، فتقطعت قطعاً⁽³⁾.

ويظهر أن حذق لقمان وفطنته وشكه في المرأة قاده إلى أن يسلط الضوء على النخامة التي كانت متدلّية من سقف البيت ليكشف خيانة امرأته؛ إذ وجد أنها ليست نخامتها، فلم يتوان عن إيقاع العقاب على زوجته التي خانته بأن سمحت للفتى أن يقيم معها حتى قدم لقمان فردته في السيوف كما كان. لقد قدمت هذه المرأة رغبات الجسد على سمعة زوجها ومشاعره، وجعلت عملها وسلوكها وحياتها في سبيل تذييل الصعاب للقاء الفتى العاشق وحمائته.

وقد تلا ذلك أن انحدر لقمان مُغضباً، فإذا ابنة له يقال لها صُحْر، فقالت: يا أبتاه ما شأنك؟ فقال: " وأنت أيضاً من النساء"، فضرب رأسها بصخرة فقتلها. فقال العرب: ما أذنبت إلا ذنب صُحْر، فصارت مثلاً⁽⁴⁾.

لقد كانت ردة فعل لقمان أن استولت عليه مشاعر السخط على الأنثى حتى ولو كانت ابنته؛ ذلك أنه توصل بفعل التجربة الحياتية الذاتية إلى قناعة بأن كل النساء خائنات، فكان قتل ابنته الأنثى لا يعود لخيانتها وإنما يعود إلى عدم إيمانه بعدم خيانة المرأة عامة؛ ولذلك صار حال ابنته مثلاً يضربونه لمن يعاقب ويؤاخذ ولا ذنب له.

وتكشف بعض النصوص عن بعض ملامح صورة للمرأة الفاجرة، التي تبني سلوكها الشائن على الغدر والمكر والخديعة، ومن ذلك ما كان من أمر أمّ ولد عمارة

(1) النخامة. نخم الرجلُ نخماً ونخماً وتَنَخَّمَ: دفع بشيء من صدره أو أنفه، واسم ذلك الشيء النخامة، وهي النخاعة. ونخع أي تنخّم. انظر: ابن منظور، لسان العرب، نخم.

(2) النّوسُ، بالفتح، والنّوسانُ، بالتحريك: التّذبذبُ، وقد ناسَ الشّيءُ ينوسُ نوساً ونوساناً: تحرّك وتذبذب متدلياً. انظر: ابن منظور، لسان العرب، نوس.

(3) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 108.

(4) المرجع نفسه، ص 108.

ابن قيس اليعمدي مع البَحْتَرِيِّ بن أَبِي صُفْرَةَ، الذي كان من أكمل فتيان العرب جمالاً وبياناً ونجدةً وشعراً، وكان بنو المهلب يحسدونه لفضله، فدست إليه أم ولد عمارة ابن قيس اليعمدي فراودته عن نفسه فأبى، فحملت عليه عمارة حتى شكاه إلى المهلب، وأكثر في نبوه⁽¹⁾ القول فعرف ذلك في وجه المهلب فكتب إليه يعاتب صديقه على ما لمس من تغيير في معاملته له، وجفائه إياه، على الرغم من إخلاصه له، ويبين أنه قد أصابه المنكر العظيم، من السنة نساء آل اليعمدي، الذين خاضت ألسنتهم مع الخائضين ولسعوه بها، حتى غدوا كالعقارب الساريات، يقول⁽²⁾:

جَفَوْتُ أَمْرًا لَمْ يَنْبُ عَمَّا تَرِيدُهُ	وكان إلى ما تشتهييه يسارع
تَمَوْتُ حِفَاطًا دُونَ ضَيْمِكَ نَفْسُهُ	وأنت إلى ماساءه مُتَطَالِع
كَأَنِّي أَخُو ذَنْبٍ وَمَا كُنْتُ مُذْنِبًا	ولكن دَهْتَنِي الساريات الشَّبَادِع ⁽³⁾

الشَّبَادِع⁽³⁾

ويعاتب صديقه على عدم دفعه ادعاءات عرس اليعمدي وأخته، اللتين أرادتتا قطع ما بينهما من صحبة وصدقة، ويشير إلى ملامح صورة هاتين المرأتين وأفعالهما المشينة، فهما قد ألقيتا عن نفسيهما الحياء، فأنتنا شيئاً منكراً، وسعتا إلى أن تراوداه عن نفسه، ويحاول أن يرد التهم التي رمته بها عرس اليعمدي وأخته، ويجعلها مردودة عليهما، وهو في أثناء ذلك يثار لنفسه، إذ إنه ممن يحافظون على قيم الجوار، والمبادئ الإسلامية، وليس ممن تفتته غوايات النساء ومكائدهن، يقول⁽⁴⁾:

دَبَبْنَ وَقَدْ نَامَ الْغَفُولُ بَعِيْبِنَا	إِلَيْكَ إِمَاءٌ مُومِسَاتٌ جَوَالِع ⁽⁵⁾
فَأَوْقَدْنَ نِيرَانَ الْعَدَاوَةِ بَيْنِنَا	جِهَارًا وَلَمْ تُسُدِّدْ عَلَيَّ الْمَطَالِعُ

(1) النبوة: الجفوة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، نبا.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص136-138.

(3) الشَّبَادِعُ: العقاربُ وواحدتها الشَّبْدَعَةُ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، شبدع.

(4) القالي: كتاب الأمالي، ج2، ص137.

(5) المومسة: الفاجرة. والجالعة: التي قد ألفت عنها الحياء. انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج2،

بَغَيْنَ أُمُورًا لَسْتُ مِمَّنْ أَشَاؤُهَا
أَصْبُو بَعْرُسَ الْجَارِ إِنْ كَانَ غَائِبًا
فَلَسْتُ وَرَبِّ الْبَيْتِ أَصْبُو بِمِثْلِهَا
فَإِنْ تَكُ عِرْسُ الْيَحْمَدِيِّ وَأَخْتُهُ
يَبِيْتُ يُرَاعِي الْمُؤَمَّسَاتِ إِذَا دَجَا الظُّ
فَمَا أَنَا مِمَّنْ تَطَّ بِبِهِ خَرِيدَةٌ

ولو جُعِلَتْ فِي سَاعِدَيَّ الْجَوَامِعُ⁽¹⁾
وتلك التي تَسْنَكُ فِيهَا الْمَسَامِعُ
وربِّي راءٍ ما صَنَعْتُ وَسَامِعُ
سَرَيْنَ فَلَاقَاهُنَّ أَلْيَسُ خَالِعُ⁽²⁾
لام وجارُ البيتِ وَسَنَانُ هاجِعُ
ولو أَنَّهُا بَدْرٌ مِنَ الْأَفْقِ طَالِعُ⁽³⁾

2.4.2 المرأة غير الوفية

وتكشف بعض الأحاديث عن صورة المرأة غير الوفية، ومن ذلك أن امرأة من بني يشكر تسمى أم عقبة بنت عمرو بن الأبرج، كانت عند ابن عم لها يسمى غسان بن جهضم بن العذافر، فمات عنها بعد مسألته إياها عما ترى أن تصنع بعده، فأخذ العهود عليها في ذلك، وكان لها محباً، وكانت له كذلك، " فلما حضره الموت وظن أنه مفارق الدنيا قال ثلاثة أبيات، ثم قال: اسمعي يا أمَّ عُقْبَةَ ثم أجيبي، فقد تآقت نفسي إلى مسألتك عن نفسك، فقالت: والله لا أجيبيك بكذب ولا أجعله آخرَ حظِّي منك،⁽⁴⁾ فقال:

أخبري بالذي تريدين بعدي والذي تُضْمِرِينَ يـا أمَّ عُقْبَةَ؟
تحفظيني من بعد موتي لما قد كان مني من حسن خُلقٍ وصُحْبَةٍ
أم تريدين ذا جمالٍ ومالٍ وأنا في التراب في سُحْقٍ غُرْبَةٍ؟ "

فأجابته بأنها من أحفظ النساء وأرعاهن لما قد أولاهن من حسن صحبة، فلما سمع ذلك أنشأ يخاطبها شعراً، بأنه واثق بها، لكنه يخاف غدر النساء بعد موت الأزواج، ثم أخذ عليها العهود، واعتقل لسانه فلم ينطق بحرف حتى مات، فلم تمكث بعده إلا قليلاً حتى خطبت من كل وجه، ورجب فيها الأزواج لاجتماع الخصال

(1) الجوامع: الأغلال، ومفردها الجامعة؛ لأنها تجتمع الديدن. انظر: الزبيدي، تاج العروس، جمع.
(2) الأليس: الجريء من كل شيء، وخالع: قد خلع الحياء. انظر: ابن منظور، لسان العرب
(3) تطيبه: تدعوه، يقال: أطباه يطيبه وطباه ويطبوه. انظر: ابن منظور، لسان العرب، طبب.
(4) القالي، ذيل الأمالي والنوادر، ص 201.

الفاضلة فيها، فقالت مجيبة لهم بأنها ستحفظ غساناً على بعد داره، وستبكي عليه ما عاشت، " ولما تطاولت الأيام والليالي تناست عهده، ثم قالت: من مات فقد فات" (1)، فأجابت بعض خطابها فتزوجها، فلما كانت الليلة التي أراد الدخول بها أتاها غسان في منامها معاتباً إياها، لائماً إياها على غدرها وعدم محافظتها على عهدها في أبيات شعرية، " فلما سمعت هذه الأبيات انتبهت مرتاعة كأن غسان معها في جانب البيت، وأنكر ذلك من حضر من نسائها فأنشدتهن الأبيات، فأخذن بها في حديث ينسبها ما هي فيه، فقالت لهن: والله ما بقي لي في الحياة من أرب حياءً من غسان، فَتَغَفَّلْتَهُنَّ فَأَخَذَتْ مُدْيَةً فَلَمْ يُدْرِكْنَهَا حَتَّى ذَبَحَتْ نَفْسَهَا، فلما بلغ ذلك المتزوج بها قال: ما كان فيها مستمتع بعد غسان (2).

3.4.2 الأم وترقيص الأطفال

وتكشف بعض نصوص الخطاب النسوي عن دور الأم في الاهتمام بأبنائها، وتنشئتهم تنشئة اجتماعية رفيعة، من خلال بعض الأراجيز التي كانت النسوة يتغنين بها لأطفالهن، أو يرقصنهم بها؛ وهي تشتمل على معانٍ منتزعة من عاطفة الأم المنتقدة نحو أبنائها، ومن الآمال التي تعلقها عليهم، أو المستقبل الذي ترجوه لهم إذ سلموا وكبروا، وهي تظهر عاطفة الأمومة التي جبلت عليها الأم (3)، ومن الأمثلة على ذلك " ما وصفت به هند ابنها معاوية وهي ترقصه؛ إذ تقول (4):

إِنْ بُنِيَ مُعْرَقٌ كَرِيمٌ مَحَبَّبٌ فِي أَهْلِهِ حَلِيمٌ
لَيْسَ بِفَحَّاشٍ وَلَا لَيْيِمٌ وَلَا بِطُخْرُورٍ (5) وَلَا سَكُونُومٌ

(1) القالي، ذيل الأمالي والنوادر، ص 201.

(2) المرجع نفسه، ص 200-201.

(3) الحوسني، عبد الحي بن علي سيد، نثر المرأة من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي، ج1، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2004، ص135.

(4) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص116.

(5) الطخور: يقال للرجل إذا لم يكن جلدًا ولا كثيفًا. انظر: ابن منظور، لسان العرب، طخر.

صَخْرُ بَنِي فِهْرٍ بِهِ زَعِيمٌ لَا يُخْلِفُ الظَّنَّ وَلَا يَخِيْمُ⁽¹⁾

فهي تتوسم في ابنها معاوية أمارات السؤدد، وتتوه بشرفه وتعدد صفاته الكريمة، وتذكر ما تتوقع له من تبوء الزعامة، وفي ذلك إشارة إلى الصفات الكريمة النبيلة التي كانت موضع تفاخرهم، وهي ممثلة بالنباهة ورجاحة العقل.

ومن ذلك أيضاً ما قالته ضُبَاعَةُ بنتُ عامر وهي ترقص ابنها المغيرة بن سلمة، وقد توسمت فيه الخير، وامتدحت أصالته وطيب محتده، ورأت فيه مخايل الفطنة والذكاء، وأشارت إلى قوة قبيلته آل مخزوم وعظمتهم، حيث تقول⁽²⁾:

نَمَى بِهِ إِلَى الذُّرَى هِشَامٌ قَرَمٌ وَأَبَاءٌ لَهُ كِرَامٌ
جَاجِحٌ⁽³⁾ خَضَارِمٌ⁽⁴⁾ عِظَامٌ مِنْ آلِ مَخْرُومٍ هُمْ الْأَعْلَامُ
الهَامَةُ الْعَلِيَاءُ وَالسَّنَامُ

ومن ذلك أيضاً ما وصفت به أم الفضل بنت الحارث الهلالية ابنها عبد الله بن عباس وهي تُرَقِّصُهُ⁽⁵⁾:

تَكَلَّتْ نَفْسِي وَتَكَلَّتْ بِكْرِي إِنْ لَمْ يَسُدْ فِهْرًا وَغَيْرَ فِهْرٍ
بِالْحَسَبِ الْعِدِّ وَبَذَلِ الْوَفْرِ حَتَّى يُوَارِيَ فِي ضَرِيحِ الْقَبْرِ
فهي تدعو على نفسها بالموت والهلاك، وفقدان الولد، إن لم تُقدِّرْ له السيادة في قومه، وفي سواهم، ذلك أنه يمتلك صفات رفيعة تؤهله لتبوء ذلك منها الحسب الرفيع، والكرم وغير ذلك من الفضائل الإنسانية.

(1) الخِيمُ: الجبن، خامَ عنه يَخِيمُ خَيْمًا وَخَيْمَانًا وَخَيْوَمَا وَخِيَامًا وَخَيْمُومَةً: نَكَصَ وَجَبْنَ. وَالخَائِمُ: الجبان. وَخَامَ عَنِ الْقِتَالِ يَخِيْمُ خَيْمًا وَخَامَ فِيهِ: جَبْنَ عَنْهُ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، خيم.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص116، 117.

(3) جَاجِحٌ: جمع جَجِح: وهو السيد المسارع إلى المكارم، انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص117.

(4) خَضَارِمٌ: جمع خَضْرَم: وهو السيد الكريم الجواد الكثير العطية الشبيه بالبحر، انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص117.

(5) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص117.

4.4.2 المرأة الثكلى

لقد صورت بعض الأحاديث المرأة الثكلى أو النادبة التي فقدت أحد أعزائها: الزوج أو الابن أو الأقارب، ومن ذلك امرأة ثكلى من بني عامر بن صعصعة كان الأصمعي قد نزل بها، وقد مات ابن لها، وهي من القلق على مثل الرضفة، فقامت تعالج له طعاماً، فقال لها: " يا هذه، إنك لفي شغل عن هذا، فقالت: والله لا تجوز بيّتي إلا مقرّياً، ولكن أنشدني أبياتاً أسلو بهنّ، فإني أراك لوذعيّاً، فأنشدتها أبيات نؤيرة بن حصين المازني يرثي ابنه⁽¹⁾ والتي منها:

إنّي أرى للشامتين تجلّدي وإنّي كالطوي الجناح على كسر
يرى واقعا لم يدر ما تحت ريشه وإن ناء لم يسطع نهوضاً إلى وكر
فحفظت الأبيات في صدرها حيث كانت تتشدها وهي تعد الطعام للأصمعي حتى أطعمته وانصرف من عندها.

إن هذا السرد يحمل دلالات كثيرة، فهو يكشف عن جانب الضعف الذي ينتاب المرأة، عندما تتعرض لمصيبة وخاصة فقدان الولد، فتبحث عمّن يخفف من مصيبتها، فكان أن حقق اللوذعي الأصمعي بغيتها⁽²⁾، الذي رأت فيه الرجل الذي يمكن أن ينهض بذلك، وقد أحسن الأصمعي الحاذق في اختيار الأبيات المناسبة للحالة التي كانت عليها المرأة⁽³⁾. كما يكشف عن أنها صابرة وقوية وشجاعة تتحمل الألم ولا تشكو، وتتجرع المر فلا تظهره، بل وتتعالى على جراحها لتقوم بواجبها في إكرام الضيف على أكمل وجه.

وتكشف بعض الأحاديث عمّا يعترى الأم الثكلى التي فقدت ولدها من تفجع وألم وحسرة وما هي عليه من حب وحنان وعطف تجاه ابنها الذي أشرفت على تربيته، إلا أن المنايا وقفت تترصدّه، فاختطفته من بين يديها فجأة⁽⁴⁾، كما تكشف عن

(1) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص261-262.

(2) المرجع نفسه، ج1، ص262.

(3) بو حجام، "دراسة في أحاديث ابن دريد"، ص1643.

(4) مبييضين، ماهر، الأسرة في الشعر الجاهلي: دراسة موضوعية وفنية، ط1، دار البشير، عمان، 2003، ص174.

قدرتها على التجلد والصبر في هذا الموقف الصعب، ومن ذلك امرأة من نجد بأعلى الأرض كان الأصمعي قد دخل عليها " في خيائها لها، وبين يديها بُني لها قد نزل به الموت، فقامت إليه فأغمضته وعصبتته وسجته، ثم قالت: يا بن أخي؟ قلت: ما تشائين؟ قالت: ما أحق من ألبس النعمة وأطيلت به النظرة أن لا يدع التوثق من نفسه قبل حل عقده، والحلول بعقوته⁽¹⁾، والمحالة بينه وبين نفسه، قال: وما يقطر من عينها قطرة صبراً واحتساباً. ثم نظرت إليه فقالت: والله ما كان مالك لبطنك ولا أمرك لعرسك⁽²⁾! ثم أنشدت تقول:

رَحِيْبُ الذَّرَاعِ بِالْتِي لَا وَإِنْ كَانَتْ الْفَحْشَاءُ ضَاقَ بِهَا ذَرْعَا
تَشِينُهُ

ومن صور المرأة المكلومة تلك العجوز التي سكنت البادية قريباً من قبور أهلها⁽³⁾، وكان الأصمعي قد رآها في بيت منفرد في وادٍ خلاء، لا أنيس به، عندما خرج إلى البادية يلتبس اللغة، فظمى، فقصدتها وسألها أن تسقيه شربة من ماء، فكان أن سقته لبناً، ولما تحبب⁽⁴⁾ رياً، واطمأن، قال لها وهو يتساءل عن سر انعزالها عن منازل القوم: "إني أراك معتتزة في هذا الوادي الموحش و الحلة⁽⁵⁾ منك قريب، فلو انضممت إلى جنابهم فأنست بهم!"⁽⁶⁾. فردت عليه: "يا بن أخي، إني لأنس بالوحشة، وأستريح إلى الوحدة، ويطمئن قلبي إلى هذا الوادي الموحش"⁽⁷⁾.

إنها تقيم في هذا الوادي حيث كانت منازل قومها، الذين ماتوا فيما يبدو موتاً

(1) العقوة والعقاة: الساحة وما حول الدار والمحلة، وجمعهما عقاء. وعقوة الدار: ساحتها.

انظر: ابن منظور، لسان العرب، عقا.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص278.

(3) المرجع نفسه، ج2، ص6.

(4) التحبب: أول الرّي، وتحبب الرجل وغيره: امتلأ من الماء. ابن منظور، لسان العرب، حبيب.

(5) الحلة: المحلة أي منزل القوم. انظر: ابن منظور، لسان العرب، حل.

(6) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص6.

(7) المرجع نفسه، ج2، ص6.

جماعياً بفعل ظروف طبيعية قاهرة، عصفت بهم وأهلكتهم؛ " فأحال عليهم الجلاء⁽¹⁾ قمّاً⁽²⁾ بغرفة، فأصبحت الآثار دارسة، والمحال طامسة⁽³⁾. وهي تعبر عن حالتها النفسية وأحلامها الباطنية وأشواقها إلى الأهل، وقد أخذ الحزنُ عليهم بنفسها، وبلغت منها مشقة المعاناة بغيابهم مبلغاً كبيراً، ما جعلها تعيش حالة اغتراب نفسي حاد نتيجة فقدان الأهل وتواجه ذلك بالانعزال عن الناس، حتى أصبحت تأنس بالوحشة، وتستريح إلى الوحدة، ويطمئن قلبها إلى هذا الوادي الموحش.

وهي تعيش في ظل الاستسلام لتخيلاتها، والارتداد إلى الزمن الماضي وتذكر منازلهم، وقد كانت تمتلئ حياة وحركة: " فَأَتَذَكَّرُ مَنْ عَهَدْتُ، فَكَأَنِّي أَخاطبُ أعيانهم، وَأَتَرَأَى أشباحهم، وتَتَخَيَّلُ لي أُنْدِيَةَ رجالهم، ومَلَاعِبَ وُلْدَانِهِمْ، ومُنْدَى أموالهم⁽⁴⁾"⁽⁵⁾.

5.4.2 المرأة العاذلة

يقدم الخطاب النسوي صورة للزوجة العاذلة فهي التي توجه اللوم والعتاب لزوجها في مواقف مختلفة. ومن ذلك المرأة العاذلة لزوجها على سلوكه الاجتماعي المخالف للقيم والأعراف والعادات والتقاليد التي اعتاد عليها المجتمع، فقد عدلت امرأة كعب بن زهير زوجها فيما وقع بينه وبين زيد الخيل من المنافرة للفرس الذي أعطاه زهير أبو كعب زيد الخيل⁽⁶⁾، فقد كان بجير بن زهير بن أبي سلمى قد خرج " في غلمة يجتنون جنى الأرض، فانطلق الغلّمة، وتركوا ابن زهير، فمر به زيد الخيل الطائي فأخذه، ودار طيئ متاخمةً لدور بني عبد الله بن غطفان، فسأل الغلام:

(1) جَلَأَ بِالرَّجُلِ يَجَلَأُ بِهِ جَلَأً وَجَلَاءَةً: صَرَعه. وَجَلَأَ بَثْوَبِهِ جَلَاءً: رَمَى بِهِ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 1، ص 6.

(2) قَمَّ الشَّيْءَ قَمًّا: كَنَسَهُ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، قمم.

(3) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 6.

(4) نَدَأَ المَالَ: دَفَنَهُ وَالمَنْدَى: المَكَانَ الَّذِي يَنْدَى فِيهِ المَالَ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ندأ.

(5) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 6.

(6) القالي: ذيل الأمالي والنوادر، ص 23-24.

من أنت؟ فقال: أنا بجير بن زهير. فحمّله على ناقة ثم أرسل به إلى أبيه، فلما أتى الغلام أخبره أن زيداً أخذته ثم خلّاه وحملّه، وكان لكعب بن زهير فرس من جيات خيل العرب، وكان كعب جسيماً، وكان زيد الخيل من أعظم الناس وأجسمهم، وكان لا يركب دابة إلا أصابت إبهامه الأرض، فقال زهير: ما أدري ما أثيب به زيداً إلا فرس كعب. فأرسل به إليه وكعب غائب، فلما جاء كعب سأل عن الفرس، فقيل له: قد أرسل به أبوك إلى زيد. فقال كعب لأبيه: كأنك أردت أن تُقوّي زيداً على قتال غطفان فقال زهير له: هذه إبلي فخذ ثمن فرسك⁽¹⁾.

وكان بين بني زهير وبين بني ملقط الطائيين إخاء، فقال كعب شعراً يريد أن يلقي به بين بني ملقط، ورهط زيد الخيل شراً، فعرف زهير حين سمع الشعر ما أراد به، وعرف ذلك زيد الخيل وبنو ملقط، فأرسلت إليه بنو ملقط بفرس نحو فرسه. وكانت عند كعب امرأة من غطفان لها حسب، فقالت له: "أما استحييت من أبيك لشرفه وسنه أن تُؤبّسه⁽²⁾ في هبته عن أخيك، ولامته⁽³⁾"⁽⁴⁾.

لقد أنبت المرأة زوجها ووبخته على غضبه ومحاولة نيّله من زيد الخيل والإيقاع بينه وبين ملقط، إذ ترى في ذلك أنه يريد أن يحتقر أباه ويقلل من شأنه بين الناس، ويصغره، على فعله وإسراعه إلى رد الجميل وقضائه الحاجة لزيد الخيل، وهو أمر يخالف الأعراف والتقاليد العربية الأصيلة. وقد رأى كعب أن فعل امرأته كان ردة فعل على ما فعله كعب عندما "نزل به قبل ذلك ضيفان، فنحر لهم بكرةً كان لامرأته، فقال لها: ما تلوميني إلا لمكان برك الذي نحرته، فلك به بكران"⁽⁵⁾.

(1) المرجع نفسه، ص 23-24.

(2) يقال: أبسَهُ يَأْبِسُهُ أَبْساً وَأَبْسَهُ: صَغَّرَ بِهِ وَحَقَّرَهُ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، أبس.

(3) اللومة واللامة هي الحاجة أي المنتظر لقضائها. انظر: ابن منظور، لسان العرب، لوم.

(4) القالي: ذيل الأمالي والنوادر، ص 23-24.

(5) القالي، ذيل الأمالي والنوادر، ص 23-24.

6.4.2 المرأة المهذبة الطيبة الوفية

يقدم الخطاب النسوي صورة للمرأة العربية المهذبة الطيبة الوفية، التي تتسم باللباقة والدهاء، ومراعاة مقتضى الحال في خطابها، ومن ذلك نائلة بنت القرافصة حين زُفت إلى عثمان بن عفان وحُملت إليه من الشام، " فلما دخلت عليه. قال لها: لا يرو عنك ما ترين من شيبتي، قالت: إني لمن نسوة أحب بعولتهن إيهن الكهل السيد. قال: أتقومين لي أم أقوم إليك؟ قالت: ما قطعت إليك عرض السماوة وأنا أريد أن أكلفك عرض البيت، فقامت فجلست على فراشه"⁽¹⁾.

وتكشف أجوبة نائلة لزوجها عن بلاغة قولها، إلى جانب حدة ذكائها وسرعة بديحتها، ولباقتها واحترامها الكبير لشخصية زوجها. وبعد وفاة عثمان وانتهاء عدتها " خطبها معاوية فأبت فألح عليها، فقالت: " ما يعجب الرجال مني؟ قال: تثيتاك. فبعثت بهما إلى معاوية فكف عنها."⁽²⁾. لقد أعطت نائلة مثلاً على أعلى درجات الوفاء للزوج بعد وفاته، " مع اليأس الباتّ وبعد حلول المنيا وفجاءات المنون "⁽³⁾، ولا شك في أن " الوفاء في هذه الحالة الأجلّ و أحسن منه في الحياة ومع رجاء اللقاء"⁽⁴⁾.

7.4.2 المرأة الحسنة المرغوب فيها

وتقدم بعض نصوص الخطاب النسوي صورة للمرأة الحسنة المرغوب فيها، ذلك أن الرجل العربي كان شديد الإحساس بجمال المرأة الخُلقي والخُلقي. وقد تضمّنت هذه النصوص وصفاً دقيقاً لأعضاء المرأة التامة الخلق، ما يبرز بعض معايير الجمال وعناصره عند العرب. ومن ذلك ما جاء في الحوار الذي جرى بين

(1) ابن دريد، من أخبار أبي بكر ابن دريد، ص 161-162.

(2) المرجع نفسه، ص 162.

(3) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت 456هـ)، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، تحقيق

إحسان عباس، وزارة الثقافة، عمان، 2008، ص 208.

(4) المرجع نفسه، ص 208.

بعض مقول حمير وابنيه: عمرو وربيعه، من المسألة، حول أحب النساء إليهما، فقد قال: " أخبرني يا عمرو، أي النساء أحب إليك؟ قال: الهركوثة⁽¹⁾ اللفاء⁽²⁾، الممكورة الجيذاء⁽³⁾؛ التي يشفي السقيم كلامها، ويبري الوصب⁽⁴⁾ إمامها؛ التي إن أحسنت إليها شكرت، وإن أسأت إليها صبرت، وإن استعنتبتها أعتبت؛ الفاترة الطرف⁽⁵⁾، الطفلة الكف⁽⁶⁾، العميمة الردف⁽⁷⁾»⁽⁸⁾.

لقد حدد عمرو ما يحب من النساء، فهي الحسنه الجسم والخلق والمشية، الطويلة التامة القوام والخلق، المستديرة الساقين، المكنزة الردف، الطويلة العنق، الحسنه الكلام، الرخصة الناعمة الكف، المتحملة لزوجها، فإن أساء إليها تحملته، وإن أحسن إليها شكرته، وإن عاتبها التمسست له عذراً، إنها امرأة تجمع بين علو النسب وروعة الجمال، وبذلك يهنأ عيش الرجل معها، ويسود أسرتها الصفاء والوئام.

أما ربيعه فقد رأى أن المرأة الجميلة في نظره هي: " الفتانة العينين⁽⁹⁾، الأسيلة الخدين⁽¹⁰⁾، الكاعب الثديين⁽¹⁾، الرداح الوركين⁽²⁾، الشاكرة للقليل، المساعدة

(1) الهركوثة: الحسنه الجسم والخلق والمشية؛ والهركوثة: ضرب من المشي فيه اختيال وبطء. انظر: ابن منظور، لسان العرب، هركل.

(2) اللفاء التي ضاق ملتقى فخذها مع ترارتهما. انظر: الزبيدي، تاج العروس، لفاء.

(3) امرأة ممكورة: مستديرة الساقين، وقيل: هي المدمجة الخلق الشديدة البضة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مكر. جيذاء: طويلة العنق حسنته. انظر: ابن منظور، لسان العرب، جيد.

(4) الوصب: الوجع والمرض. انظر: ابن منظور، لسان العرب، وصب.

(5) فتر الطرف: أنكسر نظره. والطرف الفاتر: الذي فيه ضعف مستحسن. انظر: ابن منظور، لسان العرب، فتر.

(6) الطفلة الكف، بالفتح، الرخصة الناعمة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، طفل.

(7) جارية عميمة وعماء: طويلة تامة القوام والخلق. انظر: الزبيدي، تاج العروس، عمم.

(8) الفالي، كتاب الأمالي، ج1، ص152.

(9) الفتنة: إعجابك بالشيء، فتنه يفتنه فتناً وفتوناً، فهو فاتن. انظر: الزبيدي، تاج العروس، فتن.

(10) الأسيل من الخود: هو السهل اللين الدقيق المستوي والمسنون اللطيف الدقيق. انظر: ابن منظور، العرب، أسل.

للحيل، الرخيمة الكلام⁽³⁾، الجماء العظام⁽⁴⁾، الكريمة الأخوال والأعمام، العذبة اللثام⁽⁵⁾، إنها المرأة المثيرة عيناها للإعجاب، اللينة الدقيقة الخدين، البارزة النهدين، الثقيلة الأوراك التامة الخلق، الضخمة العجيزة، الحسنة الكلام، ذات الحسب والنسب الكريم، وهي بهذا تجمع بين روعة الجمال وعلو النسب.

8.4.2 المرأة المرغوب عنها

تقدم بعض نصوص الخطاب النسوي صورة للمرأة المرغوب عنها، فهذا عمرو ابن أحد أقيال اليمن يقول مجيباً أباه، حين سأله عن أبغض النساء إليه بقوله: "الفتاة⁽⁶⁾ الكذوب، الظاهرة العيوب، الطوافة الهبوب⁽⁷⁾، العابسة القطوب⁽⁸⁾، السبابة⁽⁹⁾ الوثوب⁽¹⁰⁾؛ التي إن ائتمنها زوجها خانتها، وإن لان لها أهانتها، وإن أرضاها أغضبتها، وإن أطاعها عصته"⁽¹¹⁾.

-
- (1) كعبت الجارية: نهدت ثيها؛ أي نتأ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، كعب
 - (2) امرأة رداح: عجزاء ثقيلة الأوراك تامة الخلق، ضخمة العجيزة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ربح.
 - (3) الرخيم: الحسن الكلام. والرخامة: لين في المنطق حسن في النساء. ورخم الكلام: لان وسهل. انظر: ابن منظور، لسان العرب، رخم.
 - (4) الجماء العظام: المجموعة العظام. انظر: ابن منظور، لسان العرب، جم.
 - (5) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص153.
 - (6) فتاة من أبنية المبالغة في الفتنة، وهي التي تفتن الناس بخداعها وغرورها وتزيينها المعاصي. انظر: ابن منظور، لسان العرب، فتن.
 - (7) الطوافة: كثيرة الطواف؛ أي كثيرة الدوران حول بيوت الناس ومنازلهم. انظر: ابن منظور، لسان العرب، طوف. الهبوب: طوف. الهبوب: يقال: هبت الريح تهب هبوباً وهيباً: ثارت وهاجت؛ أي لا تستقر في مكان. انظر: ابن منظور، لسان العرب، هيب.
 - (8) يقال: قطب الشيء يقطبه قطباً: جمعه. والقطوب: تزوي ما بين العينين عند العُوس. انظر: ابن منظور، لسان العرب، قطب.
 - (9) السبابة: المرأة كثير السباب؛ أي تسب الناس وتشتتهم. انظر: ابن منظور، لسان العرب، سبب.

(10) الوثوب: كثيرة المبادرة للشتم والمسارة إليه. ابن منظور، لسان العرب، وثب.

(11) الأمالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 153.

إن المرأة المبعوضة عنده: هي النمّامة التي تسعى بالإفساد بين الناس، وتطغى عيوبها على محاسنها، كثيرة الطّواف والدوران حول بيوت الناس ومنازلهم، لا تستقر في مكان، كثيرة السّبَابِ والشتم، لا تحسن التعامل مع زوجها، فهي خائنة لأمانته، مهينة له إن أكرمها، ومغضبة له إن أرضاها، عاصية له إن أطاعها. أما أخوه ربيعة فيقول معقّباً على ما عدّده عمرو من صفات المرأة المبعوضة التي ذكرها عمرو: " بئس والله المرأة التي ذَكَرَ " إنه يزيد على ذلك أن غيرها أبغض إليه منها، قال: " السّليطة اللسان، المؤذية للجيران، الناطقة بالبهتان؛ التي وجهها عابس، وزوجها من خير آيس؛ التي إن عاتبها زوجها وتترّته، وإن ناطقها انتهرته"⁽¹⁾.

إن أبغض النساء عنده، هي المرأة السليطة اللسان، التي تسيء للزوج والجيران، الناطقة بالباطل والكذب، والعباسة الوجه، ولا يُرتجى خير أو صلاح منها لزوجها، فإن عاتبها الزوج وتترّته، وإن تحدث معها لم تحترمه، على أنه يجب أن نشير إلى المرأة غير المرغوب فيها هي المرأة ذات الصفات السيئة والسلوك الاجتماعي الذي لا يلتزم بالأعراف والعادات الطيبة.

ويذهب ربيعة إلى أن غيرها أبغض إليه من هذه التي عدد أخوه صفاتها، وهي: " التي شَقِيَّ صاحبُها، وخَزِيَّ خاطبُها، وافتضح أقاربها. قال: ومن صاحبها؟ قال: مثلها في خصالها كلّها، لا تصلح إلا له ولا يصلح إلا لها"⁽²⁾. إنه يركز على الأثر السلبي لسلوكها على أسرته وأهل بيتها، وهي لا تصلح إلا لمن هو على مثالها من الرجال في الصفات.

5.2 صورة الرجل

لقد قدمت بعض نصوص الخطاب النسوي صورة للرجل في كثير من المواقف الحياتية، وهي صورة تتحكّم فيها جملة من العوامل النفسيّة والأخلاقية والثقافية والاجتماعية الموروثة، ويصدر بعضها عن تجربة نسائية ذاتية معينة

(1) المرجع نفسه، ج1، ص 153.

(2) الأمالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 153.

عاشتها المرأة أو مرت بها. وهي صور متباينة بين الإيجابية والسلبية، فقد نقل صاحب الأمالي قول شيخ من بني العنبر أن الرجال ثلاثة: "هَيْنَ لَيْنٍ عَفِيفٌ مُسْلِمٌ يُصْدِرُ الْأُمُورَ مَصَادِرَهَا وَيُورِدُهَا مَوَارِدَهَا؛ وَآخِرُ حَائِرٍ بَائِرٍ لَا يَأْتِمِرُ لِرُشْدٍ وَلَا يُطِيعُ الْمُرْشِدَ" (1).

وكان قد مر في بعض الموضوعات السابقة بعض ملامح صورة الرجل: الأخ المتسلط الذي يريد إكراه الأخت على الزواج ممن لا ترضاه ولا تحبه (2)، والأب الذي يرضى خطبة ابنته من رجل كبير السن، قبيح الوجه، دون استشارتها (3). والأب الذي يعنس بناته ويمنعهن من الزواج (4)، وغير ذلك، ما لا تجد الباحثة ضرورة لإعادة الحديث عنها.

1.5.2 صورة الزوج المرغوب فيه

لقد عني العرب باختيار الأزواج لبناتهم، وعدوا الأزواج ثلاثة، هم: "زوج مَهْرٍ، وزوجُ بَهْرٍ، وزوج دَهْرٍ؛ فأما زوج مهرٍ فرجل لا شرف له فهو يُسْنِي المَهْرَ ليرغب فيه، وأما زوج بهر فالشريف وإن قل ماله تتزوجه المرأة لتفخر به، وزوج دهر كفوها؛ وقيل في تفسيرهم: يَبْهَرُ العيون بحسنه أو يُعَدُّ لنوائب الدهر أو يؤخذ منه المهر" (5).

وقد كان من الأمهات من تعلم بناتها اختيار الأزواج، فقد كشفت بعض الأحاديث عن صفات الرجل المثل الذي ترغب فيه المرأة، ويدل ذلك على وعي المرأة بحقوقها، ومن ذلك أن عجوزاً من العرب قالت لثلاث بنات لها: صِفْنَ مَا تُحِبُّنَ مِنَ الْأَزْوَاجِ (6)؛ لقد أدركت الأم أن بناتها قادرات على أن ترسم كل واحدة

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 156.

(2) انظر: المرجع نفسه، ج 2، ص 161.

(3) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 183.

(4) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 105-106.

(5) ابن منظور، لسان العرب، بهر.

(6) القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 16.

منهن صورة للرجل الذي ترغب في الزواج منه، وهن إنما يستقين ذلك من قيم الرجولة التي رسختها العادات والتقاليد العربية التي كانت سائدة في المجتمع؛ أي أن صورة الرجل المثال مستمدة من رؤية النساء الفردية المرتدة إلى واقعهن الاجتماعي⁽¹⁾.

ويكشف خطاب الفتيات الثلاث عن الصفات الخلقية والخلقية التي يجب أن تتوفر في الرجل المثال لكل منهن، وفي مقدمة ذلك الجمال، فقد فقالت الكُبْرَى: "أريد أَرْوَعَ⁽²⁾ بَسَامًا"⁽³⁾، أي الرجل الجميل الذي يَرُوْعُكُ حُسْنُهُ وَيُعْجِبُكَ إِذَا رَأَيْتَهُ. والجمال كما هو مرغوب في المرأة مرغوب في الرجل، فالمرأة تكره من الرجل ما يكره منها، فكما يحب أن تكون زوجته وسيمة جميلة، تحب المرأة أن يكون زوجها وسيماً جميلاً؛ فالجمال كالشباب كلاهما يثير الجذب لدى الطرف الآخر، والقبح مكروه في الجنسين، وهو يباعد بينهما، فالمرأة تكره الرجل القبيح وتنفر منه، وخاصة إذا كانت شابة⁽⁴⁾.

ومن ذلك قول الفتاة الصغرى: "أريده بازل⁽⁵⁾ عام، كالمُهَنْدِ الصَّمَامِ"⁽⁶⁾؛ أي شاباً تام الشباب قاطعاً كالسيف؛ أي الشاب ذي البأس والقوة؛ وذلك لتقوم الغريزة بأكمل وظائفها في الاستخلاف واستمرار الحياة، ويبدو أن قوة الرجل تثير أنوثة المرأة بمقدار ما يثير الرجل و يجذبه لين المرأة و تثنيها. وإذا كان الشباب عنصراً أساسياً في الزواج، فإن تكافؤ السن يبدو ضرورياً. ولا شك أن مراعاة التقارب في السن بين الزوجين أمر يقتضيه احترام الطبيعة الإنسانية في المرأة. فإذا كان الشباب

(1) ناجي، سوسن، صورة الرجل في القصص النسائي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2006، ص129.

(2) الأروع والنجيب واحد، وهما الكريم؛ وقال غيره: الأروع: الذي يروعك جماله. انظر: ابن منظور، لسان العرب، روع.

(3) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص16.

(4) انظر: ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص183. وانظر أيضاً: الترمذيني، الزواج عند العرب، ص152.

(5) بازلٌ: مُسْتَحْكِمٌ. انظر: الزبيدي، تاج العروس، بزل.

(6) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص16.

والجمال من الصفات المرغوبة في الرجل والمرأة، فإنهما لا يغنيان عن صفات أخرى مطلوبة فيهما هي الأساس في الحياة الزوجية⁽¹⁾.

أما الصفات المرغوبة في الرجل، فهي الكرم والشجاعة والسيادة، وقد عبرت عن هذه الصفات الفتاة الكبرى بقولها: "أريده أْحَذَّ" (2) مِجْذَامًا⁽³⁾؛ سَيِّدَ نَادِيهِ، وَثِمَالَ عَافِيهِ⁽⁴⁾، وَمُحْسِبَ رَاجِيهِ⁽⁵⁾؛ فِنَاؤُهُ رَحْبٌ، وَقِيَادُهُ صَعْبٌ⁽⁶⁾. إنها تريده، قطعاً للأمر، سيداً للمجلس، غيائاً لقومه، قائماً بأمرهم، ولمن جاء من غيرهم طالباً للمعروف.

أما الوُسْطَى فقد أرادته: "عَالِي السَّنَاءِ، مُصَمَّمِ المَضَاءِ، عَظِيمِ نَارِ"⁽⁷⁾، مُتَمِّمِ أَيْسَارِ⁽⁸⁾؛ يُفَيْدُ وَيُبِيدُ، وَيُبْدِي وَيُعِيدُ⁽⁹⁾؛ أي عالي الشرف، ماض في الأمور لا يرد عزمه شيء، كريم جواد، نار قرأه للأضياف لا تطفأ لتتهدي الضيفان إليه، يدخل مع القوم في القداح، ذلك أنه لا يقيم للمال بالاً، يبيد الأنعام بكثرة إكرامه الأضياف الذين

(1) انظر: الترماني، الزواج عند العرب، ص 87، 92.

(2) الأَحْذُ: الخفيف السريع. وَالْحَدَّ: السرعة، وقيل: السرعة والخفة. وَالْحَذُّ: القطع المستأصل. انظر: الزبيدي، تاج العروس، حذذ.

(3) المِجْذَامُ: مفعول من الجَذَمِ، والجَذَمُ: سرعة القَطْعِ. انظر: الزبيدي، تاج العروس، جذم.

(4) ثِمَالُ القوم غيائهم ومن يقوم بأمرهم، يقال: فلان ثِمَالُ لِبْنِي فلان إذا كان يقوم بأمرهم ويكون أصلاً لهم وغيائاً. انظر: الزبيدي، تاج العروس، ثمل. وَعَفَاهُ يَعْفُوهُ: أتاه يَطْلُبُ معروفه، والعَفْوُ المَعْرُوفُ، وَعَفَوْتُ الرجل إذا طَلَبْتُ فَضْلَهُ. والعافية والعفأة والعفَى: الأضيافُ وطَلَبُ المَعْرُوفِ. انظر: الزبيدي، تاج العروس، عفا.

(5) المُحْسِبُ: من الإحساب وهو الكفاية، وأَحْسَبَ الرجلَ وَحَسَبَهُ: أَطْعَمَهُ وسقاه حتى يَشْبَع. انظر: الزبيدي، تاج العروس، حسب.

(6) القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 16.

(7) عظيم النار "تعني أن نار قرأه للأضياف لا تطفئ لتتهدي الضيفان إليه. انظر: تاج العروس، الزبيدي، عظم.

(8) أَيْسَارُ: المجتمعون على المَيْسِرِ، والجمع أَيْسَارُ. والمَيْسِرُ: اللَّعِبُ بالقِدَاحِ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، يسر.

(9) القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 16.

يفدون عليه فيكرمهم. وقالت الصغرى: " وفي الجَيْشِ كَمِي"⁽¹⁾؛ تَسْتَعْبِدُهُ الحَلِيلَةَ، وَتُسَوِّدُهُ الفَضِيلَةَ"⁽²⁾، فهو شجاع يقصد ولا يجبن عن لقاء قرنه، ويسودده رهط القبيلة لاشتماله على صفات الزعامة والسيادة.

وعنيت الفتيات أيضاً ببعض الصفات ذات الصلة بالعلاقة بين الرجل والمرأة داخل الأسرة، وخاصة تلك التي تقوم على إبراز المكانة التي تحتلها المرأة في عالم الرجل، ولا سيما في مجتمع الأعراب، ومن هذه الصفات ما أشارت إليها الوُسْطَى: " هو في الأهلِ صَبِيٌّ... تَسْتَعْبِدُهُ الحَلِيلَةَ "؛ أي تشغله الزوجة عما سواها، وقالت الصغرى: " قِرَانُهُ حُبُّورٌ"⁽³⁾، وَلِقَاؤُهُ سُرُورٌ"⁽⁴⁾؛ أي الزواج منه يقود إلى النعمة التامة، والسرور وسعة العيش.

وكانت بعض الفتيات ينظرن إلى الكفاءة أو الأهلية التي يتمتع بها الرجل للزواج من المرأة، إذ كانت البنت لا تزوج إلا ممن يساوي أباهما في الحسب والنسب، وفي الأسر الشريفة لا يجوز أن تقل مرتبة الزوج في قومه عن مرتبة والد الزوجة في السيادة والشرف⁽⁵⁾، فقد وصف عتبة بن ربيعة أبا سفيان بن حرب، عندما تقدم مع آخر لخطبة ابنته هند، فدخل عتبة عليها يصفهما لها ويخيرها بينهما، وكان قد وصف أبا سفيان بن حرب، بأنه: " في الحَسَبِ الحَسِيب"⁽⁶⁾؛ أي أنه معرق في الشجاعة والجود، وحسن الخلق والوفاء، وهو بذلك مكافئ لأبيها في المكانة⁽⁷⁾. وقد رأت في أبي سفيان الزوج المناسب لها ذلك أنه مكافئ لها في الحسب والنسب، فهو: " بَعْلُ الحُرَّةِ الكَرِيمَةِ"⁽⁸⁾؛ وهو حريٌّ " أن يكون المُدافع عن حَرِيم

(1) الكَمِيُّ: الشجاع المُتَكَمِّي في سلاحه لأنه كَمَى نفسه أي سترها بالدرع والبيضة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، كمي.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 16.

(3) الحَبْرُ والحَبْرُ والحَبْرَةُ والحُبُور، كله: السُرور. انظر: ابن منظور، لسان العرب، حبر.

(4) القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 16.

(5) انظر: الترماني، الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام، ص 55-56.

(6) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 104-105.

(7) المرجع نفسه، ج 2، ص 104-105.

(8) المرجع نفسه، ج 2، ص 104-105.

عشيرته، الذائد عن كَتَيْبَتِهَا⁽¹⁾، المُحَامِي عن حَقِيقَتِهَا، المُنْبَت لِأَرْوَمَتِهَا⁽²⁾؛ غير مُوَاكل⁽³⁾ ولا زَمِيلٌ⁽⁴⁾ عند صَعَصَعَةِ الحروب^{(5)»(6)}.

لقد رسمت صورة جميلة لرجل عظيم استقنتها من وصف والدها لأبي سفيان، فهو يتسم بالنخوة والشجاعة والإقدام، يدافع عن نساء قبيلته، ويذود عن فرسانها، ويعلي من أصلها وشرفها، وهو ليس تَكَلَّةً عاجزاً يَكِل أمره إلى غيره، عند اضطراب الحرب وجلبتها.

لقد كشف الخطاب النسوي عن الخلال والشمائل التي تطلبها المرأة الحرة في الرجل الكريم الذي تقترن به وتقضي معه مشوار حياتها⁽⁷⁾، إنهن يقدمن صورة لأنموذج الرجل المستحسن عند المرأة⁽⁸⁾، وهي صورة تختلف من امرأة إلى امرأة أخرى. وتلاحظ الباحثة أن الرجل المثال يتضمن صفات معينة مرتبطة بالعادات أو التقاليد أو الثقافة أو السن؛ فالمثالية مفهوم قيمى يحمل معاني وتفسيرات متعددة⁽⁹⁾. ولا شك أن صورة الرجل المثال نابعة من رؤية النساء الفردية المستقاة من الواقع

(1) الكَتَيْبَةُ: هي الجماعة المُسْتَحْيِزَةُ من الخَيْلِ أَيْ فِي حَيْزٍ عَلَى حِدَةٍ. وقيل: الكَتَيْبَةُ جماعة الخَيْلِ إِذَا أَغَارَتْ، من المائةِ إِلَى الألف. والكَتَيْبَةُ: الجيش. انظر: ابن منظور، لسان العرب، كتب.

(2) الأَرْوَمَةُ: الأَصْل. انظر: ابن منظور، لسان العرب، أرم.

(3) مُوَاكل: عاجزٌ كثير الاتكال على غيره. يقال: وَكَلَّةٌ تَكَلَّةٌ أَيْ عاجزٌ يَكِل أمره إلى غيره. انظر: ابن منظور، لسان العرب، وكل.

(4) رجل زُمَالٌ وزُمَيْلَةٌ وزَمِيلٌ إِذَا كان ضعيفاً فَسْلاً، وهو الزَّمَلُ أيضاً. انظر: ابن منظور، لسان العرب، زمل.

(5) الصَّعَصَعَةُ: الحركةُ والاضطرابُ و الجلبةُ في الحرب. انظر: ابن منظور، لسان العرب، صعصع.

(6) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 104-105.

(7) بو حجام، "دراسة في أحاديث ابن دريد"، ص 1645.

(8) انظر: ناجي، صورة الرجل في القصص النسائي، ص 127.

(9) انظر: المرجع نفسه، ص 127

الاجتماعي الذي تعيش فيه المرأة، وهو أمر مرتبط أيضاً بوعي المرأة بذاتها أولاً ثم بالرجل ثانياً⁽¹⁾.

2.5.2 صورة الرجل الواقعية

لقد شكل الرجل الزوج أهمية كبيرة في حياة المرأة، وقد استطاعت المرأة الزوجة تقديم صورة واقعية عن الزوج ناتجة عن تجربة شخصية عاشتها معه؛ أي من خلال علاقة واقعية به، وهي بذلك تمكنت من تكوين صورة واضحة عن علاقة الذات المرأة بالآخر الرجل.

ومن ذلك ما وصفت به بعض نساء الأعراب زوجها بمكارم الأخلاق عند أمها، " فقالت: يا أمُّه، من نَشَرَ ثَوْبَ الثَّناء فقد أدَّى واجب الجزاء، وفي كَتْمَان الشُّكر جُحودٌ لما وَجَبَ من الحق، ودُخُولٌ في كُفْرِ النِّعم "⁽²⁾. وعلى الرغم من أن خطاب الزوجة لم يكشف عن صفات زوجها التي ميزته وجعلتها تتحدث عنه على هذا النحو، فإن حديثها عنه ينبثق من قناعاتها بضرورة الوفاء لهذا الزوج الذي ارتبطت به ارتباطاً وثيقاً، من خلال نشر فضائله بين الناس، ومدحه والثناء عليه، وإذا ما كان غير ذلك فإنه يقع في باب الجحود وكفر النعم، وهنا تأكيد الأعرابية على أن حكمها لم يصدر نتيجة عبث، بل صدر نتيجة اختبار ومعرفة، وهو أمر يكشف عن قدرة المرأة على فهم زوجها والإفصاح عما تكنه له، وهي بذلك تعكس حسن معاملته إياها، وهو أمر ينبع من رؤيتها وتجربتها الذاتية المنبثقة من واقعها الاجتماعي؛ ولهذا تؤكد هذه الزوجة لأُمها بأنها لم تُعَجِّلْ بالثناء إلا بعد اختبار دقيق ومعرفة جيدة بسلوك زوجها وحسن أخلاقه، تقول مخاطبة أمها التي مدت ثناءها على زوجها: " يا أمُّه، ما مَدَحْتُ حتى اختبرت، ولا وصفت حتى عرفت "⁽³⁾.

وقدم السرد النسوي صورة معنوية جميلة للرجل العربي الكريم، ومن ذلك صورة طلحة الطلحات والي خراسان في العصر الأموي، فقد خرج وفد من أهل

(1) انظر: المرجع نفسه، ص 129.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 221.

(3) القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 221.

المدينة إلى خراسان لزيارته، ومروا في بعض البوادي على عجوز، فاتخذت لهم طعاماً وأكرمتهم، ثم قالت لهم: " أين تريدون؟ قالوا: طَلْحَةُ الطَّلْحَاتِ بِخُرَاسَانَ. فقالت: إِنْ وَاللَّهِ تَأْتُونَ سَيِّدًا مَاجِدًا صِهْمِيًّا⁽¹⁾، غَيْرَ وَخَشٍ⁽²⁾ وَلَا كَزُومٍ⁽³⁾«⁽⁴⁾، وحملتهم كِتَابًا إِلَيْهِ⁽⁵⁾. فلما قدموا على طلحة، " جعل يسألهم عمَّا خَلَفُوا، وما رَأَوْا في طريقهم، فذكروا/ العجوز وقالوا نُخْبِرُ الأَمِيرَ عَن عَجَبِ رَأْيِنَاهُ. وأخبروه بقصة العجوز وصنَّيعها وقولتها فيه، ثم قالوا: ولها عندنا كِتَابٌ إِلَيْكَ، ودفعوه إِلَيْهِ. " ⁽⁶⁾، و قد فهم طلحة مغزاهما، فقد سألته العطاء، " ولم يَدَعِ للوَفْدِ حَاجَةً إِلَّا قَضَاهَا، فلمَّا أرادوا الخُروجَ قال: هل أنتم مُبْلِغُوها الجُبْنِ الذي سألتُ؟ قالوا: نَعَمْ. وقد كان أَمَرَ بِجَنْبَتَيْنِ⁽⁷⁾ عَظِيمَتَيْنِ، فأمرَ بِنَقْبِهِمَا وَمَلَأَهُمَا دَنَانِيرَ، وَسَوَّى عَلَيْهِمَا، ثم قال: بَلَّغُوها الجَنْبَتَيْنِ، فلمَّا قدموا عَلَيْهَا نَزَلُوا قَالُوا لَهَا: وَيْحَكَ، كَتَبْتِ إِلَى مِثْلِ طَلْحَةَ الطَّلْحَاتِ تَسْتَطْعِمِينَهُ جُبْنَ خُرَاسَانَ؟ قالت: وَقَدْ بَعَثَ إِلَيَّ بِشْيءٍ؟ قالوا: نَعَمْ، وأخرجوا الجَنْبَتَيْنِ فَكَسَرْتُهُمَا فَتَنَازَرَتِ الدَّنَانِيرُ مِنْهُمَا، ثم قالت: أَمِثْلِي يَسْأَلُ طَلْحَةَ جُبْنًا؟⁽⁸⁾.

لقد قدم السرد صورة معنوية جميلة للرجل العربي، فأسبغ عليه كثيراً من الصفات والفضائل والقيم التقليدية التي ردها الشعراء في مدائحهم، مثل السيادة والكرم، والمروءة وشرف النسب، وعراقة الأصل. كما كشف السرد عن ملاقات طلحة الطلحات الأضياف ببشره، حتى إنه لم يدع لهم حاجة إلا قضاها، وما كان من أمره بنقب جنبتين عظيمتين، وملئهما دنانير وتسويتها حتى لا يكشف سرهما، وتبليغهما العجوز التي سألته العطاء.

(1) الصَّهْمِيُّمُ: السيّدُ الشَّريفُ من النَّاسِ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، صهم.

(2) الوَخْشُ: رُدَّالُ النَّاسِ وَسُقَاطُهُمْ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، وخش.

(3) الكَزْمُ البخل. والمُنْكَزْمُ؛ فَالْكَزْمُ: المُعْبَسُ فِي وَجْهِ السَّائِلِينَ، انظر: ابن منظور، لسان العرب، كزم.

(4) انظر: ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 73.

(5) انظر: المرجع نفسه، ص 73.

(6) انظر: المرجع نفسه، ص 73-74.

(7) الجَنْبَةُ: جِلْدَةٌ مِنْ جَنْبِ البَعِيرِ يُعْمَلُ مِنْهَا عُلبَةٌ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، جنب.

(8) انظر: ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 74.

ومن الأمثلة التي تقدم صورة للرجل المثالي ما جاء في وصف النسوة اللاتي أشرن على بنت الملك بالتزوج⁽¹⁾؛ وقد عدّنها لها أهمية الزوج، ورغبتها بالزواج ليتم لها الملك، فاحتجبت عنهنّ سبعا للتفكير في مشورتهم، ثم دعتهنّ فقال: قد نظرت فيما قلتن؛ فعليكنه فابغينه وتفرقن في الأحياء، "فأيتكنّ أنتتي بما أحب فلها أجزل الحياء، وعلّي لها الوفاء؛ فخرجن فيما وجهتهنّ له، وكنّ بنات مَقاول ذوات عقل ورأي"⁽²⁾.

فجاءت كل واحدة منهن وقد وصفت لها ما انتهت إليه من جهودها في البحث عن رجل مناسب يصلح زوجاً للملكة، وقد اختارت الملكة أحدهم وهو يعلى بن هزال ابن ذي جدن الذي وصفته لها قبل أن تسميه، فهو: "مُصامصُ النَّسب"⁽³⁾، كريم الحسب⁽⁴⁾، كامل الأدب؛ غزير العطايا، مألوف السجايا؛ مُقتَبَل الشباب، خَصيب الجناب⁽⁵⁾؛ أمره ماض، وعشيرته راض⁽⁶⁾⁽⁷⁾. واحتجبت بعدئذٍ عن نساءها شهراً ثم برزت لهن، فأجزلت لهن الحياء، وأعظمت لهن العطاء؛ ذلك أنها الزوج "من كمال طيب العيش"⁽⁸⁾.

فهو أخلصُ قومه نسباً، وأشرفهم في الأفعال الحميدة، وأحسنهم في الجود والشجاعة وحسن الخلق والوفاء، كامل الأدب، كريم غزير العطايا والهبات، جميل الصفات والمناقب، كثير الخير، عزمه ماض، وصديقه عنه راض، لحسن معاملته

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص80-81.

(2) المرجع نفسه، ج1، ص80.

(3) المُصامصُ: خالص كل شيء. وفلان مُصامصُ قومه ومُصامصُهم أي أخلصهم نسباً. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصص.

(4) الحسبُ: الكرم أو هو الشرف في الفعل. انظر: ابن منظور، لسان العرب، حسب.

(5) وافر الجناب، كثير الخير أي خير المنزل، كما يقال: خصيب الجناب والرحل، وهو مجاز، انظر: ابن منظور، لسان العرب، خصب.

(6) العشير: القريب، والصديق. وعشير المرأة: الزوج لأنه يُعاشرها وتُعاشره. انظر: ابن منظور، لسان العرب، عشر.

(7) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص80.

(8) المرجع نفسه، ج1، ص80.

إياه، واحترامه لأسباب الصداقة. لقد انبثقت صورة هذا الرجل الذي اقترنت به الملكة من واقع الرجل وصفاته الحقيقية، وهي صفات كريمة تواضع عليها المجتمع. وما يتصل بصورة الرجل صفة الفروسية التي كانت من أهم مرتكزات الحياة في العصر الجاهلي، وقد شكلت الخيل عنصراً مهماً في الفروسية، فكانوا يحبون الخيل ويبالغون في إكرامها ويرون أن العز والزينة وقهر الأعداء على ظهورها والغناء في بطونها⁽¹⁾؛ أي أنها وثيقة الصلة بالرجولة والفروسية، ومن مستلزماتها. ومن ذلك أن خمس فتيات اجتمعن " فقلن: هلمنن نصف خيل آبائنا "، فأخذت كل واحدة منهن تباري الأخرى في وصف فرس أبيها⁽²⁾، فقد قالت إحداهن: " فرس

(1) الجزائري، محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري الحسني، نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد، ط2، دار الفكر، دمشق، 1985م، ص18.

(2) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص187.

أبي وَرْدَةَ⁽¹⁾، وما وَرْدَةُ! ذاتُ كَفَلٍ مُزَحَلَقٍ⁽²⁾، وَمَتْنٍ أُخْلِقَ⁽³⁾، وَجَوْفٍ أُخْوَقَ⁽⁴⁾؛ وَنَفْسٍ مَرُوحٍ⁽⁵⁾، وَعَيْنٍ طَرُوحٍ⁽⁶⁾، وَرِجْلٍ ضَرُوحٍ⁽⁷⁾، وَيَدٍ سَبُوحٍ⁽⁸⁾، بُدَاهِنَهَا إِهْدَابٌ⁽⁹⁾، وَعَقْبُهَا غِلَابٌ⁽¹⁰⁾ «⁽¹¹⁾». إنها فرس ملساء المتن، واسعة الجوف، كثيرة المرح، بعيدة موقع النظر، تضرح الحجارة برجليها إذا عدت، كأنها تسبح في عدوها من سرعتها؛ حتى كأنها تغالب الجري.

وقالت الأخرى في وصف فرس أبيها: " فرس أبي اللَّعَابِ، وما اللَّعَابِ! غَبِيَّةٌ سَحَابٌ، واضطرامُّ غاب⁽¹²⁾؛ مُتْرَصٌ الأَوْصَالِ⁽¹³⁾، أَشَمُّ القَدَالِ⁽¹⁴⁾، مُلَا حَكَّ

-
- (1) وردة: اسم فرس لشمير بن الحارث الضبي. الغندجاني، الأسود، (بعد 430تـ)، أسماء خيل العرب وذكر فرسانها، حققه وقدم له محمد علي سلطاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.، ص 255.
- (2) الكَفَلُ، بالتحريك: العَجْزُ، وقيل: رِدْفُ العَجْزِ، وقيل: القَطَنُ يكون للإنسان والدابة، وإنها لعَجْزَاءُ الكَفَلِ، انظر: ابن منظور، لسان العرب، كفل. والمُزَحَلَقُ: الأَمْلَسُ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، زحلق.
- (3) الأَخْلُقُ: الأَمْلَسُ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، خلق.
- (4) الخَوَقُ: السَّعَّةُ، وفس خوقاء: ذات سَعَة في جَوْفِها. انظر: ابن منظور، لسان العرب، خوق.
- (5) فرَسٌ: مَرُوحٌ، نَشِيْطٌ، وقد أَمْرَحَهُ الكَلَأُ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مرح.
- (6) نَفْسٍ مَرُوحٍ: بَعِيدَةُ النَّظَرِ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، طرح.
- (7) رِجْلٌ ضَرُوحٌ: دَفُوعٌ؛ أي تضرح الحجارة برجليها إذا عدت. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ضرح.
- (8) يَدٍ سَبُوحٌ: كأنها تسبح في عدوها من سرعتها. انظر: ابن منظور، لسان العرب، سبح.
- (9) البُدَاهِنَةُ: الفجاءة، والبُدَاهِنَةُ والبديهة واحد. انظر: ابن منظور، لسان العرب، بده. والإهداب: السرعة، يقال: أهدب الفرس إهداباً فهو مهذب. انظر: ابن منظور، هدب.
- (10) العَقْبُ: جري بعد جري. وغلاب: مصدر، يقال: غالبه مُغَالِبَةٌ وغلاباً؛ والغلاب: المُغَالِبَةُ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، غلب.
- (11) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص187.
- (12) الغاب جمع غابة، وهي الأجمة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، غيب.
- (13) مُتْرَصٌ: محكم، أترصت الشيء: أحكمته. انظر: ابن منظور، لسان العرب، رصص.
- (14) أَشَمُّ: مرتفع. انظر: ابن منظور، لسان العرب، شمم. والقذال: معقد العذار. انظر: ابن منظور، لسان العرب، قذل.

المَحَال⁽¹⁾، فارسُهُ مُجِيدٌ، وصَيْدُهُ عَتِيدٌ⁽²⁾، إِنَّ أَقْبَلَ فُظْبِيٍّ مَعَّاجٍ⁽³⁾، وَإِنْ أَدْبَرَ فَظَلِيمٌ هَدَّاجٍ⁽⁴⁾، وَإِنْ أَحْضَرَ فَعَلِجٌ هَرَّاجٍ^{(5)»(6)}.

إنه فرس شديد السرعة، كأنه دفعة مطر أو سحابة فيها مطر وبرق و رعد، محكم الخلق، مرتفع معقد العذار، من عراب الخيل، متداخل الفقار بعضها في بعض، هيئته إذا أقبلت هيئة ظبي سريع العدو، وإن أدبر فذكر نعام في ارتعاش مَشِيهِ وَسَعِيهِ، وإن أحضر فهو حمار وحشي لقوته وصلابته.

إن هذا الخطاب النسوي يكشف عن أمرين أولهما: قدرة المرأة على وصف الخيل وصفاً أدبياً رفيعاً حافلاً بالغريب والحوشي من الألفاظ؛ ما ينبىء عن معرفة المرأة الدقيقة بأصول اللغة وغربها⁽⁷⁾. وثانيهما انطلاق المرأة في وصفها الفرس من وعي عميق لجمال الخيل المادي والمعنوي، هذا الجمال الذي شكَّته العادات والتقاليد والأعراف والبيئية الاجتماعية.

(1) المَلْحَكَةُ: شِدَّةُ التَّيَامِ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ، وَاللَّحْكُ: مُدَاخَلَةُ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، لحك. والمَحَال: الْفَقَارُ، وَالْمَحَالَةُ الْفُقْرَةُ مِنْ فَقَارِ الْفَرَسِ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، محل.

(2) شَيْءٌ عَتِيدٌ: مُعَدٌّ حَاضِرٌ. وَعَتَدَ الشَّيْءُ عَتَادَةً، فَهُوَ عَتِيدٌ: حَاضِرٌ. انظر: ابن منظور، عتد.

(3) يقال: معج الفرس في سيره وعمج إذا أسرع. ابن منظور، لسان العرب، معج.

(4) هَدَّاجٌ هَدَجٌ الظَّلِيمُ يَهْدِجُ هَدَجَانًا وَاسْتَهْدَجَ، وَهُوَ مَشِيٌّ وَسَعِيٌّ وَعَدَوٌ، كُلُّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ فِي ارْتِعَاشٍ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، هدج. وَالظَّلِيمُ: الذَّكَرُ مِنَ النَّعَامِ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ظلم.

(5) الْعَلِجُ: حِمَارُ الْوَحْشِ لِاسْتِعْلَاجِ خَلْقِهِ وَغَلْظِهِ؛ وَيُقَالُ لِلْعَيْرِ الْوَحْشِيِّ إِذَا سَمِنَ وَقَوِيَ: عَلِجَ. وَكُلُّ صُلْبٍ شَدِيدٍ: عَلِجٌ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، علج. وَهَرَجَ الْفَرَسُ يَهْرَجُ إِذَا كَانَ كَثِيرَ الْجَرِيِّ، وَإِنَّهُ لِمَهْرَجٍ وَهَرَّاجٍ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، هرج.

(6) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص187-188.

(7) فاعور، مقامات بديع الزمان الهمذاني وعلاقتها بأحاديث ابن دريد، ص104.

الفصل الثالث

السرد النسوي في أحاديث ابن دريد (التشكيل)

يتناول هذا الفصل دراسة التشكيل الفني لنصوص الخطاب النسوي، من خلال التحليل الوصفي الذي يفكك نصوص الأحاديث إلى مكوناتها الأساسية، وتحليل هذه المكونات وعناصرها المختلفة، وذلك في إطار بنية الاستهلال السردية، ومستويات السرد، والشخصيات، وبنية الزمن الفني ودلالته، وشعرية الخطاب السردية.

1.3 بنية الاستهلال السردية

لعله من المفيد القول إن هناك إشكالية حول أحاديث ابن دريد ذات صلة وثيقة بمصادر هذه الأحاديث وإسنادها، فقد ذكر أبو إسحق الحصري⁽¹⁾ في معرض حديثه عن بديع الزمان الهمذاني أنه كان قد استلهم مقاماته من أحاديث ابن دريد؛ إذ يقول إن: "أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استخبها من ينابيع صدره، وانتخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها إلى الأفكار والضمائر، في معارض حوشية، وأفاظٍ عنجبية فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حُجُبها الأسماع، وتوسّع فيها إذ صرف

(1) أبو إسحق الحصري، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري (ت 453 هـ / 1061 م)، أديب نقاد، من أهل القيروان، نسبته إلى عمل الحصر، وله شعر فيه رقة، وهو ابن خالة الشاعر أبي الحسن الحصري ناظم (يا ليل الصب)، من مؤلفاته: زهر الآداب وثمر الألباب، ومختصره (نور الطرف ونور الظرف، والمصون في سر الهوى المكنون، وجمع الجواهر في الملح والنوادر. انظر ترجمته في: ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (ت 456هـ/1063م)، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، جمعه وحققه محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991، ص 45-48؛ ابن بسام، أبو الحسن علي (ت 542هـ/1147م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 4/ق8م، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1978، ق4، 2، ص 584-592.

ألفاظها ومعانيها في وجوهٍ مختلفةٍ، وضروبٍ منصرفةٍ، عارضها بأربعمئة مقامة في الكدية...»⁽¹⁾.

وقد تناول كثير من الدارسين المحدثين مقولة الحُصريّ هذه، فأَيّده بعضهم، وعارضه آخرون⁽²⁾. غير أن الذي يعني الباحثة هنا هو ما يتعلق بمصادر أحاديث ابن دريد وإسنادها عامة، وأحاديث النسوة منها خاصة؛ فإذا كان الأمر كما يذكر الحصري، من أن تلك الأحاديث هي من اختراع ابن دريد وابتداعه؛ أي أن ابن دريد ليس مجرد حلقة وصل بين نصوص الأحاديث وقارئها، وليس مجرد صدى لغيره، إنما هو يصنع كلاً منها، ويسوقها على لسان غيره، لإثبات قدرته على الإبداع، ويقر له القوم بالبراعة والسبق⁽³⁾، وهو في كل ذلك يتخفى ويتوارى وراء جملة الاستهلال السردّي، في أول كل حديث، ثم ينسحب. ولعله من المفيد القول إن ذلك يعني أن الإسناد في هذا الخبر الأدبي وسيلة للمشاكلة؛ أي إيهام المتلقي بأن الخبر ممكن الوقوع إن كان مداره على الأحداث، وممكن القول إن كان مداره على

(1) الحُصريّ، أبو إسحق إبراهيم بن علي الحُصريّ القيرواني (ت 453 هـ / 1061 م)، زهر الآداب، دار الفكر العربي، تحقيق محمد علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، القاهرة، د. ت، ج 2، ص 261.

(2) انظر على سبيل المثال: ضيف، شوقي، فن المقامة، دار المعارف، القاهرة، 1964، ص 16؛ مبارك، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ج 1، ص 248؛ درويش، أحمد، البناء الفني لأحاديث ابن دريد وأصدائه في مقامات بديع الزمان الهمذاني، فصول، م 13، ع 3، 1994، ص 20-39؛ فاعور، إكرام، مقامات بديع الزمان الهمذاني وعلاقتها بأحاديث ابن دريد، دار اقرأ، بيروت، 1983. خليل صالح أبو رحمة، "مقدمة لقراءة بديع الزمان الهمذاني"، في لهب المعرفة: من قضايا الأدب والفكر في التراث العربي، دار الكتاب الثقافي، إربد، 2012، ص 519-533، ص 520.

(3) لمزيد من التفصيل حول هذه القضية، انظر: إبراهيم، السردية العربية، ص 198؛ أحمد أمين مصطفى، فن المقامة بين البديع والحريري وابن دريد، ط 1، دن، 1991، ص 43؛ الغزالي، عبدالله محمد، "البناء السردّي في مقامات جلال الدين ابن دريد"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع 69، 2000، ص 152-187، ص 163.

الأحاديث، فغاية المحدث من الإسناد أن يثبت انتماء الخبر إلى الواقع أو يعطي الانطباع بأن الخطاب له بالواقع نسب⁽¹⁾.

ومها يكن من أمر، فقد حرص ابن دريد في أحاديثه عامة على النمط التقليدي السردى الذي سار عليه أصحاب أدب الأخبار عامة في افتتاح أخبارهم بجملة الاستهلال السردى: " حدثت، أو أخبر أو حكى " أو ما شابهها⁽²⁾، ويعود ذلك إلى أن المشافهة شكّلت في عصر ابن دريد الإطار العام للعقل العربي، والوسيلة المهمة لحفظ التراث العربي على الرغم من تدوينه، إذ ظل الإسناد وضرورة ذكر الراوي لاسم من روى عنه شرطاً أساسياً في عملية التعليم والتعلم⁽³⁾.

لذا، فإن افتتاح نصوص أحاديث ابن دريد بجملة الاستهلال السردى: مثل: " حدثت أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال أخبرني عمي⁽⁴⁾ عن أبيه عن ابن

(1) انظر: القاضي، محمد، الخبر في الأدب العربي: دراسة في السردية العربية، منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس، 1998، ص 137؛ درويش، البناء الفني لأحاديث ابن دريد، فصول، م13، ع3، ص 24-25.

(2) انظر: إبراهيم، عبدالله، السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992، ص 94-95.

(3) انظر: الغزالي، عبدالله محمد، " البناء السردى في مقامات جلال الدين السيوطي "، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع 69، ص 153-187، ص 156-158.

(4) هو الحسين ابن دريد، وكان قد تكفل تربيته وتعليمه، وقد صرح بذلك بقوله: " كان عمي الحسين بن دريد يتولى تربيتي "، وكان يشجعه على الحفظ والاستزادة من العلم والمعرفة. انظر: ترجمته في: ياقوت الحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت 626هـ)، معجم الأدباء، تحقيق أحمد فريد الرفاعي، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1936، ج 18، ص 129؛ القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 16، 41، 187-188، ج 2، ص 115-116، 117؛ ابن دريد، " من أخبار أبي بكر بن دريد، ص 160-161.

الكليبي، قال:.....⁽¹⁾، و "حدثنا أبو بكر قال: أخبرنا عبد الرحمن⁽²⁾ عن عمّه قال:.....⁽³⁾." و " قال أبو علي وحدثنا أبو بكر رحمه الله قال حدثنا عبد الرحمن عن عمه قال أخبرنا شيخ من بني العنبر قال:.....⁽⁴⁾، وغير ذلك من العبارات، تفيد أن البنية السردية للخطاب الأدبي في أحاديث ابن دريد قائمة على إسناد الخطاب، وإسناد الرواية، ما يؤكد أن أبا علي القالي وغيره من تلاميذ ابن دريد كانوا يأخذون العلم كأستاذهم حفظاً ورواية عنه، ما يؤكد استمرارية الموروث السردى العربى القديم التقليدى الذى كون الإطار الفكرى للعقل العربى منذ القرون الأولى للإسلام، وحتى عصر ابن دريد فى القرن الرابع الهجرى.

ويظهر أن ابن دريد كان قد تلقى العلم بطريقة الرواية والحفظ، ثم ورثها لتلميذه القالي. ولقد وصل إلينا هذه الأحاديث عن طريق الرواية والإسناد والسرد من جيل إلى جيل عن طريق الاستماع والحفظ أولاً، قبل أن يلقوها أبو علي القالي من ذاكرته أو من قرطيس كانت معه، أي قبل تدوينها⁽⁵⁾.

-
- (1) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 211.
- (2) انظر: عبد الرحمن بن عبد الله ابن أخي الأصمعي، وقد مثل ابن أخي الأصمعي مصدراً مهماً من المصادر التي نهل منها ابن دريد أحاديثه؛ إذ إنه وصله بالأصمعي مباشرة، فأكثر ابن دريد من الرواية عنه في صغير الأمور وعظيمها. وتعد الأحاديث التي نقلها ابن دريد عن ابن أخ الأصمعي من أكثر الأحاديث المتعلقة بالنسوة عدداً، إذ بلغ عددها عشرين حديثاً، وربما تعود هذه الكثرة في الأخبار المنقولة لثقة ابن دريد برواية عبدالرحمن، انظر ترجمته في: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 180؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج 2، ص 82؛ القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 39، 40، 42، 62، 104، 150، 221، 214، 283، 284، ج 2، ص 6، 35، 36، 83، 136، 156، 172، 173، 174، 278، 283، 287؛ ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 228.
- (3) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 132.
- (4) انظر: المرجع نفسه، ج 1، ص 156.
- (5) انظر: المرجع نفسه، مقدمة الناشر، ص- م. وانظر أيضاً: الصفار، ابتسام، " ابن دريد راوية وأديباً "، في ابن دريد الأزدي أعلم الشعراء وأشعر العلماء، إعداد وتحريير عليان

لقد روى ابن دريد أحاديثه عن طائفة من أعلام العلماء، وأئمة الأدب واللغة، وأساطين الرواية والتاريخ⁽¹⁾، وهم يشكلون المصادر الأساسية التي نقل عنها تلك الأحاديث، وقد انتهت تلك الأسانيد بعدد من الشيوخ المعروفين الذين أشاد المترجمون بصدقهم وارتفاع درجة الثقة بهم، مثل: الأصمعي، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، والعتبي، أو الأشخاص المعروفين، ومنهم المغمورون والرجال العاديون، وغيرهم.

ولعله من المفيد القول إن ابن دريد قد عمد في طريقة إيراده الرواة الذين نقل عنهم إلى طريقتين، أولهما: المحافظة على إيراد سلسلة إسناد الرواة الذين نقل عنهم معظم أحاديثه التي أوردها أبو علي القالي. ومن الأمثلة على هذه الأحاديث قوله: " حَدَّثَنَا السَّكَنُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ عِبَادٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِي مِخْنَفٍ عَنْ أَشْيَاحٍ مِنْ عُلَمَاءِ قُضَاعَةَ، قَالُوا...⁽²⁾. وثانيهما: التخفيف من الرواية التقليدية في ما انتهى إلينا من أحاديثه التي أوردها في أماليه، فقد عمد إلى التحلل بدرجة كبيرة من سلسلة الإسناد، وتقليصها إلى راوٍ واحدٍ. ومن ذلك أنه يروي عن الأصمعي خمسة أحاديث مباشرة حاذفاً سندها ومصدرها⁽³⁾، ومن الأمثلة على هذه الأحاديث قوله: " قال الأصمعي: قدم أعرابي إلى البصرة ومعه بنات له حسان، فذكر أهل البصرة حسنهن...⁽⁴⁾. كما ينقل عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أربعة أحاديث دون أن يذكر لها سنداً⁽⁵⁾، ومن ذلك قوله: " عن أبي عبيدة قال: وقفت امرأة من الخوارج على الحسن، فقالت: يا أبا سعيد...⁽⁶⁾."

الجالودي، وكمال مقابلة، منشورات وحدة الدراسات العمانية، جامعة آل البيت، 2011، ص 1529-1549، ص 1532.

(1) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ص ك-م. وانظر أيضاً: ابتسام الصفار، " ابن دريد راوية وأديباً "، ص 1529-1549، ص 1532.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 126.

(3) انظر: ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 119-120، 171، 177، 196، 228.

(4) المرجع نفسه، ص 171.

(5) انظر: المرجع نفسه، ص 106، 110، 175-176، 183.

(6) المرجع نفسه، ص 106.

ولعله من المفيد أيضاً القول إنه يمكن تقسيم الرواة الأول الذين انتهت إليهم الأسانيد إلى ثلاثة أنواع من حيث علاقتهم بالسرد والشخصيات التي دارت حولها الأحاديث، وهي:

1- الرواة الذين رَووا من ذاكرتهم وما استقر في وعيهم من معلومات حول حوادث وشخصيات معينة، ومن ذلك الرّأوي الأول لحديث زبراء الكاهنة، وهو " أبو مخنف"، حيث تكفل بمهمة تقديم الرواية، كما ترسّبت في ذاكرته ووعيه نقلاً عن أشياخ من علماء قضاة، وقد جعل هذه الوقائع والأحداث تتنامى شيئاً فشيئاً أمامه، وجسّدها لتلقي الضوء على بطل الحديث، فقد افتتح حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام من قضاة بجملته الاستهلال السردية: " حَدَّثَنَا السَّكْنُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عِبَادٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِي مَخْنَفٍ عَنْ أَشْيَاحٍ مِنْ عُلَمَاءِ قُضَاةٍ، قَالُوا: "...، لقد أسند ابن دريد مهمة الرواية إلى أبي مخنف ليقوم بسرد حكاية زبراء الكاهنة مع قومها⁽¹⁾. وقد درج رواة معظم أحاديث النسوة على رواية ما حدث مع الآخرين أو الأخريات⁽²⁾.

2- الرواة الذين شاركوا في حوادث الحديث ووقائعه بأنفسهم، وتولوا مهمة متابعة بطل الحديث والشخصيات السردية وسرد حكايته؛ أي أنهم استعادوا وقائع شهودها، وركزوا اهتمامهم حول شخصية مركزية تكون محوراً للوقائع⁽³⁾. ومن الأمثلة على ذلك ما رواه الأصمعي، فقد روى عدداً كبيراً من الأحاديث التي كان قد شارك في أحداثها ووقائعها، ومن ذلك قوله: "سمعتُ امرأة من

(1) لمزيد من التفصيل حول هذه القضية، انظر: إبراهيم، السردية العربية، ص198؛ مصطفى، أحمد أمين، فن المقامة بين البديع والحريري وابن دريد، ط1، د.ن.، 1991، ص43؛ عبدالله محمد الغزالي، " البناء السردية في مقامات جلال الدين ابن دريد"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع69، 2000، ص152-187، ص163.

(2) لمزيد من الأمثلة. انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 35، 41، 42، 152؛ ج2، ص4، 115، 116، 181.

(3) لمزيد من التفصيل انظر إبراهيم، السردية العربية، ص197؛ الغزالي، " البناء السردية في مقامات جلال الدين السيوطي"، ص162-163.

العرب تخاصم زوجها وهي تقول: والله إن شربك لأشتفأف، وإن ضجعتك
لأنجعاف، وإن شملتك لألتفأف...⁽¹⁾.

ومن ذلك حديث الأصمعي مع امرأة ثكلى من بني عامر نزل بها، " قال:
نزلت على امرأة من بني عامر بن صعصعة ابن لها، وهي من القلق على مثل
الرضفة⁽²⁾، فقامت تعالج لي طعاماً، فقلت لها: يا هذه، إنك لفي شغل عن هذا،
فقلت: والله لا تجوز بيتي إلا مقرباً، ولكن أنشدني أبياتا أسلو بهنّ، فإني أراك
حاذقاً، فأنشدتها أبيات نويرة بن حصين المازني يرثي ابنه:

إنِّي أرى للشاميتين تجلُّدي وإنِّي كالطاوي الجناح على كسري
يرى واقعا لم يُدر ما تحت ريشه وإن ناء لم يسطع نهوضاً إلى وكر

قال: فكأنني والله زبرت الأبيات في صدرها، فما زالت تتشدها وتصلح
طعامي حتى قرنتي ورحت من عندها"⁽³⁾.

لقد تكفل الأصمعي بالسرد وتقديم شخصية المرأة، وشارك في الأحداث
والوقائع ما يتيح له أن يتدخل في سيرورتها ببعض التعاليق أو التأملات التي تكون
ظاهرة أو ملموسة، فهو شاهد عيان لمجريات الوقائع⁽⁴⁾.

3- الرواة الذين قاموا بدور البطولة ورووا ما جرى معهم، حيث يقوم الراوي
المعلوم الأخير في سلسلة الرواة الذين نقل عنهم الخطاب السردى بتقديم بطل
السرد ويوكل إليه فيما بعد مهمة سرد حكاية ما إلى جانب بطولته ويصمت
الراوي نهائياً. ومن ذلك ما نقله ابن دريد عن مسلم بن يسار، الذي قص قصة
امرأة عرفت بالصبر على المصائب والنكبات الخاصة إذ يقول: " وعن مسلم
بن يسار، قال: قدمت البحرين فنزلت على امرأة لها بنون ورقيق ومال، وهي
مكتنبة، فلما أردت الخروج سلمت عليها، وقلت: هل لك من حاجة؟ قالت

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 78.

(2) الرضفة: واحدة الحجارة التي حميت بالشمس أو النار. انظر: ابن منظور، لسان العرب،
رضف.

(3) انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 261-262.

(4) انظر: إبراهيم، السردية العربية، ص 201.

حاجتُنَا إِنْ قَدِمْتَ هَذَا الْبَلَدَ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْنَا، فَغَبِرْتَ نَحْوًا مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً، ثُمَّ قَدِمْتَ فَأَنْتَيْتُ بَابَهَا فَإِذَا هُوَ مَوْحِشٌ، فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهَا، فَسَمِعْتُ ضَحِكَهَا، فَأَذْنَبْتُ لِي، وَعِنْدَهَا إِنْسَانَةٌ، فَلَمَّا دَخَلْتُ قَالَتْ: أَرَأَيْكَ تَعْجَبُ مَا تَرَى، فَقُلْتُ: أَجَلٌ، قَدْ رَأَيْتُ بَابَكَ فَإِنَّهُ لِأَهْلِ، قَالَتْ: فَإِنَّكَ لَمَّا خَرَجْتَ/ مِنْ عِنْدِنَا جَعَلْنَا لَا نُرْسِلُ فِي بَرٍّ إِلَّا عَطِبَ، وَلَا بَحْرٍ إِلَّا غَرِقَ، وَمَاتَ بَنِيَّ وَرَفِيقِي. قُلْتُ فَالكَآبَةُ يَوْمئِذٍ، وَالسُّرُورُ الْيَوْمَ؟ قَالَتْ إِنْ كُنْتُ إِذَا ذَكَرْتُ حَالِي تِلْكَ ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَا خَيْرَ لِي عِنْدَ رَبِّي، فَلَمَّا رُزِنْتُ مَالِي وَوَلَدِي رَجَوْتُ⁽¹⁾.

وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا مَا رَوَاهُ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ، قَالَ: ذَكَرْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَهَانَةَ يَوْمًا، فَقَالَ الزُّبَّانُ الْعَدَوَانِي: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ ذَلِكَ عَجَبًا. قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: كَانَتْ لَنَا أُمٌّ يُقَالُ لَهَا: أَنْيْسَةُ فَوَلَدَتْني وَأَرْبَعَةَ إِخْوَةٍ مَعِي، فَكَانَتْ عَدَوَانٌ تَتَعْجَبُ مِنَّا، وَتَقُولُ: بَنُو أَنْيْسَةَ، فَخَرَجْتُ فِي سَفَرٍ، فَتَرَكْتُهُمْ فِي آثَارِهِمْ لِأَطْلَبَهُمْ فَأَرَدْتُهُمْ، فَلَمْ أَجِدْ لَهُمْ خَبْرًا، حَتَّى أَنْزَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ نَهْدٍ، فَإِنِّي لَعِنْدَهُ إِذْ طَلَعَتْ جُوَيْرِيَّةُ أَمَامَ غَنَمٍ فَرَزَاءٍ...⁽²⁾.

لَقَدْ قَدَّمَ الرَّوَايَ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ الْبَطْلَ الزُّبَّانَ الْعَدَوَانِيَّ الْبَطْلَ لِيُرْوِيَ حِكَايَتَهُ، وَهُوَ بِذَلِكَ يَتَحَوَّلُ إِلَى رَاوِيٍّ يُرْوِي مَا حَدَّثَ مَعَهُ شَخْصِيًّا وَمَا شَاهَدَهُ عَيْنَانًا، وَمَا سَمِعَهُ عَنْ قَرِيبٍ مِنَ الْكَاهِنَةِ، وَمَا كَانَ مِنْ تَوَقُّعَاتِ الْكَاهِنَةِ حَوْلَ أُخُوْتِهِ، وَمَا جَرَى مَعَهُمْ، وَمِنْ ثَمَّ يَصْبِحُ الْبَطْلُ الرَّوَايَ مَسْئُولًا عَنْ سَرْدِ الْحِكَايَةِ، وَبِنَاءِ عَالَمِهَا الْمُتَخَيَّلِ تَبَعًا لِحُلُولِهِ دَاخِلَ نَصِّ الْحِكَايَةِ، فِي حِينٍ يَبْقَى الرَّوَايَ الْأَخِيرَ خَارِجَ السَّرْدِ.

2.3 الشخصيات

تكتسب الشخصيات أهمية كبيرة في بناء الخطاب السردية عامة والخطاب السردية النسوية خاصة؛ ذلك أن الأحداث ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً، ودونها لا يمكن أن يتشكل البناء السردية، فالأحداث نقل وتصوير لما يحصل مع الشخصيات، داخل

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 117.

(2) المرجع نفسه، ص 127.

الخطاب السردى، وهما بذلك يُعدّان " المكونين الأساسيين للسرد، وذلك أنه ليس هناك شخصية خارج الحدث، كما أنه ليس هناك حدث بمعزل عن الشخصية" (1).
لقد تعددت الشخصيات التي أسهمت في بناء الأحداث في الخطاب النسوي، وكان بعضها ذا وجود تاريخي مثل: خويلة عجوز بني رثام، وأمتها زبراء الكاهنة، ومرضاوي بن سعدة، والفتى هذيل بن منقذ، وأبي الأسود الدؤلي، وعروة بن حزام، ودريد بن الصمة، وخليبة الخضرية، و همّام بن مرّة، و سالم بن قحطان العنبري، وكعب بن زهير، وزيد الخيل، وعتبة بن ربيعة، وابنته هند، ومروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير، وعائشة بنت أبي بكر، ولقمان بن عادي، وعمرو بن برّاقة، والخنساء: تماضر بنت عمرو السلمية، وغيرهم. وكان بعضها الآخر من الشخصيات العامة، مثل: الأب والأم، والزوجة، والوالي، والجارية، والفرسان، وبني ناعب وبني داهن، وغيرهم، وهي شخصيات تمثل أنماطاً فنية تراثية شاعت في السرديات العربية القديمة.

ولما كانت شخصيات السرد النسوي تختلف من حيث صفاتها وسلوكها وأفعالها، كما أنها تختلف من حيث أهمية حضورها في السرد أو دورها في أحداثه، فإنه يمكن تقسيم هذه الشخصيات إلى فئتين من خلال الأدوار التي تقوم بها في النص، ووفق المساحة النصية المخصصة لها في الخطاب السردى:

1- الشخصيات المركزية أو الرئيسية

يقصد بهذا النوع من الشخصيات تلك التي تقوم بدور البطولة، وهي شخصية متكاملة ومتطورة لا تلتزم الثبات، ويقدمها النص بتفصيلات دقيقة تمكن المتلقي من رسم صورة واضحة لها(2). ومن هذه الشخصيات شخصية العجوز الأعرابية في حديث طلحة الطلحات، فقد استطاعت هذه الشخصية أن تصل إلى ما تريد بذكاء

(1) انظر: بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990، ص218.

(2) انظر: فورستر، م. أركان القصة، ترجمة كمال عياد، دار الكرنيك، القاهرة، 1960، ص83؛ مرتاض، في نظرية الرواية، ص101؛ القيسي، "جماليات خطاب النسوة في أحاديث ابن دريد، حديث زبراء الكاهنة أنموذجاً"، ص1566.

ودهاء كبيرين؛ ذلك أنها كانت تترقب مرور وفد في الطريق التي كانت تقيم بالقرب منها في إحدى البوادي لتحمله كتاب استمناح للأمير طلحة الطلحات الذي كانت الوفود إليه في خراسان تسلك هذه الطريق، لترفع لهم خيمة خفية، فقد حدث " أن وفداً من أهل المدينة خرجوا إلى خراسان إلى طلحة الطلحات، فلما صاروا في بعض البوادي رفعت لهم خيمة خفية، فمضوا وقد أجنهم الليل فإذا هم بعجوز... " (1).

لقد استطاع السارد أن يرسم الملامح الخارجية لشخصية المرأة، فيشير إلى عمرها ووضعها الاجتماعي، ومكان إقامتها، ما منح الخطاب السردى ألوانه وجماله وسحره (2). فقد كانت هذه الشخصية كبيرة السن، تعيش وحيدة، ليس بقربها ولدٌ ولا أخٌ ولا بعلٌ، ولا معين لها، وهي فقيرة معوزة لا تمتلك إلا عُنيزة، وهي لا تنتظر من يزورها ولا من يخرج من عندها، إنها دلالات قوية على الوحدة الموحشة التي تعيشها هذه العجوز " فمضوا وقد أجنهم الليل فإذا هم بعجوز ليس عندها من يحلُّ لها، ولا من يرحل عنها، وإلى جنب كسر خيمتها عُنيزة " (3).

كما استطاع السارد بعدئذ الكشف عن الملامح الداخلية لشخصية العجوز وما يعتمل داخل أعماق الشخصية، فينحّي نفسه جانباً ليتيح للشخصية العجوز أن تعبر عن نفسها وتكشف عن جوهرها بأحاديثها وتصرفاتها الخاصة (4)، فقد " قالوا لها: هل من منزل فننزل؟ فقالت: إي ها الله، على الرّحّب والسّعة والماء السابغ، فنزلوا... فقالت ليقم أحدكم إلى هذه العُنيزة فليذبها. فقالوا إنن تهلكي، والله أيتها العجوز، إن عندنا من الطعام لبلاغاً، ولا حاجة بنا إلى عُنيزتك " (5).

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 72-74.

(2) انظر: نجم، محمد يوسف، فن القصة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1959، ص 98؛ آلان روب جرييه، نحو رواية جديدة، ترجمة مصطفى إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص 50.

(3) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 72.

(4) انظر: نجم، فن القصة، ص 98.

(5) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 72-73.

لقد أصرت على إكرام ضيوفها بذبح عُزيرتها الوحيدة التي تملكها، وذلك على عادة العرب آنذاك، ولعلها أرادت أن تجعل من ذلك وسيلة لبناء الثقة بينها وبينهم؛ إذ قالت لهم: " أنتم أضيافٌ وأنا المنزولُ بها، ولولا أنني امرأةٌ لذَبَحْتُها. فقام احدهم مُتَعَجِّباً منها فذبح العنز، فأخذت لهم طعاماً وقربته إليهم، فلما أصبحوا غدتهم ببقيتها، ثم قالت: أين تريدون؟ قالوا: طلحة الطلحات بخراسان. فقالت: إنن والله تأتون سيِّداً ماجداً صِهْمِيماً، غيرَ وخشٍ ولا كزومٍ هل أنتم مبلغوه كتاباً إن دَفَعْتَه إِلَيْكُمْ؟ فَضَحِكُوا، فقالوا: نفعلُ وكرامة. فدَفَعْتُ إِلَيْهم كِتَاباً على قِطْعَةٍ جرابٍ عِنْدَهَا (1)».

وعندما علمت وجهتهم دفعت بكتاب إليهم ليوصلوه إلى طلحة الطلحات (2). ولقد أثار طلبها ضحكهم وتعجب بعضهم من صنيعها، فبدت شخصية ذات قدرة كبيرة على إثارة الدهشة والاستغراب. وقد أخفت عنهم مضمون الكتاب الذي حملتهم إياه، وكشف عنه السارد على لسان العجوز بعد أن أحضروا لها ما أرسل به الأمير إليها من عطاء؛ ولعله دار في خلدنا أفكار كثيرة، منها أنها خشيت إن فهموا مرادها أن يتخلوا عن حملة، أو أن يوصلوه ثم تحدثهم أنفسهم بأن لا يوصلوا إليها ما أرسل طلحة الطلحات.

ولما قدم الوفد على طلحة جعل يسألهم عما خلفوا، وما رأوا في طريقهم، فأخبروه بقصة العجوز وصنيعها وقولتها ودفعوا إليه بكتابها، وفهم مغزاها، وقد سأله العطاء، فأراد أن يوهم الوفد وأن يبعد نظرهم عما طلبت منه، وقد استخدم الخطاب القائم على المواردية، إذ قال: "لحأها الله من عجوز، ما أحمقها، تكتب إلي من أقصى الحجاز تسألني من جبن خراسان" (3)، إنه يريد أن يوهم الضيوف أن العجوز قد طلبت علبتين من جلد مليئتين جبناً، ثم يظهر السرد تحايله وذكاءه في التعامل مع الموقف؛ إذ أمر بجبنتين عظيمتين، فأمر بنقبهما وملئهما دنانير، حتى لا يعلم الضيوف ما بداخلهما " فلما أرادوا الخروج قال: هل أنتم مبلغوها الجبن الذي

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 73.

(2) المرجع نفسه، ص 73.

(3) المرجع نفسه، ص 73.

سَأَلَتْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. وَقَدْ كَانَ أَمْرٌ بِجَنْبَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ، فَأَمَرَ بِنَقْبِهِمَا وَمَلَأَهُمَا دَنَانِيرَ، وَسَوَّى عَلَيْهِمَا، ثُمَّ قَالَ: بَلَّغُوها الْجَنْبَتَيْنِ⁽¹⁾ لَقَدْ تَمَكَّنَ السَّارِدُ مِنْ مَنْحِ هَاتَيْنِ الشَّخْصِيَّتَيْنِ بَعْضَ الْخِصَائِصِ الَّتِي تَشْعُرُ الْمُتَلَقِّي بِقُدْرَةِ الشَّخْصِيَّةِ عَلَى تَحْرِيكِ الْأَحْدَاثِ وَدَفْعِهَا إِلَى الْأَمَامِ.

وَلَمَّا قَدَّمُوا عَلَيْهَا نَزَلُوا وَقَالُوا لَهَا: " وَيَحْكُ، كَتَبْتَ إِلَى مِثْلِ طَلْحَةَ الطَّلِحَاتِ تَسْتَطْعِمِينَهُ جُبْنَ خُرَّاسَانَ؟ قَالَتْ: وَقَدْ بَعَثَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، وَأَخْرَجُوا الْجَنْبَتَيْنِ فَكَسَرْتَهُمَا فَتَنَازَرَتْ الدَّنَانِيرُ مِنْهُمَا، ثُمَّ قَالَتْ: أَمِثْلِي يَسْأَلُ طَلْحَةَ جُبْنًا؟ ثُمَّ قَالَتْ: أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ كِتَابِي إِلَيْهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَإِذَا فِي كِتَابِهَا⁽²⁾:

يَا أَيُّهَا الْمَائِحُ دَلَّوْى دُونَكَ
إِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يَحْمَدُونَكَ
يُثْنُونَ خَيْرًا وَيَمَجِّدُونَكَ

ثُمَّ قَالَتْ: أَفَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ جَوَابَهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَإِذَا جَوَابُهُ

إِنَّا مَلَأْنَاهَا تَفِيضُ فَيْضًا
فَلَنْ تَخَافِي مَا حَبِيبَتِ غَيْضًا
خُذِي لَكَ الْجُبْنَ، وَعُودِي أَيْضًا "

لَقَدْ كَشَفَتْ شَخْصِيَّةَ الْعَجُوزِ عَنْ ذِكَاةٍ وَتَطَوُّرٍ كَبِيرٍ، وَتَفَاعُلٍ مَعَ الْمَوَاقِفِ الْمُتَعَدِّدَةِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا، فَقَدْ كَشَفَتْ لَهُمْ فِي نَهَايَةِ الْحِكَايَةِ عَمَّا كَتَبَتْ لَهُ، وَمَا فَعَلَ لَهَا. وَمِنْ الشَّخْصِيَّاتِ الرَّئِيسَةِ فِي الْخُطَابِ النَّسَوِيِّ شَخْصِيَّةُ أُمِّ عَقْبَةَ بِنْتِ عَمْرٍو بْنِ الْأَبْجَرِ، فَقَدْ تَفَاعَلَتْ شَخْصِيَّةَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ/ الْبَطْلِ مَعَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا، وَتَطَوَّرَتْ عَبْرَ مَرَاكِلِ الْحَدِيثِ الْمَخْتَلِفَةِ تَطَوُّرًا مَلْحُوظًا، مِنْذُ أَنْ " حَضَرَ زَوْجَهَا غَسَانَ بْنِ جَهْضَمِ بْنِ الْعِذَافِرِ الْمَوْتِ، وَظَنَّ أَنَّهُ مَفَارِقُ الدُّنْيَا، فَتَأَقَّتْ نَفْسَهُ إِلَى مَسْأَلَتِهَا فِي ثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ عَنْ نَفْسِهَا بَعْدَ مَوْتِهِ⁽³⁾:

أَخْبِرِي بِالَّذِي تُرِيدِينَ بَعْدِي وَالَّذِي تُضْمِرِينَ يَا أُمَّ عَقْبَةَ

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 73.

(2) المرجع نفسه، ص 74.

(3) القالي، ذيل الأمالي والنوادر، ص 200-201.

تَحْفَظِينِي مِنْ بَعْدِ مَوْتِي لِمَا قَدْ كَانَ مِنِّي مِنْ حَسَنِ خُلُقٍ وَصُحْبَةٍ
 أَمْ تُرِيدِينَ ذَا جَمَالٍ وَمَالٍ وَأَنَا فِي التَّرَابِ فِي سُحْقٍ غُرْبَةٍ
 ثم كان من إجابتها إياه بيبكاء وانتحاب بأنها من أحفظ النساء وأرعاهن لما قد
 أولاهما من حسن صحبة، وهي بذلك تحمل مؤشرات الصدق والإخلاص لزوجها،
 تقول:

قَدْ سَمِعْتُ الَّذِي تَقُولُ وَمَا قَدْ يَا بِنَ عَمِّي تَخَافُ مِنْ أُمَّ عُقْبَةَ
 أَنَا مِنْ أَحْفَظِ النِّسَاءِ وَأَرَعَا ه لَمَّا قَدْ أَوْلَيْتَ مِنْ حُسْنِ صُحْبَةٍ
 سَوْفَ أَبْكِيكَ مَا حَيَّيْتُ بِنُوحٍ وَمَرَاتٍ أَقُولُهَا وَبِنُذْبَةٍ
 فلما سمع ذلك أنشأ يقول:

أَنَا وَاللَّهِ وَاثِقٌ مِنْكَ لَكِنْ احْتِيَاظًا أَخَافُ غَدَرَ النِّسَاءِ
 بَعْدَ مَوْتِ الْأَزْوَاجِ يَا خَيْرَ مَنْ عُو شِرَ فَارْعِي حَقِّي بِحُسْنِ الْوَفَاءِ
 إِنِّي قَدْ رَجَوْتُ أَنْ تَحْفَظِي الْعَهْ دَ، فَكُونِي إِنْ مَتُّ عِنْدَ الرَّجَاءِ
 ثم أخذ عليها العهود، واعتقل لسانه فلم ينطق بحرف حتى مات، فلم تمكث
 بعده إلا قليلاً حتى خطبت من كل وجه، ورجب فيها الأزواج لاجتماع الخصال
 الفاضلة فيها، فقالت مجيبة لهم:

سَأَحْفَظُ غَسَّانًا عَلَى بُعْدِ دَارِهِ وَأَرَعَاهُ حَتَّى نَلْتَقِي يَوْمَ نُحْشَرُ
 وَإِنِّي لَفِي شُغْلٍ عَنِ النَّاسِ كُلِّهِمْ فَكَفُّوا! فَمَا مِثْلِي بِمَنْ مَاتَ يَغْدُرُ
 سَابِكِي عَلَيْهِ مَا حَيَّيْتُ بِدَمْعَةٍ تَجُولُ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِنِّي وَتَحْدُرُ

إن هذا القول يشير إلى رفضها الاقتران بزواج بعد وفاة زوجها، وهو ينبئ
 عن انسجام بين سلوك المرأة الحالي، وعهدها الوثيق لزوجها قبل وفاته، ولا شك في
 أن هذا الموقف الذي جرى في مرحلة ما من المراحل التي أعقبت وفاة زوجها، قد
 أدى إلى يأس الناس منها حيناً من الدهر.

وقد شهدت شخصية المرأة بعد ذلك تحولاً عاطفياً ونفسياً واضحاً في موقفها،
 حتى نسيت زوجها وسلت عنه، يقول السَّارِدُ: " لما تطاولت الأيام والليالي تناست

عهده، ثم قالت: من مات فقد فات، فأجابت بعض خطابها فتزوجها، فلما كانت الليلة التي أراد الدخول بها فيها أتاها غسان في منامها، وقال (1):

غَدَرْتُ، وَلَمْ تَزْعِي لِبَعْلِكَ حُرْمَةً وَلَمْ تَعْرِفِي حَقًّا، وَلَمْ تَحْفَظِي عَهْدًا
وَلَمْ تَصْبِرِي حَوْلًا حِفَاطًا لِمُصَاحِبٍ حَلَفْتَ لَهُ يَوْمًا وَلَمْ تُنْجِزِي وَعْدًا
غَدَرْتُ بِهِ لَمَّا ثَوَى فِي ضَرْيِحِهِ كَذَلِكَ يُنْسَى كُلُّ مَنْ سَكَنَ اللَّحْدَا

فلما سمعت هذه الأبيات انتبهت مرتاعة كأن غسان معها في جانب البيت، وأنكر ذلك من حضر من نسائها فأنشدتهن الأبيات " .

لقد فعلت رؤية زوجها وقد زارها في طيفها معاتباً لها، في ليلة زفافها فعلها في الحالة الشعورية والنفسية، ما أدى إلى تحول ثالث في شخصيتها، قاد إلى تغيير واضح في سلوك هذه الشخصية، فتراجعت عن الزواج، وقد انتهى الأمر إلى أن أخذت النساء " بها في حديث ينسيتها ما هي فيه، فقالت لهن: والله ما بقي لي في الحياة من أرب حياءً من غسان، فَتَغَفَّلْتَهُنَّ فَأَخَذَتْ مُدِيَةً فَلَمْ يَدْرِكْنَهَا حَتَّى ذَبَحَتْ نَفْسَهَا،... فلما بلغ ذلك المتزوج بها قال: ما كان فيها مستمتع بعد غسان" (2).

لقد رسم السارد أبعاداً مختلفة لشخصية أم عقبة ووصف الأثر النفسي والجسماني الذي أصابها ما يسمح بالاقتراب من تفاعلات الشخصية وتحولاتها الداخلية والنفسية. ويمكن إدراك أبعاد الشخصية نتيجة لتفاعلها مع الحدث، ما يؤدي إلى تحولات ملموسة عن الصورة التي قدمت عليها شخصية البطل في بداية الحديث.

وقد أدى هذا الموقف إلى تنامي أحداث السرد وصراعها، الناجم عما شهدته شخصية أم عقبة من تحولات ذاتية على مستوى علاقاتها بالآخرين: زوجها السابق، والمتزوج بها بعده، وجماعة النساء، وعلاقتها بذاتها، خاصة وأن هذه الرواية تتميز بمحدودية شخصياتها؛ إذ لا تتجاوز الشخصيات الثلاث التي أشير إليها.

ومن الشخصيات الرئيسة التي يكشف عنها الخطاب النسوي شخصية الفتاة ابنة النضر بن عمرو الحارثي الذي كان من المخضرمين، وكان جني قد ذهب بها فترة

(1) القالي، ذيل الأمالي والنوادر، ص 201-202.

(2) المرجع نفسه، ص 202.

طويلة من الزمن، إذ يقول والدها: " إنا كنا في الجاهلية إلى جانبنا غدير بعد أن أرسلها أبوها بصحفة⁽¹⁾ لتأتيهم بماء من غدير إلى جانبهم، فأبطأت عليهم فطلبوها فأعوزتهم، فمكثوا زمناً لا يدرون ما لها "⁽²⁾.

ويكشف السرد عن أن شخصية هذه الفتاة قد شهدت تحولات كثيرة بعد فترة غيابها عن أهلها، شملت ملامحها الجسدية ولا شك في أنه كان لهذا التغير أثر كبير على حالتها النفسية، وإلى ذلك يشير والدها بقوله: " فإني لجالس إلى جنب مُطَنَّبِي⁽³⁾ عند جنح الليل؛ إذ بشبح قد طلع، فنظرت فقلت ابنتي والله ! فقالت: إي والله يا أبتيه، فقلت أي بنيه أين كنت ؟ قالت رأيت ليلة بعثتني بالصفحة إلى الغدير أتيك بماء، فإنّ جنياً ذهب بي، فلم أزل عنده حتى نشبت بينه وبين حي من الجن حرب فأعطى الله عهداً لئن ظفر بهم ليردني إلى أهلي، فإذا هي قد ذهب لحمها وشحمها، وتمغّر⁽⁴⁾ شعرها، فأقامت عندنا حتى صلحت "⁽⁵⁾.

ويشير السارد إلى أنها قد تزوجت من بعض بني عمّها، " فأقامت عنده، فغضب عليها ذات يوم، وقال: ما أنت إلا شيطانة، وما أنت بأنسية "⁽⁶⁾. لقد أحسّ ابن عمها أنه قد طرأ تحول على سلوك هذه المرأة وتصرفاتها ونفسياتها، ما جعلها أقرب إلى التصرفات المنسوبة إلى الجن، منها إلى تصرفات بني البشر.

2- الشخصيات الثانوية أو المسطحة

يقصد بهذا النوع من الشخصيات تلك الشخصيات البسيطة التي تبقى على وتيرة واحدة لا تتغير ولا تتبدل في عواطفها ومواقفها وأطوار حياتها بعامّة، وهي

(1) الصَّحْفَةُ: كَالْقَصْعَةِ، شَبِيهَ قَصْعَةِ مُسَلَّنَطِحَةٍ عَرِيضَةٍ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، صفح.

(2) انظر: ابن دريد، من أخبار أبي بكر بن دريد، ص 166.

(3) يقال خِيَاءٌ مُطَنَّبٌ، وَرَوَاقٌ مُطَنَّبٌ؛ أَي مَشْدُودٌ بِحَبْلِ. وَالطَّنْبُ: حَبْلُ الْخِيَاءِ وَالسَّرَادِقِ وَنَحْوَهُمَا. انظر: ابن منظور، لسان العرب، طنّب.

(4) تمغّر شعرها: احمرّ لونه. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مغر.

(5) انظر: ابن دريد، من أخبار أبي بكر بن دريد، ص 166.

(6) انظر: المرجع نفسه، ص 166.

تؤدي أدواراً ثانوية، ثم تختفي عن مسرح الأحداث⁽¹⁾، وعلى الرغم من ذلك فإنها لازمة لتكوين المشهد السردى دون أن يكون لملاحظها الخاصة أهمية كبيرة⁽²⁾، إن هذه الشخصيات الثانوية لها أهمية في الإضاءة على الشخصيات الرئيسية، وليس من الضروري أن يكون لها اسم أو تفاصيل إلا بمقدار ما يخدم النص، كما أنها تفيد في عمليات الاسترجاع أو الاستباق وغير ذلك من التقنيات الفنية.

ومن هذه الشخصيات في حديث زبراء الكاهنة الأربعة رجلاً، والثلاثون رجلاً من بني رثام، وبنو راغب، وبنو داهن " فانصرف منهم أربعون رجلاً وبقي ثلاثون فرقدوا في مشربهم، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعب فقتلهم أجمعين، وأقبلت خويلة مع الصباح فوقفت على مصارعهم، ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها، وانتظمت منها قِلادةً وألقته في عنقها." ⁽³⁾، إن ذكر هذه الشخصيات لم يرتبط بذكر أسمائها، ولكن الراوي قد أبرز بعض صفاتها أثناء هذا الحديث، حتى يبرز صدق خويلة الشخصية الرئيسية.

كما تظهر الشخصيات الثانوية في حديث لقمان بن عاديا، وهي تتمثل في إخوة الفتى الذي عشق زوجة لقمان، " فأتى بني أبيه فقال: والله لأجنين عليكم حرباً لا تقومون بها، قالوا وما ذلك؟ قال: امرأة لقمان هي أحبُّ الناس إليّ، قالوا فكيف نحتال لها؟ قال اجمعوا سيوفاً ثم اجعلوني بينها، وشدوها حزمة عظيمة، ثم اتتوا لقمان فقولوا: إنا أردنا أن نسافر ونحن نستودعك سيوفنا هذه حتى نرجع، وسموا له يوماً. ففعلوا، وأقبلوا بالسيوف فدفعوها إلى لقمان"⁽⁴⁾. لقد ساعد هؤلاء الأخوة الشخصية الرئيسية للوصول إلى حبيبته، ولم يسم الراوي هذه الشخصيات، ولم يصفها ذلك أنها شخصيات مسطحة وغير متطورة، ولكنها ذات فاعلية في الإسهام في بناء الحدث وتطوره من جهة، وفي إضاءة دور الشخصية الرئيسية وتطورها من جهة أخرى،

(1) انظر: مرتاض، في نظرية الرواية، ص 101.

(2) انظر: بكر، أيمن، السرد في مقامات الهمذاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص

(3) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 127.

(4) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 107.

وكذلك شخصية صُحر بنت لقمان فهي شخصية ثانوية، ظهرت في مسرح الأحداث فجأة، ولم تقم بأي دور، سوى أنها قالت: " يا أبتاه ما شأنك؟ فقال: " وأنت أيضاً من النساء"، فضرب رأسها بصخرة فقتلها"⁽¹⁾، وهو فعل يؤكد موقف لقمان الشخصية الرئيسية من المرأة بصورة عامة، وهو موقف سلبي قائم على الشك.

ومن الشخصيات الثانوية التي وردت في الخطاب النسوي ما جاء في حديث الزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية مع معاوية بن أبي سفيان، وتتمثل هذه الشخصيات في عمرو بن العاص، وعتبة بن أبي سفيان، ومروان بن الحكم، وسعيد ابن العاص " عن الزبير، وعن جماعة، من بني أمية ممن كان يسير مع معاوية، قالوا: بينا معاوية ليلة يَسْمُرُ، ومعه عمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص/ وعتبة بن أبي سفيان، إذ ذكروا الزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية فقال لهم معاوية: أيكم يحفظ كلامها؟ فقالوا جميعاً: نحن نحفظ كلامها. قال: فأشيروا علي في أمرها. قالوا: نُشِيرُ بِقَتْلِهَا."⁽²⁾. لقد بدا دور هذه الشخصيات دوراً ثانوياً؛ إذ لا تمتلك حضوراً فاعلاً ولا تشغل مساحات واسعة في بنية الحديث، فهي لم تظهر إلا في مشهد واحد فقط، ثم اختفت عن مسرح الأحداث.

ومن الشخصيات الثانوية شخصية الأب في حديث الفتاة التي اختطفها الجن، فقد ظهرت هذه الشخصية في المشهد الأول في الحديث، من خلال الحوار الذي دار بينه وبين ابنته في بداية الحديث: " والله إنني لفي الجاهلية مطنب وإلى جانبنا غدير إذ أرسلت ابنتي بصحفة إلى الغدير لتأتينا بماء فأبطأت علينا فطلبناها فأعوزتنا فغبرنا دهرنا لا ندري مالها"⁽³⁾، ثم اختفت هذه الشخصية عن مسرح الأحداث وعادت إلى الظهور مرة أخرى " فإني لجالس إلى جنب مطنبي عند جنح الليل إذا بشبح قد طلع فنظرت فقلت ابنتي والله!"⁽⁴⁾.

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 108.

(2) المرجع نفسه، ص 201.

(3) المرجع نفسه، ص 166.

(4) المرجع نفسه، ص 166.

وقد ظهرت بعض الشخصيات التي قامت بأدوار ثانوية أيضاً منها عامل معاوية الذي وضع المراصد على الزرقاء بنت عدي الهمدانية مع نفر من قومها، كان معاوية قد سماهم له، ولما ظفر بها وبهم حملهم إلى معاوية، وأوسع عليهم في النفقة. أخذها العامل مع من سمى له، فحملها في هودجٍ وحمل قومها على خيلٍ، وأوسع عليهم في النفقة حتى قدموا على معاوية⁽¹⁾.

3.3 بنية الزمن الفني ودلالته

لقد أشارت الباحثة إلى أن الخطاب السردى النسوي كان قد أفاد من الوقائع التي حدثت مع الشخصيات المختلفة واستوحاها لينشئ عملاً سردياً ذا طابع تخييلي ومقدم بطريقة فنية، أو خبرية؛ أي أن السارد استطاع أن يوظف عنصر الزمن التاريخي الخارجي في تشكيل الأحاديث، وأن يقف على فترات زمنية مختلفة تمتد من الزمن الماضي البعيد في جنوب الجزيرة العربية إلى مطلع العصر العباسي؛ أي في حدود منتصف القرن الثاني الهجري⁽²⁾.

لقد استطاع السارد أن يعالج الأحداث التاريخية معالجة فنية، في إطار زمن متخيل للنص، يعتمد على السرد الاسترجاعي؛ ذلك أن عملية السرد بدأت بعد انتهاء أحداث الأحاديث بسنين بعيدة جداً⁽³⁾، وستحاول الباحثة كشف ملامح الزمن الفني الزمني الذي تقوم عليه نصوص الخطاب السردى، وذلك من خلال بعدي النظام الزمني والديمومة؛ أي من خلال التمييز بين المتن الذي يقوم على عرض الأحداث وفق تتابعها الطبيعي، والمبنى الحكائي الذي يقوم على عرض الأحداث وتقديمها للقارئ تبعاً للنظام الزمني الذي ظهرت به في العمل المبدع⁽¹⁾، ومن هنا فإن الباحثة

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 201-203.

(2) انظر: الامتداد الزمني والمكاني من هذه الدراسة.

(3) تقوم الأشكال السردية المختلفة على مبدأ عام قوامه التباعد بين زمن حدوث القصة وزمن سردها؛ فالقصة لكي تُروى، لا بد أن تكون قد تمت في زمن ما، غير الزمن الحاضر؛ ذلك أنه من المتعذر حكي قصة لم تكتمل بعد. انظر: بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 121.

(1) انظر: بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 107.

تلحظ أنّ الترتيب الواقعي للأحداث لا يتوازي تماماً مع توالي عرضها داخل البناء السردّي الذي قدمت فيه، في أحاديث ابن دريد؛ ذلك حالة عدم توازن بين زمن عرض الأحداث عبر السردّ وزمن وقوعها؛ أي أن عملية الكتابة أو السردّ لم تراعى النظام الزمّني نفسه للأحداث كما يتصور أنها وقعت (1).

ويمكن رصد الإيقاع الزمّني في السردّ النسوي من خلال أربع تقنيات فنية، هي: التسريع السردّي، والتبطيء السردّي، والاسترجاع، والاستباق (2):

1.3.3 التسريع السردّي

أ- الحذف: ويقصد به المرور على فترة زمنية ممتدة أو قصيرة دون سرد ما وقع فيها من أحداث أو التعرض لذكرها، ويطلق عليه أيضاً الثغرة أو الإسقاط أو الإضمار أو القطع (3). وترد شواهد متعددة لتقنية الحذف في عدد من نصوص الخطاب السردّي النسوي، وهو يأتي على شكلين: أولهما الحذف الضمني حيث لا يصرّح به السارد، وإنما يستدل عليه القارئ من خلال ثغرة في التسلسل

(1) القيسي، "جماليات خطاب النسوة في أحاديث ابن دريد، حديث زبراء الكاهنة أنموذجاً"، ص 1569.

(2) لمزيد من التفصيل حول هذه القضية، انظر: بكر، السردّ في مقامات الهمذاني، ص 96-97؛ الشوابكة، السردّ المؤطر، ص 86-87؛ لحمداني، بنية النصّ السردّي، ص 75-76؛ المرزوقي، سمير، وشاكر، جميل، مدخل إلى نظرية القصة تحليلاً وتطبيقاً، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، 1986، ص 85؛ صبرة، أحمد، "جوانب من شعرية الرواية: دراسة تطبيقية على رواية "الحب في المنفى" لبهاء طاهر"، في فصول، العدد 4، المجلد 15، شتاء 1997، ص 42-64، ص 60-61.

(3) انظر: فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992، ص 304؛ السماوي، أحمد، فن السردّ في قصص طه حسين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس، 2002، ص 140؛ لحمداني، بنية النصّ السردّي، ص 77؛ المرزوقي، مدخل إلى نظرية القصة، ص 89؛ بكر، السردّ في مقامات الهمذاني، ص 97-98.

الزمني، وثانيهما الحذف الصريح أو المعلن أو المحدد، حيث يُشار إلى الفترة الزمنية المحذوفة بالسنوات أو الأيام أو الشهور⁽¹⁾.

ومن الأمثلة على الحذف الضمني ما جاء في حديث سوداء بنت زهرة بن كلاب، فقد سكت الراوي عن الفترة الزمنية الممتدة بين ولادتها وزواجها؛ إذ يقول: " فلما كبرت زوجها عمرو بن كعب بن سعد بن تيم"⁽²⁾، وهذا الحذف ضمني حيث حذفت السنوات المعيشة⁽³⁾، ولم يذكر الراوي تفاصيل حياة سوداء بنت زهرة، منذ طفولتها إلى أن تزوجت، على الرغم من أنه أورد دلالات على وصولها سن الزواج والإنجاب، ويظهر الحذف الضمني في عبارة " فانتشرت رحمها في الناس، فلما حضرتها الوفاة"⁽⁴⁾، إذ إن الراوي هنا لم يذكر أحداث الفترة الزمنية التي استغرقت مدة طويلة لانتشار أبناء وبنات هذه المرأة، كما أنه لم يعلمنا بالفترة الزمنية التي كانت بين انتشار الأبناء ووفاتها، ويبدو أن اهتمام الراوي لم يكن منصباً على أحداث هذه الفترة؛ لأنه كان مشغولاً بحديث أكبر أهمية وهو تنبؤ المرأة لما سيكون عليه حال إحدى حفيداتها، إذ قالت: " أعرضوا عليّ بناتي فإن فينا نذيراً أو من تلد نذيراً... ثم عرضت عليها آمنة بنت وهب، فقالت واللات والعزى إنها لنذير أو تلد نذيراً، فولدت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"⁽⁵⁾.

ويظهر الحذف الضمني أيضاً في حديث ابنة النضر بن عمرو الحارثي التي ذهب بها جني، فلم يُظهر الراوي المدة الزمنية التي كانت بين اختفائها وظهورها، " والله إنني لفي الجاهلية مطنب وإلى جانبنا غدِير إذ أرسلت ابنتي بصحفة إلى الغدير لتأتينا بماء فأبطأت علينا فطلبناها فأعوزتنا فغبرنا دهرنا لا ندري مالها، فإني لجالس

(1) الشوابكة، السرد المؤطر، ص 90.

(2) ابن دريد، من أخبار أبي بكر ابن دريد، ص 167.

(3) الشوابكة، السرد المؤطر، ص 90.

(4) ابن دريد، من أخبار أبي بكر ابن دريد، ص 167.

(5) المرجع نفسه، ص 167.

إلى جنب مطنبي عند جنح الليل إذا بشبح قد طلع فنظرت فقلت ابنتي والله!" (1). فقد أسقط الراوي الأحداث التي شهدتها الفترة الزمنية الممتدة من اختفاء الفتاة إلى ظهورها، ولعل ذلك يعود لاهتمام الراوي بالأثر الذي تركته هذه الفترة على الفتاة وليس بالفترة نفسها. كما عمد السارد إلى حذف الفترة الزمنية التي أقامتها الفتاة عند أهلها قبل أن تتزوج، وهو حذف ضمني ذلك أنها فترة غير محددة ومعلنة، وربما حذفها لأنها ليست ذات أهمية في صنع الحدث " فأقامت عندنا حتى صلحت فجاءها خاطب" (2).

وعمد سارد حديث نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبى إلى الحذف الضمني، حيث حذف الفترة الزمنية التي قطعت فيها أرض السماوة إلى أن وصلت عثمان بن عفان؛ ذلك أنه لم يكن لها أهمية في أحداث السرد، وقد استمر الراوي بسرد القصة بعد الأبيات التي قالتها نائلة والتي عبرت فيها عن حنينها لموطن أهلها، فقد قال " فلما قطعت أرض السماوة حنت فقالت:.....، فلما دخلت على عثمان، قال لها:....." (3)، فلم يذكر السارد عدد الأيام التي قضتها نائلة وأخوها في الطريق، وماذا حدث معهما، ثم كيف دخلا المدينة، وكيف تركها أخوها وعاد إلى أهله، وكيف وصلت منزل عثمان، ذلك أن هذه الفترة ومجرياتها لا تشكل أهمية عند السارد وما هو مهم عنده هو وفاء نائلة لزوجها، كما أن فترة العدة هي فترة محذوفة لم يذكر لنا الراوي ما صنعت فيها نائلة وكيف كانت، " فلما فرغت عدتها خطبها معاوية فأبت فألح عليها" (4).

(1) ابن دريد، من أخبار أبي بكر ابن دريد، ص 166.

(2) المرجع نفسه، ص 166.

(3) المرجع نفسه، ص 161.

(4) المرجع نفسه، ص 162.

ومن الأمثلة على الحذف المعلن الذي يشير إلى الفترة الزمنية المحذوفة⁽¹⁾، ما جاء في الحديث عن احتجاب بنت أحد أقبال اليمن فترة محددة من الزمن " فاحتجبت عنهنّ سبعةً ثم دَعَتْهُنَّ"⁽²⁾، لقد تم تحديد الفترة الزمنية وهي " سبعة أيام "، و يظهر الحذف المعلن في موقع آخر في نفس الحديث، وذلك بعد زواجهما " فتزوجته، فاحتجبت عن نساءها شهراً ثم بَرَزَتْ لهن"⁽³⁾، إننا نلاحظ في جملة " فتزوجته " حذفاً كبيراً يجمع أحداثاً كثيرة وتُعد مهمة للنص السردى ذلك أن الراوي لم يذكر للمتلقى ماذا دار في ذهنها بشأن الزواج والزوج، وكيف تمت مراسم الزواج من خطبة ومهر وما رافقهما من أمور تتعلق بالزواج، كما أن الحذف قد تكرر في عبارة احتجابها شهراً، ولم يذكر الراوي هنا ما حدث في هذا الشهر، وكيف كان تعامل الزوج مع بنت الملك، وكيف بَنَتْ بِنْتُ الملك حكمها على الزوج، ولكن النتيجة أن أجزلت لهن العطاء، ذلك أن الهدف أن " يعرف القارئ المدة ولكنه لا يحظى بمعلومات عن أية وقائع أو أحداث عن تلك المدة، ولعل ذلك يعود إلى أن هدف السرد هو السعي لكشف النهايات."⁽⁴⁾.

ويظهر الحذف المعلن أيضاً في حديث مسلم بن يسار عندما قدم على امرأة في البحرين وعند خروجه طلبت إليه أن ينزل عليها عند عودته إلى هذا البلد " قالت حاجبتنا إن قدمت هذا البلد أن تنزل علينا، فغبرت نحواً من عشرين سنة، ثم قدمت فأتيت بابها فإذا هو موحشٌ، فاستأذنتُ عليها، فسمعت ضحكها، فأذنت لي، وعندها إنسانة، فلما دخلتُ قالت: أراك تعجب ما ترى، فقلت: أجل، قد رأيتُ بابك فإنه لأهل، قالت: فإنك لما خرجت/ من عندنا جعلنا لا نرسلُ في برٍّ إلا عَطِب، ولا بحرٍ

(1) الشوابكة، السرد المؤطر، ص 90؛ ستار، ناهضة، بنية السرد في القصص الصوفي، المكونات والوظائف، والتقنيات، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص 216.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 81.

(3) المرجع نفسه، ج1، ص 81.

(4) الشوابكة، السرد المؤطر، ص90.

إلّا غرق، ومات بنّي ورّيفي. قلت فالكآبة يومئذٍ، والسرور اليوم؟⁽¹⁾، ويبدو أن السارد قد أشار إلى المدة الزمنية التي غاب فيها الرجل عن البلدة وهي: عشرون سنة، ولكنه حذف ما جرى في هذه الفترة، لتركيزه على إظهار الفرق بين حالها عند زيارة مسلم بن يسار الأولى لها، وزيارته الثانية لها بعد عشرين سنة.

ب- الخلاصة أو التلخيص: ويقصد بها التسريع السردّي في الخطاب المروي، وهو سرد أيام عديدة أو شهور أو سنوات من حياة الشخصية دونما تفصيل للأحداث والأقوال، وذلك في بضعة أسطر أو فقرات قليلة وهو يقوم على تقنية الاختزال أو الإجمال؛ أي المقطع السردّي الذي يمتدّ على فضاء نصّي قصير، ولكنه يهم مرحلة زمنية طويلة⁽²⁾.

ويتضمن حديث زبراء الكاهنة عدداً من نماذج الخلاصة التي يستغني فيها الرّأوي بالملفوظ الوجيز عن كثير من السرد، وهو يلجأ إلى استعمال مفردات أو عبارات محددة توحى للمتلقّي بورود هذا الملخص. ومن الأمثلة التي يختصر فيها الرّأوي فترة زمنية طويلة بما وقع فيها من أحداث قوله في الحديث عن خروج خويلة من مندى ثلاثين من أبناء قبيلتها كانوا قد سقطوا صرعى على أيدي المتظَاهرين عليهم من ناعب وداهن: " حتى لَحِقَتْ بمرضاوي بن سَعْوَة المَهْرِي، وهو ابن أختها، فأناخت بفائه وأنشأت تقول:

يَا خَيْرَ مُعْتَمِدٍ وَأَمْنَعِ مَلْجِإٍ
وَأَعَزَّ مُنْتَقِمٍ وَأَدْرَكَ طَالِبِ
جاءتك وافدة التكالّي تغتلي
بسوادها فوقَ الفضاء الناضبِ

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 117.

(2) انظر: لحمداني، بنية النص السردّي، ص76؛ فضل، بلاغة الخطاب، ص304؛ المرزوقي، مدخل إلى نظرية القصة، ص85-86؛ القاسم، سيزا، بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1990، ص77؛ صبرة، " جوانب من شعرية الرواية: دراسة تطبيقية على رواية "الحب في المنفى" لبهاء طاهر"، ص61-62؛ بكر، السرد في مقامات الهمذاني، ص98-100.

فقال: حَجْرٌ عَلَى مَرَضَاوِي الْأَعْدْبَانِ وَالْأَحْمَرَانِ، أَوْ يَقْتُلَ بَعْدَ رَنَامٍ مِنْ دَاهِنٍ وَنَاعِبٍ"⁽¹⁾. لقد اختصر السَّارِدُ الفترة الممتدة ما بين لحظة خروج خويلة من منتدى قومها إلى لحظة استجابة مَرَضَاوِي لنداء الثَّارِ، ويبدو أنه أراد التسريع من أجل الوصول إلى فناء مَرَضَاوِي الذي كان غاية خويلة. ويظهر أنه لم ير في ذكر التفاصيل أهمية كبيرة في إضاءة النص بعد أن حقق الغاية منه؛ أي أن التلخيص هنا يتلاءم إلى حدٍ كبيرٍ مع طبيعة الموضوع الذي تبناه الحديث وهو أخذ الثَّارِ⁽²⁾. ويظهر التلخيص في قصة أبي الأسود الدؤلي وزوجته، فقد اختصر فيها السَّارِدُ في مواطن كثيرة، فهذه المرأة تقول: "أصلحَ اللهُ الأميرَ، هذا ابني كان بطني وعاءه، وحجري فناءه، وتذيي سقائه؛ أكلوه إذا نام، وأحفظه إذا قام؛ فلم أزلُ بذلك سبعة أعوامٍ حتى إذا استوفى فصالته، وكملتُ خصاله، واستوكتُ أوصاله؛ وأمّلتُ نفعه؛ ورجوتُ دفعه؛ أرادَ أن يأخذني مني كرهاً، فأدبني أيها الأميرُ، فقد رامَ قهري، وأرادَ قسري"⁽³⁾.

لقد لخصَّ السَّارِدُ على لسان الأم فترة زمنية طويلة تمتدُّ من فترة حمل المرأة بابنها، ثم وضعه فإرضاعه، ثم فترة اعتنائها به في حالة النوم والاستيقاظ، إلى أن كَبُرَ متأملة النفع منه، لقد لخص أحداث سبعة أعوام في ثلاثة أسطر، وقد أشار الراوي في عباراته المختصرة إلى أحداث في السياق لتوضيح الحالة النفسية التي كانت عليها المرأة، ويظهر أن الراوي قد لجأ إلى التلخيص تعبيراً عن معاناة الأم في رحلة الإنجاب و التربية، التي امتدت بين مراحل تكوين وولادة وتربية ابنها إلى أن شدَّ أزره، إن هذا التلخيص قد أحدث أثره في نفس الأمير وأوجع فيه، ولعل هدف الراوي هنا من التسريع هو من أجل الوصول إلى حكم الأمير الذي كان هو غاية الأم ومنتهى رجائها.

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص127.

(2) انظر: القيسي، "جماليات خطاب النسوة في أحاديث ابن دريد" حديث زبراء الكاهنة أنموذجاً، ص 1574-1575.

(3) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص12.

ويظهر التلخيص أيضاً في حديث لقمان بن عاديا وخيانة النساء له، إذ إن السارد لخص فترات زواج لقمان من أكثر من امرأة، وكانت آخر النساء الجارية الصغيرة التي لم تعرف الرجال قبله، "حتى تزوج جارية صغيرة لم تعرف الرجال"⁽¹⁾، فلم يذكر لنا الراوي تفاصيل حياة الجارية حتى يعرف القارئ كيف خلت من معرفة الرجال، كما لخص قصة الحب التي نشأت بين الفتى والجارية، ثم فترة الإقامة عندها دون علم زوجها "وتحرك الرجل، فحلت الجارية عنه. فكان يأتيها، فإذا أحست بلقمان جعلته بين السيف، حتى انقضت الأيام، ثم جاءوا إلى لقمان فاسترجعوا سيوفهم، فرفع لقمان رأسه، فإذا نخامة تتوس في سقف البيت، فقال لأمرأته: من نخم هذه؟ قالت: أنا، قال: فنتخمي، ففعلت، فلم تصنع شيئاً. فقال: ياويلتاه، السيوف دهنتي، ثم رمى بها من ذروة الجبل، فتقطعت قطعاً"⁽²⁾

إن هذا التلخيص يشير إلى أن الراوي يريد أن يسرع باكتشاف الزوج خيانة زوجه، والنتيجة التي آل إليها، إننا نجد هنا أن المحتوى قد هيمن على الراوي أكثر من الشكل الفني، فضحى بعدد من الأحداث والوقائع (خيانة الزوجات وكيفية خلاص لقمان منهن) في سبيل إبراز الفكرة الرئيسية، وهي أن لقمان رغم حرصه وحذره ومحاولة إبعاد زوجه عن العالم الخارجي فإنه كان مبتلى بالنساء.

كما نجد التلخيص في حديث خروج عبد الملك بن مروان بنفسه لقتال مصعب ابن الزبير، "وحدثنا أبو بكر قال أخبرنا أبو عثمان قال أخبرني العُتبي عن أبيه: أن عبد الملك بن مروان - رحمه الله - كان يُوجّه إلى مصعب جيشاً بعد جيش فيُهزَمون، فلما طال ذلك عليه واشتدَّ غمُّه أمرَّ الناسَ فعسكروا ودعا بسلاحه فلبسه"⁽³⁾، فلم يذكر الراوي عدد مرات الحملات التي وجه فيها عبد الملك بن مروان الجيوش إلى مصعب، ومجريات المعارك التي دارت بينهم، ولم يحدد أماكن انطلاق تلك الحملات، ومسارها، والأرض التي شهدت القتال بينهم، إن الباحثة تجد هنا "أن الزمن أطول بكثير من المساحة النصية، والملخص سرد بانورامي يناهض نفسه عن

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 107.

(2) المرجع نفسه، ص 107.

(3) القالي، كتاب الأمالي، ج 1، ص 13.

الوقوفات الطويلة عند الأشياء والأماكن والنفوس ويكتفي بالإشارات أو الأحاديث المختصرة" (1)

ولعل السارد أدرك أن الحديث المفصل عن المعارك والجيوش والنتائج والأعداد لكلا الجيشين والانتهاه إلى الهزائم قد لا يضيف جديداً إلى أبعاد شخصية عبدالملك بن مروان أو زوجته، فضلاً عن أنه يشكل عبئاً ثقيلاً وحشواً يفضي إلى الإملال الذي لا يعمل على نمو الحبكة أو تطورها (2).

2.3.3 التبطيء السردى

أ- الوقفة أو الاستراحة، وفيها يلجأ السارد إلى قطع تسلسل الأحداث في الحكاية والسرد، بحيث يتوقف الزمن أو يعلّق، وهو أمر يحصل بسبب المرور من سرد الأحداث إلى الوصف الذي ينتج عنه مقطع من النص القصصي تقابله ديمومة صفر على نطاق الحكاية (3). وتشكّل المقاطع الوصفية عنصراً مهماً وركناً أساسياً في تشكيل الخطاب السردى، وترتبط بالوحدات السردية ارتباطاً وثيقاً، فإذا كان السرد للأفعال، فإن الوصف للأحوال، ويعدّ " الوصف أهم من السرد، لأنه من الأيسر أن نعثر على الوصف من دون السرد، من أن نعثر على السرد من دون الوصف، ربّما لأن بوسع الأشياء أن توجد من دون أن تتحرك، أمّا العكس فغير ممكن؛ أي وجود الحركة بغياب الأشياء" (4).

لقد شاعت ظاهرة تعطيل السرد في كثير من نصوص الخطاب السردى، من خلال تقنية الوقفة التي لجأ إليها السارد، ومن ذلك ما جاء في حديث المرأة البديوية التي سكنت الصحراء عندما وصفت ما تشعر به في سكنها بجانب قبور أهلها فقالت مخاطبة الأصمعي: " يا ابن أخي، إنني لأنس بالوحشة، وأستريح إلى الوحدة،

(1) الشوابكة، السرد المؤطر، ص 88.

(2) انظر: المرجع نفسه، ص 89.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص 97.

(4) جنيت، جيران، السرد والوصف، ترجمة فهد يونس، مجلة الثقافة الأجنبية، وزارة الثقافة والإعلام، العدد 2، السنة 12، 1992، ص 152.

ويطمئن قلبي إلى هذا الوادي الموحش⁽¹⁾، لقد جاءت هذه الوقفة لتعطل السرد، وتقف عند الآثار النفسية التي تركها غياب الأهل والأقارب، فهذه المرأة ترى الأناث والراحة والاطمئنان بالعيش وحيدة في هذه الصحراء، وعند هذه القبور؛ " ذلك أن الرأوي لا يسعى وراء الوقائع والأحداث، بل يلجأ إلى تحليل النفوس من خلال الوصف الذاتي الذي يتمثل في وقفة تأمل لدى شخصية أو شيء فيبين لنا مشاعرها وانطباعاتها أمام مشهد ما⁽²⁾."

وعلى الرغم أن الوقفة في وصف حال ابنة النضر بن عمرو الحارثي عندما أعادها الجني جاءت قصيرة فقد عطلت السرد، إذ يقول السارد على لسان والدها " فإذا هي قد ذهب لحمها وشحمها و تمغَّر شعرها⁽³⁾."

ومن الأمثلة على الوقفة أيضاً ما جاء في حديث مصاد بن مذعور حيث قال: " وإني لفي طلبها إذ هبَّت واديا شجيراً كثيف الظلال وقد تفسَّختُ أيناً، فأنحَت راحلتي في ظل شجرة وحطَّطتُ رحلي ورسَّعتُ بعيري واضطجعتُ في بُردي⁽⁴⁾." وتبرز أهمية هذه الوقفة الوصفية في أنها تقدم وصفاً موجزاً للمكان بأشجاره وموضع نوم مصاد ابن مذعور ومكان رحله، ومناخ راحلته، حتى لتبدو محاولة من السارد لاصطحاب القارئ لمعاينة ما عاين لخلق حالة مشتركة من التفاعل بينهما⁽⁵⁾.

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص6.

(2) القيسي، "جماليات خطاب النسوة في أحاديث ابن دريد: حديث زبراء الكاهنة أنموذجاً"، ص1576؛ خالد، عدنان عبد الله، النقد التطبيقي التحليلي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص111، الشوابكة، السرد المؤطر، ص162.

(3) ابن دريد، من أخبار أبي بكر ابن دريد، ص166.

(4) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص142، 143.

(5) انظر: ستار، بنية السرد في القصص الصوفي، ص220.

وتظهر الوقفة في وصف كعب بن زهير وزيد الخيل " وكان كعب جسيماً، وكان زيد الخيل من أعظم الناس وأجسمهم، وكان لا يركب دابة إلا أصابت إبهامه الأرض." (1).

ب- المشهد: يعرف المشهد بأنه الخطاب الذي يتساوى - نسبياً - في حجم النص مع زمن المتن أو الحكاية، وتتمثل أهمية المشهد في بناء النص في أنه يقوم على التركيز على تفاصيل الأحداث مع تواليها ما يجعله من أكثر التقنيات الفنية استعداداً لإثارة الاهتمام والتساؤل (2). ويأتي المشهد على شكلين: أولهما سرد تتوالى فيه الأفعال، بحيث يشعر القارئ بتطور الحدث وتناميته وبأن النص قد غطى فترة زمنية مناسبة، وثانيهما حوار يساوي ما يستغرقه من زمن في القراءة أو يعادل الديمومة التي تستغرقها قراءته في النص (3).

ويحفل حديث زبراء الكاهنة بنماذج مختلفة من هذه التقنية الفنية بشكايها، ومن المشاهد التي تقوم على رصد التفاصيل الدقيقة للأحداث قول الراوي: " فقالت (زبراء الكاهنة) لخويّلة: انطلي بنا إلى قومك أنذرهم، فأقبلت خويّلة تتوكأ على زبراء، فلما أبصرها القوم قاموا إجلالاً لها، فقالت:..." (4).

ويلاحظ المدقق في هذا المشهد التوالي في السرد من حيث الاعتماد على الأفعال: فقالت: فأقبلت، فلما أبصرها، قاموا إجلالاً...، فقالت: وغيرها، وهي توحى بالمزج بين الحركتين المادية والنفسية من جهة، وبين أبعاد المكان ووصف المشاعر من جهة أخرى.

(1) ابن دريد، ذيل الأمالي والنوادر، ص 23، 24.

(2) انظر: المواقف، ناصر عبدالرازق، القصة العربية: عصر الإبداع، ط1، الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، 1992، ص208؛ بكر، السرد في مقامات الهمذاني، ص100-102؛ الشوابكة، السرد المؤطر، ص92؛ لحداني، بنية النص السردى، ص78؛ المرزوقي، مدخل إلى نظرية القصة، ص89.

(3) انظر: الشوابكة، السرد المؤطر، ص93-94.

(4) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص126-127.

ويرد المشهد الذي يعتمد على توالي الأفعال في حديث سوداء بنت زهرة بن كلاب " قالت: اعرضوا عليّ ولدي وقد كانت تكهنت، فعرض عليها عبد الله بن جدعان، فقالت: هذا سيد البطحاء غير أن الخمر تغلب عليه، ثم عرض عليها هشام ابن المغيرة، فقالت: شريف فارس مطاع عابس، ثم عرض عليها.....، ثم عرض عليها.....، ثم قالت: اعرضوا عليّ بناتي فإن فينا نذيراً أو من تلد نذيراً، فعرضت عليها الشفاء بنت عوف أم عبد الرحمن بن عوف، فقالت: ليست بها، ثم عرضت عليها هالة بنت وهيب، فقالت ليست بها وستلد، ثم عرضت عليها نَعَم بنت الحارث ابن زهرة، فقالت ليست بها وستلد، ثم عرضت عليها آمنة بنت وهب، فقالت: واللات و العزى إنها لنذير أو تلد نذيراً فولدت رسول الله صلى الله عليه وسلم" (1)، إننا نلاحظ هنا توالي الأفعال في طلبها عرض أبنائها وبناتها، ثم عرضهم كلهم عليها، إن تكرار فعل العرض مع تغير الشخصيات يدل على تطور الحدث وتناميه، كما يدل على أن هذه المرأة تريد أن تصل إلى الشخصية الأهم وهي آمنة بنت وهب، فنلاحظ هنا توالي الأفعال مع ارتباطها بالحدث إنما يشكل مشهداً يجعل من النص طويلاً، ومعطلاً للسرد، في حين أن السارد كان يستطيع أن يجعل سوداء تشير إلى آمنة بنت وهب على أنها ستكون نذيراً أو ستلد نذيراً منذ البداية، لكنه فيما يبدو أثر الإطالة في السرد للتشويق ويبدو أن الراوي هنا لم يُغفل الفرق بين مدة الحوار الحقيقي الفعلي والجمل المعبرة عنه في النص القصصي.

ومن المشاهد أيضاً ما جاء في حديث الجارية التي قد خطبها رجل يكبرها في السن، وهو على غير المواصفات التي تأملها في الزوج " فلما رأت رجلاً كبير السن، قبيح الوجه، قالت أوقد رضى أبي؟ قلن: نعم. فدخلت البيت، واشتملت على السيف، وشدت عليه، فسبقها عدواً، ونالته بضربة". (2). إن المتمعن في هذا الحديث يرى تتابع الأفعال في لحظات الزمن المتعاقبة " فدخلت، واشتملت، وشدت، فسبقها، ونالته "، وهو أمر يكشف عن الحالة النفسية التي بدت عليها الجارية، نتيجة رضا والدها على خاطبها. ولقد بدا الترتيب الزمني للأفعال واضحاً؛ فالدخول والاشتمال

(1) ابن دريد، من أخبار أبي بكر ابن دريد، ص 167، 168.

(2) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 183.

على السيف، وشدّ الرجل الخاطب، فهروبه وإصابته بضربة منها يدل على ترتيب زمني يتفق والمشهد، كما يدل استخدام حروف العطف مع هذه الأفعال على الترتيب المتوالي " ويلاحظ المتمعن هنا المدى بين الأفعال، ويتضح ذلك من خلال الحضور المكثف لصيغ الأفعال قياساً لحجم النص، على أن هذه الأفعال لا تصف الأحاسيس والمشاعر حسب، وإنما ترصد وقائع وأحداثاً تجري على أرض صلبة" (1).

ويظهر في حديث المرأة التي نزل الموت بابنها المشهد بتوالي الأفعال " قد نزل به الموت، فقامت إليه فأغمضته وعصبته وسجته، ثم قالت:..." (2) إن توالي الأفعال يدل على الترتيب الزمني القصير فكلها متوالية تشكل مشهداً مؤثراً يصف لنا قوة المرأة التي تخفي مشاعر الألم والحزن، كما يصف عدداً من الوقائع التي تُشعر المتلقي كأنه وسط الحدث.

وثمة ضرب ثان من المشاهد يتمثل في الحوارات التي تظهر في أحاديث ابن دريد فمنها القصير ومنها الطويل، " فالحوار الواقعي يمكن أن يدور بين أشخاص معينين، قد يكون بطيئاً أو سريعاً حسب طبيعة الظروف المحيطة، مع مراعاة لحظات الصمت والتكرار ما يجعل الاحتفاظ بالفرق بين زمن الحوار وزمن القصة قائماً على الدوام" (3).

ويظهر المشهد الذي يعتمد على الحوارات القصيرة في الحديث الذي سمع فيه الأصمعي امرأة تبكي عند قبر تتشد شعرا فيمن مات، ثم دار بعدها حوار بين الأصمعي والمرأة: " قال: فَمِلْتُ إِلَيْهَا فَقَلْتُ لَهَا: مِنْ هَذَا الَّذِي مَاتَ هُوَ لَاءَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ بِمَوْتِهِ؟ فَقَالَتْ: أَوْ مَا تَعْرِفُهُ؟ قُلْتُ لِلَّهِم لَأَ، فَأَقْبَلْتُ وَدَمَعْتُهَا تَتَحَدَّرُ وَإِذَا هِيَ مَقَّاءَ بَرِّشَاءِ ثَرْمَاءَ، فَقَالَتْ: فِدَيْتُكَ! هَذَا أَبُو مَالِكِ الْحَجَّامِ خَتْنُ أَبِي مَنْصُورِ الْحَائِكِ! فَقُلْتُ عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ! وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ إِلَّا أَنَّهُ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ الْعَرَبِ." (4).

(1) انظر: الشوابكة، السرد المؤطر، ص94.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 278.

(3) ستار، بنية السرد في القصص الصوفي، ص 224 - 225.

(4) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص62.

لقد جاء الحوار في هذا الخبر الأدبي قصيراً، وقد أثار دهشة الأصمعي واستغرابه لموقف المرأة الراهبة، ما أثار في نفسه الرغبة في معرفة صاحب القبر لحظة استماعه لحديث المرأة.

ومن الحوارات القصيرة ما جاء في حديث مرور أعرابي بأعرابية تبكي زوجها، " فقال: وما يُبكّيك! لا جَمَعَ الله بينك وبينه في الجنة، ثم مرّ بها بعد ذلك فقال: يا فلانة، رفئني فإني قد تزوجت، فقالت: نَعَمْ، بالبيت المهدم، والطائر المشؤم، والرَّحْم المشؤم." (1)

لقد كشف الحوار عن عدم تقدير الأعرابي الظرف الصعب الذي كانت تمر به المرأة التي مات عنها زوجها ولم يكف لسانه عنها، بل دعا عليها بالألا تجتمع معه في الجنة، وقد عاملته بالمثل فعندما طلب إليها أن ترفأه بعد زواجه ردت عليه بالدعاء عليه، إن هذا المشهد الحواري يكشف عما تُخبئه النفوس داخلها، ويتيح الفرصة للمتلقي للاستماع إلى صوت المرأة الحزينة التي تحملت أذى الرجل الذي سخر من مشاعرها ومصابها الجلل، وردة فعلها على موقفه.

ولم تخلُ أحاديث النسوة من الحوارات الطويلة⁽²⁾، ومن ذلك ما جاء في حديث ابني مقول حمير وما دار بينهما حول آرائهما في الرجال و النساء المرغوب بهن للزواج من الرجال، والمنبذات من قبلهم أيضاً، كما دار الحوار بينهما عن الخيل والعيش والسيوف والرماح المحبوبة و المبعوضة، وقد أخذ هذا الحوار حيّزا كبيرا في الحديث إذ شغل ما يقارب ثلاث صفحات⁽³⁾، قد تضمن هذا الحوار الطويل دلالات مختلفة إذ يكشف عن الوعي الاجتماعي والبعد الثقافي والدراية بأنواع النساء الناتج عن التجربة أو الاختلاط في المحيط الاجتماعي، وقد عمل هذا الحوار على إبراز طموحات الشباب الواعي في انتقاء المرأة الواعية التي تمتلك القدرة على تفهم الزوج، كما أنه أبرز صفات المرأة وأحوالها وأنواعها منذ العصور السالفة، وغير ذلك من أمور لا تتعلق وموضوع الدراسة.

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص173.

(2) لمزيد من الأمثلة. انظر: المرجع نفسه، ج1، ص152-153.

(3) المرجع نفسه، ج1، ص152-153.

ومن ذلك أيضاً الحوار الذي دار بين نائلة وعثمان بن عفان رضي الله عنه، " فلما دخلت على عثمان قال لها: لا يروعنك ما ترين من شبيبي، قالت: إني لمن نسوة أحب بعولتهن إيهن الكهل السيد. قال: أتقومين لي أم أقوم إليك؟ قالت: ما قطعت إليك عرض السماوة وأنا أريد أن أكلفك عرض البيت، فقامت فجلست على فراشه، فقال لها: القى قناعك فألقته، ثم قال: انزعي قميصك فنزعته. قال حلي إزارك. قالت: ذاك إليك... "(1).

3.3.3 الاسترجاع:

يعتمد كثير من نصوص الخطاب النسوي على السرد الاسترجاعي، ذلك أن السرد يقوم على مبدأ عام قوامه التباعد بين زمن حدوث القصة وزمن سردها، فالقصة لكي تروى لا بد أن تكون قد تمت في زمن ما، غير الزمن الحاضر؛ ذلك أنه من المتعذر حكي قصة لم تكتمل بعد(2).

ومن ذلك حديث المرأة البدوية التي سكنت الصحراء في تذكرها لأهلها إذ تقول: " فكأنني أخاطب أعيانهم، وأترأى أشباحهم، وتتخيل لي أنديّة رجالهم، وملاعب وُلدانهم، ومُنْدَى أموالهم؛ والله يا ابن أخي، لقد رأيت هذا الوادي بَشِعَ اللدّيدَيْن، بأهل أدواح وقياب، ونعم كالهضاب، وخيل كالذئاب، وفتيان كالرّمّاح، يُبارون الرياح، ويحمون الصّباح؛ فأحال عليهم الجلاء قماً بغرفة".(3)، إنها تترد إلى الزمن الماضي وتستجير فيه بلفظ صريح " أتذكر "، " وهو تسجيل نابع من تجربة تنتمي ضرورة إلى الماضي"(4)، فالمرأة تسترجع هنا في ذاكرتها أفعالاً لأهلها وأقاربها وتصور لنا حياتهم ومجرياتهما، ويبدو أن الفترة طويلة التي غاب عنها أهلها

(1) ابن دريد، من أخبار أبي بكر ابن دريد، ص 161-162.

(2) حول هذا الموضوع: انظر: بحر اوي، بنية الشكل الروائي، ص 121.

(3) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 6.

(4) انظر: الشوابكة، السرد المؤطر، ص 68.

لذا نستطيع أن نعد هذا الاسترجاع من الاسترجاعات الخارجية⁽¹⁾، كما أننا نجد أن هذا الاسترجاع قد وضع غموضاً وساهم في بناء النص السردى بناءً متكاملًا⁽²⁾، فقد وضحت هذه المرأة سبب عيشها وحيدة، فهي تستريح إلى الوحدة، كما بينت سبب اطمئنان قلبها إلى هذا الوادي، كما أنها بينت سبب موتهم، فقد ماتوا موتاً جماعياً، فقد أحال عليهم الجلاء، فهي بذلك قد استرجعت ذكرياتها الأليمة في الحديث عن أطيافهم وسبب موتهم.

وما لا شك فيه أن الاسترجاع في هذا الحديث قد جاء مُعلنًا، وكانت غايته هنا توضيح ما ورد غامضاً وارتبط بالحوار والوصف، وقد جاء على هذا النحو ليحيط المسرود له (الأصمعي) بما كان له صلة بالسارد (المرأة)، كما بين لنا الاسترجاع هنا الحالة النفسية التي تعيشها المرأة فقد سجل النفس وما يختبئ فيها من ألم ومرارة و بؤس واقع يقابله حياة تعيشها هذه المرأة في خيالها لا وجود لها على أرض الواقع.

ومن الأمثلة الأخرى على الاسترجاع ما جاء في حديث الأعرابي الذي تزوج اثنتين وقد قيل له من لم يتزوج اثنتين لم يذق حلاوة العيش، فقد عمد إلى استرجاع حاله شعراً، إذ يقول⁽³⁾:

تَزَوَّجْتُ اثْنَتَيْنِ لِفَرْطِ جَهْلِي	بِمَا يَشَقُّقِي بِهِ زَوْجُ اثْنَتَيْنِ
فَقُلْتُ أَصِيرُ بَيْنَهُمَا خَرُوفاً	أَنْعَمَ بَيْنَ أَكْرَمِ نَعَجَتَيْنِ
فَصِرْتُ كَنَعْجَةٍ تُضْحِي وَتُمْسِي	تُدَاوِلُ بَيْنَ أَخْبَثِ ذُنُوبَتَيْنِ
رِضًا هَذِي يُهَيِّجُ سَخَطَ هَذِي	فَمَا أَعْرَى مِنْ أَحَدِي السُّخْطَتَيْنِ
وَأَلْقَى فِي الْمَعِيشَةِ كُلُّ ضُرٍّ	كَذَاكَ الضُّرُّ بَيْنَ الضَّرَّتَيْنِ
لِهَذِي لَيْلَةٌ وَلِتِلْكَ أُخْرَى	عَتَابٌ دَائِمٌ فِي اللَّيْلَتَيْنِ

(1) لمزيد من التفصيل حول أنماط الاسترجاع، انظر: الشوابكة، السرد المؤطر، ص 68؛ السماوي، أحمد، فن السرد في قصص طه حسين، ط 1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط 1، ص 98-103، صفاقس، 2002.

(2) السماوي، فن السرد في قصص طه حسين، ص 100.

(3) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 35، 36.

فإن أَحَبَبْتَ أن تَبْقَى كَرِيماً
وتُدْرِكْ مُلْكَ ذِي يَزَنٍ وَعَمْرٍو
وَمُلْكَ الْمُنْذِرِينَ وَذِي نُوَّاسٍ
فَعِشْ عَزَباً فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْهُ
من الخيِّراتِ مَمْلُوءَ اليدينِ
وذي جَدَنٍ وَمُلْكَ الْحَارِثِيِّينِ
وتُبَعِّعِ الْقَدِيمِ وَذِي رُعَيْنِ
فَضْرِباً فِي عِرَاضِ الْجَحْفَلِيِّينِ

إنه يعتمد على الاسترجاع في معاناته مع زوجته فبعد أن ظن أنه سيعيش حياة رغبة واجه آلاماً شديدة فقد صور للقارئ حاله بأشع الصور ما تثير طرفة على الموقف فقد استذكر نفسه وهو كنعجة يتحرك بين ذئبتين كما يتذكر تلقيه العتاب كل ليلة من زوجته، إنه في هذا الاسترجاع إنما يعبر عن معاناته وألمه ويصف مشاعره، وإثبات بطلان الاعتقاد بأن من يتزوج اثنتين ينعم برغد العيش، كما عكس هذا الاسترجاع الواقع المرير الذي يعيشه زوج الاثنتين.

وهذا حديث الزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية مع معاوية بن أبي سفيان؛ إذ ورد فيه استرجاع ظهر في حوارها مع معاوية " قال: أَلَسْتَ الرَّأكِبَةَ الْجَمَلَ الْأَحْمَرَ بَيْنَ الصَّفِينِ بِصِفِينَ تُحَرِّضِينَ عَلَى الْقِتَالِ، وَتُوقِدِينَ الْحَرْبَ؟ " (1) ويسترجع الخليفة إحدى خطب الزرقاء في صفين (2).

لقد غطى الاسترجاع هنا فترة زمنية سبقت هذا اللقاء، فقد سأل معاوية الزرقاء عن أمور حدثت في السابق اعتمدت على وقائع وأحداث أو خبر حدث في زمن ومكان محددين؛ أي أنها واقع في تاريخ، واتصال التاريخ بالأحداث الواقعية في مرحلة زمنية محددة هو الذي يعطي الحكاية نكهتها وتشويقها (3)، فالتاريخ هنا مرتبط بموقعة صفين وقد تمت الإشارة إليها في موضع سابق، لذا يأتي استخدام الاسترجاع هنا إلى العتاب واللوم وتوضيح نتائج تحريض الزرقاء الناس في المعركة بأنها قد شاركت عليا في كل دم سفكه، وهنا الاستدعاء كان من وضع حسن وحالة استقرار في حكم معاوية إلى حال مناقض تماماً لهذا الوضع، وهو حال الحرب والاضطراب السياسي، فالشخصية هنا قد استدعت حدثاً مناقضاً، فحالات

(1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 202.

(2) المرجع نفسه، ص 202، 203.

(3) انظر: عباس، تقنيات البنية السردية، ص 107.

الحزن والضيق تستدعي أياماً استعذب الإنسان فيها الحياة⁽¹⁾، والعكس صحيح وهو ما أوحى به هذا الحديث.

4.3.3 الاستباق

يعد الاستباق حيلة سردية تروي أو تثير مسبقاً حدثاً لاحقاً، وهو أمر يعتمد على تخيل ما سيحدث استناداً على معطيات مكانية و نفسية⁽²⁾، وهو ضد الاسترجاع، وتشيع ظاهرة استخدام الاستباق في عدد من نصوص الخطاب النسوي عامة، ونصوص السرد المتعلقة بالكهانة خاصة⁽³⁾. ومن ذلك توقع زبراء لما سيحدث لقومها " فقالت: يا ثمر الأكباد، وأنداد الأولاد، وشجا الحساد؛ هذه زبراء، تخبركم عن أنباء، قبل انحسار الظلماء، بالمؤيد الشنعاء، فاسمعوا ما تقول. قالوا: وما تقولين يا زبراء؟ قالت: واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصبح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوداق؛ إن شجر الوادي ليأدو ختلاً، ويحرق أنياباً عَصلاً، وإن صخر الطود لينذر تكللاً، لا تجدون عنه معلاً؛ فوافقت قوماً أشارى سكارى؛ فقالوا: ريح خجوج، بعيدة ما بين الفروج، أنت زبراء بالأبلق النتوج. فقالت زبراء: مهلاً يا بني الأعزة، والله إني لأشم ذفر الرجال تحت الحديد، فقال لها فتى منهم يقال له هذيل بن منفذ: يا خذاق، والله ما تشمين إلا ذفر إيطيك، فانصرفت عنهم." ⁽⁴⁾، فهي تتلقي الإلهام بما سيصيب بني رثام على يدي بني ناعب وبني داهن المتظاهرين عليهم، إنها تنتبأ بقدم أمر جسيم لقومها وتستبق الأحداث، فهي تحذر قومها بضرورة التفرق لأن بني داهن وبني ناعب ستهجم عليهم، وهي تؤكد بأن ذلك سيحدث من خلال استخدام أسلوب القسم " واللوح الخافق، والليل الغاسق،

(1) الشوابكة، السرد المؤطر، ص71.

(2) انظر: السماوي، فن السرد في قصص طه حسين، ص 107؛ الشوابكة، السرد المؤطر، ص75.

(3) لمزيد من الأمثلة، انظر: ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص124، 125؛ القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص143.

(4) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص127.

والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوداق"، كما أن خويلة تؤكد صدق تكهن زبراء وذلك بقولها: " هذه زبراء، تخبركم عن أنباء، قبل انحسار الظلماء، بالمؤيد الشنّعاء، فاسمعوا ما تقول " فهي تستبق الزمن والأحداث وتخبر عن أمور ستحدث قبل انحسار الظلماء، إنها تحدد الزمن أيضاً، ويظهر لنا من النص أن هذه الإغارة ستحدد مستقبل سبعين رجلاً غير أن أربعين رجلاً آمنوا بتوقع زبراء وثلاثين رقدوا في مشربهم، إن زبراء قد أخبرتهم وحذرتهم من أمور لم تحدث بعد فهي تستبق الزمن والأحداث ويبدو أن صدق توقعها قد ثبت " فأنصرف منهم أربعون رجلاً وبقي ثلاثون فرقدوا في مشربهم، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعب فقتلوهم أجمعين"⁽¹⁾ وهذا ما تميز به عالم الكهنة.

ومن الأمثلة على الاستباق ما جاء على لسان والد الكاهنة سوداء بنت زهرة بن كلاب عندما أخبره الحافر الذي أراد دفنها من أنه سمع هاتفاً يدعو أن يذرها، فقال له أبوها: " دعها فسيكون لها نبأ."⁽²⁾. إن هذا التوقع يحمل دلالات للمستقبل الذي ستعيشه هذه الفتاة، ويبدو أن السارد قد استخدم الاستباق هنا لإثارة المتلقي وتشويقه ولفت انتباهه بأن هناك قصة مهمة تدور حول الفتاة، إن جملة الاستباق هذه على قلة مفرداتها تعمل على تحفيز القارئ حتى يقبل على القراءة ويكتشف سر هذه الفتاة. إضافة إلى توقعاتها والاستباق الذي قدمته لكل من بناتها وأبنائها وأحفادها على السواء ومن ذلك توقعها بنبوة الرسول عليه الصلاة والسلام وهو حفيدها من أمنة بنت وهب عندما عرضت عليها " واللات والعزى إنها لنذير أو تلذ نذيرا "⁽³⁾.

ويظهر الاستباق أيضاً في حديث أنيسة والزبان العدوانى وما توقعته الجارية في هذا الحديث حول الفتية الأربعة " فهم واردون ماء جويرة، فيردونه غلساً، فيشربون منه نفساً، ثم يميلون وهم كاللون، فيموتون أجمعون، ثم ألقى العلبة وشفقت بيدها، وقالت: مة، فسدت اللعبة، أخوهم ورب الكعبة"⁽⁴⁾. لقد استبقت الجارية

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص127.

(2) ابن دريد، من أخبار أبي بكر ابن دريد، ص167.

(3) المرجع نفسه، ص167-168.

(4) المرجع نفسه، ص126.

الأحداث وتوقعت ما لم يحدث بعد، وقد تفنن السارد في " اصطناع القص سواء أكان ذلك واقعياً أم خيالياً "(1)، ويلاحظ القارئ أن استخدام الراوي الأفعال المضارعة " فيموتون، فيشربون، ثم يميلون، وهم كالون، فيموتون أجمعون " يدل على الاستقبال، فهي تبين أنهم سيردون ماء جويرة، ثم يشربون منه نفساً، إذ إنها تحدد عدد الشربات، ثم يميلون وهم متعبون، فيموتون، إننا نلاحظ أن الزمن يظهر متسارعاً ملموساً إلى حد كبير من خلال الأفعال المستخدمة التي تدل على المستقبل، وهو أمر فني يشكل حركة إيقاعية تدفع القارئ إلى التفاعل مع السرد، ويكشف السرد عن أن توقعات الجارية قد تحققت " قال: فخرجتُ سريعاً، وكنتُ إذا استبَطْتُ ناقتي طَرَدْتُ وَسَعَيْتُ، حَتَّى أَدْرِكَهُمْ فَأَجِدُهُمْ قَدْ شَرَبُوا، وَأَجِدُهُمْ مَوْتَى أَجْمَعِينَ"(2)، وما لا شك فيه أن للاستباق أثره في النص السردى حيث عمل على تشويق المتلقي وإثارة وحفزه على متابعة السرد لمعرفة صحة توقع الجارية.

ومن الأمثلة على توظيف الاستباق في غير أحاديث الكهانة ما جاء في قصة حنيف بن مساور، الذي كان محباً لزوجته زُرْعَةَ بنت الأسود، فلما اشتدَّ وجَعُه جَلَسَتْ عند رأسه، فأنشأ يقول:

يا زُرْعَ دُومِي واحْفَظِي لِي عَهْدِي	كَمْ مِنْ مُنِيرٍ بَيْنَنَا وَمُسْدِي
وَكَاشِحٍ يَا زُرْعَ بَادِي الحِقْدِ	يَا زُرْعَ إِنْ وَسَدَّتْنِي فِي لَحْدِي
وَجَاءَكَ الخَاطِبُ بَعْدَ الوَقْدِ	وَقُلْتِ عَبْدٌ بَدَلٌ مِنْ عَبْدِ
فَخَصَّكَ اللهُ بِفَدْمٍ (3) وَغَدٍ (4)	يَنَامُ فِي بَيْتِكَ نَوْمَ الفَهْدِ

فمات، فوالله ما انقضت عدتها إلا ريث ما تزوجت، فكأنه كان يرى زوجها، فتزوجته كما وصف " (1).

(1) انظر: الشوابكة، السرد المؤطر، ص 75.

(2) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص 126.

(3) القدم من الناس: العيى عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم، وهو أيضاً الغليظ السمين الأحمق الجافي. انظر: ابن منظور، لسان العرب، قدم.

(4) الوغد: الخفيف الأحمق الضعيف العقل الرذل الدنيء. انظر: ابن منظور، لسان العرب، وغد.

لقد سرد الزوج في شعره حال زوجته بعد وفاته، وما سيكون من أمر زواجها من رجل عيى عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم، وأحمق ضعيف العقل رذل دنيء، ينام عن المكرمات نوماً طويلاً كنوم الفهد. إن المتمعن لهذا الاستباق في هذا الجزء من الحديث يعطي مجالاً للمتلقي أن يتشوق إلى الوصول إلى نهاية السرد، ويجعله يتخيل نتائج القصة أمام ناظريه، ويرقب نهاية الحدث، وأغلب الظن أن هذا الاستباق يعد استباقاً خارجياً⁽²⁾ لاتصاله بشخصيات خارج شخصية المتحدث.

4.3 شعرية الخطاب السردى

لقد سعى السارد في الخطاب النسوي إلى صياغة عباراته على أساليب العرب الرفيعة، التي تقود إلى إحداث التوازن بين متطلبات المعنى وجماليات التعبير في آن واحد، من خلال توظيف الألوان البلاغية المختلفة كالمقابلة والمائلة، والطباق والجناس والتقسيم والسجع والازدواج وغيرها⁽³⁾، وهي أدوات فنية يكتسب بها النثر طابع الإيقاع، ويقرب المسافة بينه وبين الشعر⁽⁴⁾، من خلال ظاهرة التوازي⁽⁵⁾ الذي

-
- (1) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ص185.
 - (2) حول مفهوم الاستباق الخارجى، انظر: السماوي، فن السرد في قصص طه حسين، ص 109-110؛ تعليق من أمالي ابن دريد، ص185.
 - (3) انظر: النجار، محمد رجب، النثر العربى القديم: من الشفاهية إلى الكتابية، ط1، دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع، الكويت، 1991، ص367-373، 468-469.
 - (4) حول هذه الظاهرة انظر: كليطو، عبدالفتاح، المقامات: السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبدالكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، بلقدير، الدار البيضاء، 1993، ص75؛ الجديع، خالد بن محمد، المقامات المشرقية، دن.، الرياض، 2001، ص585-592.
 - (5) حول مفهوم التوازي انظر: العمري، محمد، البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها، ط1، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1999، ص461-465؛ ياكبسون، رومان، قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، دار البيضاء، 1988، ص102-109؛ ياكبسون، رومان، أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب، ترجمة فالح صدام الإمارة، وعبد الجبار محمد علي، مراجعة مرتضى باقر، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1990، ص102-110. فراي، نورثرب، تشريح النقد: محاولات أربع، ترجمة محمد عصفور،

يشمل جميع أشكال التكافؤ والتناظر الكلي أو الجزئي بين عناصر عبارة الحكي التي بنيت على الازدواج (1)؛ وذلك على المستويات الصوتية والنحوية والصرفية والمعجمية والدلالية وغيرها (2)؛ أي أن السارد في الخطاب النسوي سعى إلى صياغة العبارة النثرية في قوالب شعرية؛ من خلال استخدام الأشكال البلاغية والأسلوبية التي سبقت الإشارة إليها.

ولقد كان استخدام النثر الإيقاعي المسجوع في مقدمة الآليات الفنية التي عمد إليها السارد لجعل خطابه السردى بالمنظوم أشبه بالمنثور، إذ عمد إلى تجزئة عباراته وجمله إلى أجزاء مبنية على التوازي والتكافؤ والتناظر الكلي أو الجزئي بين عناصرها، وذلك على مستويات مختلفة.

وجاءت معظم عباراته إيقاعية تكرارية مبنية على التركيب المزدوج أو المسجوع، وهو إيقاع سعى إليه؛ لأنه يمثل إحدى سمات الكلام ووسيلة للتأثير في المخاطب، وتقوية استمالاته إلى الحديث الذي يتسم بالبلاغة والفصاحة، فضلاً عما يوفره السجع من وجوه التحسين والزخرفة (3).

منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1991، ص 341-349. هناك عدد كبير من الدراسات التي دارت حول التوازي نظرياً وتطبيقياً، انظر على سبيل المثال: ربابعة، موسى، "هندسة القصيدة: قراءة في ظاهرة التوازي في قصيدة للخنساء"، في قراءة النص الشعري الجاهلي، مؤسسة حمادة ودار الكندي، إربد، 1998، ص 125 - 154؛ الرواشدة، سامح، "التوازي في شعر يوسف الصايغ وأثره في الإيقاع والدلالة"، في أبحاث اليرموك: سلسلة الآداب واللغويات، م 16، ع 2، 1998، ص 9-33.

(1) حول مفهوم الازدواج انظر: مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج 1، ص 97-98.

(2) انظر: ياكبسون، قضايا الشعرية، ص 33، 106؛ ياكبسون، أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب، ص 105؛ ربابعة، "هندسة القصيدة: قراءة في ظاهرة التوازي في قصيدة للخنساء"، ص 128-129؛ الرواشدة، "التوازي في شعر يوسف الصايغ وأثره في الإيقاع والدلالة"، ص 10-11.

(3) حول ذلك انظر: كليطو، المقامات: السرد والأنساق الثقافية، ص 74-76؛ المسعدي، محمد، الإيقاع في السجع العربي: محاولة تحليل وتحديد، نشر وتوزيع مؤسسات عبدالكريم

لقد عمد السارد إلى أساليب مختلفة تعمل على تكثيف الإيقاع الداخلي والخارجي في خطابه السردى، من حيث الجمل أو الفواصل وعدد مقاطعها وعناصرها المكونة لها، ومن حيث ائتلافها بعضها مع بعض في الطول والقصر، فكانت الوحدة الإيقاعية مبنية على التركيب المسجوع المكوّن من الزوج أو أكثر⁽¹⁾. وما جاء مبنياً على الزوج أي انقسام القول إلى جزأين متوازيين ومقتربين بفاصلة موحدّه قول عتبة بن ربيعة في وصف أحد خاطبي ابنته هند: " بدر أرومته، وعز عشيرته"، " شديد الغيرة، سريع الطيرة"⁽²⁾. لقد بنى عتبة عباراته على التعادل والتكافؤ بين جزئي القول في الحركات والبنى النحوية، والصيغ الصرفية، والعدد، ما ولد إيقاعاً داخلياً بين الصيغ والكلمات والدلالات، وهو ما يحقق قيمة فنية عالية. ومن ذلك أيضاً قول امرأة تصف زوجها بمكارم الأخلاق: " ما مدحت حتى اختبرت، ولا وصفت حتى عرفت"⁽³⁾، لقد اتبعت المتحدث في بناء جملها وترتيب كلماتها قاعدة الترديد أو الترجيع الدوري القاضية بوضع الألفاظ المتوازنة في مرتبة واحدة في كلتا الفقرتين المسجوعتين⁽⁴⁾، فقد تضمن الجزء الأول من الزوج أربع كلمات، وقد جاءت كلمات الجزء الثاني المقابلة لها على النسق نفسه، وهو أمر ضروري لانتظام سلسلة الإيقاع، ويمثل هذا النسق نمطاً من البناء اللغوي المتناسق. ومن ذلك أيضاً ما جاء في وصف إحدى الفتيات ما تحب من الأزواج: " فَنَأْوُهُ رَحْبًا، وَقِيَادُهُ صَعْبٌ"⁽⁵⁾، وقول الأخرى: " قِرَانُهُ حُبُّورٌ، وَلِقَاؤُهُ سُرُورٌ"⁽⁶⁾. وتلاحظ الباحثة هنا أن الجمل قائمة على التعادل والتقابل قى الحركات، والبنى

بن عبدالله، تونس، 1996، ص45؛ بن رمضان، صالح، الرسائل الأدبية من القرن الثالث إلى القرن الخامس للهجرة (مشروع قراءة إنشائية)، منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة، تونس، 2001، ص310-311.

(1) انظر: المسعدي، الإيقاع في السجع العربي، ص67-68.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص104.

(3) المرجع نفسه، ج1، ص221.

(4) المسعدي، الإيقاع في السجع العربي، ص67-68.

(5) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص16.

(6) المرجع نفسه، ج1، ص16.

النحوية، والصيغ الصرفية إلى حدٍّ بعيد، ما يولد إيقاعاً داخلياً في الصيغ والكلمات والدلالات، كما يولد إيقاعاً خارجياً في الفاصلة المشتركة بينها التي تقوم على ترديد جرس حرفي متجانس مكوّن من حرف واحد في الجملتين الأوليين هو " الباء "، وحرفين هما " الواو والراء" في الجملتين الأخيرين.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في وصف محاسن الزوج على لسان إحدى النسوة اللاتي أشرن على بنت الملك بالترزوج: " يصلح النائر، وينعش العائر "(1)، إذ بدا أن الجملة الأولى بصيغة الفعل المضارع، ثم بمفعول به جاء على صيغة اسم الفاعل، فنحن إزاء تكرار صيغة يفعل (الفعل المضارع)؛ وصيغة الفاعل، زيادة على تنافس صوتي في الأفعال والأسماء، وهذه المساواة تضيف جمالاً على العبارة.

وتبدو العبارة النثرية في التركيب الذي يقوم على الأزواج قريبة من العبارة الشعرية لأن السارد يزاوج فيها بين جملتين، ويستخدم السجع في الفاصلتين، فتكون الجملة النثرية شبيهة بشطري البيت الشعري، وتكون الفاصلة العلامة الصوتية المميزة للزوج والحد الفاصل بينهما وبين غيرها(2).

وتشيع في الخطاب النسوي ظاهرة استخدام التراكيب القائمة على الأزواج أو الفواصل المتعددة المسجوعة التي يتقدّمها عنصر من النثر المرسل، يشكّل قاسماً مشتركاً بينها، ويقوم على وجود اتفاق في الوزن بين بعض كلمات الفقرة الأولى وكامل ألفاظ الفقرة الثانية من الزوج أو الثالثة، ومن الأمثلة على ذلك قول أعرابي لابن عمّه(3): " اطلب لي امرأةً بيضاءً حديدةً فرعاءً ". ويلاحظ هنا أنه لا وجود للتوازي إلا بين الفقرات المزدوجة " امرأةً بيضاءً " و " حديدةً فرعاءً "، أما جملة القاسم المشترك المتقدمة عليها (اطلب لي) فهي خارجة عن أصل البنية الإيقاعية لصيغة المزدوج، ومستقلة من حيث الوزن استقلالاً تاماً؛ ذلك أنه ليس لها نظير

(1) المرجع نفسه، ج1، ص 80.

(2) انظر: ابن رمضان، الرسائل الأدبية، ص110-111.

(3) القالي: كتاب الأمالي، ج2، ص283.

يقابله في الجزء الثاني، وتعد جملة القاسم المشترك والفقرة المسجوعة الأولى كلاً متكاملًا من حيث التلفظ والمعنى والتركيب النحوي⁽¹⁾.

ومن الأمثلة على الفقرات الثلاث التي تتساوى أجزاؤها وتتماثل فواصلها ويسبقها تركيب مشترك يشكل القاسم المشترك قول المرأة الأعرابية التي سمعها الأصمعي تخاصم زوجها وهي تقول: " والله إن شُرْبَكَ لَشُتْفَافٌ، وإن ضِجْعَتَكَ لَانْجِعَافٌ، وإن شِمْلَتَكَ لَانْتِفَافٌ"⁽²⁾. لقد قدّم لهذه الفقرات الثلاث المتساوية " إن شُرْبَكَ لَشُتْفَافٌ"، " وإن ضِجْعَتَكَ لَانْجِعَافٌ"، " وإن شِمْلَتَكَ لَانْتِفَافٌ" بتركيب من النثر المرسل هو صيغة القسم " والله " يشكّل المستند عليه، بينها جميعاً.

ومن ذلك قول ربيعة بن أحد ملوك اليمن في وصف المرأة المبعوضة إليه: " التي شَقِيَّ صَاحِبُهَا، وَخَزِيَّ خَاطِبُهَا، وَافْتَضَحَ أَقَارِبُهَا"⁽³⁾، فالفقرات الثلاث يجمع بينها قاسم مشترك هو الاسم الموصول " التي"، ثم تجمع بينها فاصلة واحدة تتكون من ثلاثة أحرف هي " الباء والهاء والألف"، ما يولد إيقاعاً خارجياً.

ومن ذلك قول المرأة الأعرابية التي سكنت قرب قبور أهلها: " وتتنخيل لي أندية رجالهم، وملاعب ولدانهم، ومندى أموالهم"⁽⁴⁾. كل ذلك أحدث إيقاعاً رتيباً أوجد موسيقى جميلة ومؤثرة تحرك النفس، وتثير المشاعر وتحركها⁽⁵⁾.

وهناك نوع من التراكيب يتمثل بالأزواج غير المتساوية الأجزاء، وغير المبدوءة بقاسم مشترك، إذ يرد جزء، يليه جزء آخر يطول عليه أو يقصر عنه، وهو نوع لا يحصل فيه التوازن إلا بين بعض عناصر الأزواج؛ ذلك أن النثر

(1) انظر: المسعدي، الإيقاع في السجع العربي، ص 37.

(2) القالي: كتاب الأمالي، ج 1، ص 104.

(3) المرجع نفسه، ج 1، ص 153.

(4) المرجع نفسه، ج 2، ص 6.

(5) انظر: بو حجام، " دراسة في أحاديث ابن دريد"، ص 1652.

المرسل الذي يتخلل الأزواج يقود إلى غياب التوازي؛ أي أن التوازن كثيراً ما ينحصر في لفظة الفاصلة⁽¹⁾.

ومن الأمثلة على هذا النوع قول ابنة قَيْلٍ من أَقْيَالِ اليَمَنِ في الحديث عن وقوع مستشاراتها على الزوج المناسب لها: "فَأَيُّكُنَّ أَتَنَّتِي بِمَا أُحِبُّ فَلَهَا أَجْزَلُ الْحِبَاءِ"⁽²⁾، وَعَلَى لَهَا الْوَفَاءُ"⁽³⁾. يكشف هذا التركيب عن أن الاتفاق هنا لا يشمل سوى كلمة واحدة من كل جزء " الحباء " و " الوفاء ". إن هذا النمط من الأزواج لا يتوفر فيه الحد الأدنى من شروط التناظر والتكافؤ اللازم للإيقاع، فجاء التركيب بغياب هذه العناصر نثراً مرسلأً مزيداً عليه الفاصلة لا غير.

ومن ذلك أيضاً قول قوم زبراء الكاهنة زبراء ساخرين من تحذيرها إياهم: " رِيحٌ خَجُوجٌ، بَعِيدَةٌ مَا بَيْنَ الْفُرُوجِ "⁽⁴⁾. لقد جاء هذا التركيب نثراً مرسلأً، طال فيه الجزء الثاني الذي يتكون من أربع كلمات على الجزء الأول الذي جاء في كلمتين، وقد جمعت الفاصلة القائمة على جرس صوتي مكون من حرفين هما الـ " الواو والجيم"، بين الجملتين.

ويعمد السَّارِدُ أحياناً إلى السجع الممتد الذي يقوم على استخدام الفواصل المستمرة على وتيرة واحدة⁽⁵⁾، ومن ذلك قول زبراء الكاهنة: " واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصبح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوداق..."⁽⁶⁾.

لقد تضمن هذا المقطع خمس سجعات تنتهي كلها بفاصلة واحدة هي القاف المكسورة، ويظهر أن تكرار صيغة اسم الفاعل المنتهية بالقاف المكسورة في فاصلة

(1) انظر: المسعدي، الإيقاع في السجع العربي، ص74؛ الحسنوي، الفاصلة في القرآن، ص180.

(2) الحباء: ما يَحْبُوُّ به الرجلُ صاحِبَه ويكرمه به. انظر: ابن منظور، لسان العرب، حبا.

(3) القالي: كتاب الأمالي، ج1، ص80.

(4) المرجع نفسه، ج1، ص127.

(5) حول هذا النوع من الإيقاع المستمر أو المندفع انظر: فراي، تشريح النقد، ص346؛ ياكبسون، أفكار وآراء حول الأدب، ص105.

(6) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص126.

الأجزاء تشي بالحالة النفسية لزبراء الكاهنة، فالتكرار قائم على ترسيخ المعنى وتأکید الفكرة التي تريد تأكيدها⁽¹⁾.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً ما جاء في وصف أعرابي نساءً، حيث يقول: " يَنْتَمِنَ عَلَى السَّبَائِكِ، وَيَنْشِحْنَ عَلَى النَّيَازِكِ، وَيَأْتِرْنَ عَلَى الْعَوَانِكِ، وَيَرْتَفِقْنَ عَلَى الْأَرَائِكِ، وَيَتَهَادَيْنَ عَلَى الدَّرَائِكِ."⁽²⁾. إن في هذه المقاطع خمس سجعات متوازية في البناء، إذ جاءت كل منها مبدوءة بفعل مضارع مرفوع يليه حرف جرٍّ، وصيغة جمع تكسير، و تنتهي كلها بفاصلة واحدة تجمعها معاً هي القاف المكسورة، وهو أمر يشي بحالة الإعجاب بالنساء اللواتي وصفهن الأعرابي، فملك عليه منظرهن لُبُّه، وأخذ بمجامع قلبه، فجاء تكرر السجعة لترسيخ صورة الجمال التي أحس بها الرائي.

ولقد أسهمت بنى التضاد المتجاورة في إحداث التوازي في بعض العبارات من خلال تكرار الكلمات المتضادة في المعنى المتشابهة في الصيغة والتمثالة في الموقع⁽³⁾، ومن ذلك أيضاً ما جاء في وصف الشاب فرساً ابتاعه فجاء إلى أمه وقد كُفَّ بصرها، فقالت صِفُهُ لِي، قال: إِذَا اسْتَقْبَلْتُ فَطْبِي نَاصِبًا، وَإِذَا اسْتَدْبَرْتُ فَهَقْلٌ خَاضِبًا، وَإِذَا اسْتَعْرَضْتُ فَسَيْدٌ قَارِبٌ"⁽⁴⁾. لقد بنى الفتى تركيبه على التضاد، من خلال إيراد ثلاث صور من الطباق المتجاورة " اسْتَقْبَلْتُ و " اسْتَدْبَرْتُ و " اسْتَعْرَضْتُ"، التي تُشكِّلُ بناءً إيقاعياً متميزاً، وعلى الرغم من تحمله هذه الكلمات من معانٍ متضادة فإن التماثل الوزني ظل متساوياً ما هياً للفتى الاستمرار في تكريس الإيقاع، واختيار الكلمات التي عبر فيها عن دقة وصفه للفرس.

ومن ذلك قول عمرو ابن أحد ملوك اليمن في وصف أبغض النساء إليه: " التي إن اتتمنها زوجها خانته، وإن لان لها أهانتها، وإن أرضاها أغضبتها، وإن

(1) انظر القيسي: " جماليات خطاب النسوة في أحاديث ابن دريد: "حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام أنموذجاً"، ص 1576.

(2) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 42.

(3) انظر: ربابعة، هندسة القصيدة: قراءة في ظاهرة التوازي في قصيدة الخنساء"، ص 136.

(4) القالي، كتاب الأمالي ج1، ص 41.

أطاعها عصته⁽¹⁾. إن من ينعم النظر في هذا الوصف يجد أنه حافل بعدد من صور الطباق المتجاورة " لان وأهانتته، أرضاها وأغضبته، وأطاعها وعصته"، التي تُشكّل بناءً إيقاعياً متميزاً، وعلى الرغم ما تحمله هذه الكلمات من معانٍ متضادة فإن التماثل الوزني ظل متساوياً ما هياً للفتى الاستمرار في تكريس الإيقاع، واختيار الكلمات التي تعبر عن وجهة نظره في صفات المرأة التي يبغضها.

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن السارد خصّ الفاصلة بدور كبير في بناء جملة وعباراته؛ ذلك أنها عنصر إيقاعي مهم، بها يتم تقطيع الكلام طبق مفاصل الإيقاع، ويحصل تواطؤ الفواصل وتطابق الوزن أو الموازنة للتأثير في المتلقي وتقوية استمالاته إلى مضمون الخطاب، ولحملة على تقبل مضامينها، فضلاً عما توفره السجعة من وجوه التحسين والزخرفة⁽²⁾. كما أن الفاصلة " ذات أهمية بالغة في نسج الإيقاع لأنهما معا العلامة الصوتية المميزة للزوج والحد الفاصل بين فقرتيه، وبينه وبين غيره"⁽³⁾، وهي كالقافية في الشعر من حيث الأهمية، غير أنها ليست العنصر الوحيد والأساس في تكوين الزوج، وفي تناظر أجزائه وترابطها، بل إن توازن الكلمات والمزاوجة المعنوية والإيقاعية هما اللذان يقومان بهذا الدور معها⁽⁴⁾.

وقد تعددت أنماط الفواصل من حيث البساطة أو تعقيد التركيب على النحو الذي تعددت فيه القافية في الشعر، فهناك الفاصلة البسيطة التي تتركب من عنصر حرفي واحد كاللام، في قول إحدى مستشارات بنت قيل من أقيال اليمن في وصف الزوج: " غَيْثٌ فِي الْمَحَلِّ، ثِمَالٌ فِي الْأَزْلِ"⁽¹⁾.

(1) القالي، كتاب الأمالي ج1، ص 153.

(2) انظر: المسعدي، محمد، الإيقاع في السجع العربي، ص45؛ بن رمضان، الرسائل الأدبية من القرن الثالث إلى القرن الخامس للهجري، ص310-311.

(3) المرجع نفسه، ص181.

(4) انظر: ابن جعفر، قدامة، نقد النثر، تحقيق طه حسين، القاهرة، 1933، ص93؛ المسعدي،

الإيقاع في السجع العربي، ص61؛ فراي، تشريح النقد، ص347.

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص80.

وهناك الفاصلة ذات العنصرين الحرفيين، وهي أكثر تواتراً في الخطاب النسوي، ومن أمثلتها الياء والهاء اللتين جاءتا في قول إحدى الفتيات في ووصف من تحبُّ من الأزواج: " أريد سيِّدَ ناديه، وتيمالَ عافيه، ومُحسبَ راجيه " (1).

وهناك الفواصل المركبة من ثلاثة عناصر حرفية فأكثر، ومن ذلك الألف والياء والألف التي وردت في قول إحدى مستشارات بنت الملك في وصف أحد الذين وقع عليهم الاختيار ليكون زوجاً للملكة: " غزير العطايا، مألوف السجايا " (2). ومن ذلك أيضاً الصَّاد والألف واللام والهاء، التي وردت في قول امرأة أبي الأسود الدؤلي: " فلم أزلُ بذلك سبعةَ أعوامٍ حتى إذا استوفى فصالهُ، وكملتُ خصالهُ، واستوكعتُ أوصالهُ " (3).

ومن الأساليب الأخرى التي عمد إليها السَّارد لتكثيف شعرية الحديث الجمع بين المنظوم والمنثور (4)، بحسب مقتضيات السياق؛ على أن الخبر النثري الذي يضم عناصر قصصية وتفاصيل، جاء سابقاً للقول الشعري؛ أي أن الشعر أصبح جزءاً من الحركة السردية (5)، ومن ذلك أن حديث زبراء الكاهنة يتضمن عشرة أبيات تصف ما فعلته خويلدة عندما قصت ما جرى مع قومها على يد أعدائهم، تقول مخاطبة مرضاوي بن سَعوة المَهري (1):

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص 16.

(2) المرجع نفسه، ج1، ص80.

(3) المرجع نفسه، ج2، ص12.

(4) لمزيد من الأمثلة. انظر: القالي، كتاب الأمالي، ج2، ص 4، 30، ص83، ص136-137.

(5) انظر: بن رمضان، صالح، الرسائل الأدبية، ص 393-398؛ بن رمضان، صالح، " الأشكال التعبيرية في رسائل الجاحظ الأدبية "، حوليات الجامعة التونسية، ع29، 1988، ص7-37؛ حافظ، صبري، " التناص وإشارات العمل الأدبي "، في أفق الخطاب النقدي: دراسات نظرية وقرارات تطبيقية، ط1، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 1996، ص47-66.

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج1، ص127.

وَأَعَزَّ مُنْتَقِمٍ وَأَذْرَكَ طَالِبٍ
 بسوادها فَوْقَ الْفَضَاءِ النَّاضِبِ
 عُبْرَ الْهَوَاجِرِ كَالْهَزْفِ الْخَاضِبِ
 فِي الْجَبَدِ مِنِّي مِثْلَ سِمْطِ الْكَاعِبِ
 صُيَّابَةَ مَلْقُومٍ غَيْرِ أَشَايِبِ
 تَسْتَنْ فَوْقَهُمْ ذُيُولُ حَوَاصِبِ
 كَانُوا الْغِيَاثَ مِنَ الزَّمَانِ اللَّاحِبِ
 جُرَعِ الرَّدَى بِمَخَارِصٍ وَقَوَاصِبِ

يَا خَيْرَ مُعْتَمِدٍ وَأَمْنَعِ مَلْجَأٍ
 جَاءَتْكَ وَافِدَةُ التَّكَالَى تَغْتَلِي
 عَيْرَانَةَ سُرْحِ الْيَدَيْنِ شِمْلَةَ
 هَذِي خَنَاصِرُ أُسْرَتِي مَسْرُودَةً
 عَشْرُونَ مُقْتَبَلًا وَشَطْرُ عَدِيدِهِمْ
 طَرَقَتْهُمْ أُمَّ اللَّهِيمِ فَأَصْبَحُوا
 جَزْرًا لِعَافِيَةِ الْجَوَامِعِ بَعْدَمَا
 قَسَمَتْ رِجَالُ بَنِي أَبِيهِمْ بَيْنَهُمْ

إن الخبر النثري يقدم لنا جزءاً ما جاء في الشعر: مناسبة مجيء خويلدة، وقول هذه الأبيات، إلا أنه يذكر لنا شيئاً لا أثر له في الشعر، وهو تحذير زبراء الكاهنة بني رثام، ومحاولة إقناعهم بتجنبها بقدم الشر، كما أن الشعر يضطلع بدور في تطوير الحركة السردية، وكان يمكن أن يعوض عبارات من قبيل، فقصت عليه ما حدث لقومها، وحرصته على الأخذ بالثأر.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في الحديث الذي يذكر أن صهر سالم بن قحطان العنبري، " أتاه فأعطاه بغيراً من إبله وقال لامرأته: هاتي حَبْلًا يَفْرُنُ بِهِ مَا أَعْطَيْنَاهُ إِلَى بَعِيرِهِ، ثم أعطاه آخر وقال: هاتي حَبْلًا آخَرَ، ثم أعطاه ثالثاً وقال: هاتي حَبْلًا، فقالت: مَا بَقِيَ عِنْدِي حَبْلٌ، فقال لها، عَلَيَّ الْجَمَالُ وَعَلَيْكَ الْحَبَالُ، ثم قال (1):

لِكُلِّ بَعِيرٍ جَاءَ طَالِبُهُ حَبْلًا	لَا تَعْدِلِينِي فِي الْعَطَاءِ وَيَسِّرِي
وَلَمْ أَجْتَرِمُ جُرْمًا فَقُلْتُ لَهَا مَهْلًا	لَقَدْ بَكَرْتُ أُمَّ الْوَالِيدِ تَلُومَنِي
إِذَا شَبَعْتُ مِنْ رَوْضِ أَوْطَانِهَا بَقْلًا	فَأِنِّي لَا تَبْكِي عَلَيَّ إِفَالَهَا
وَلَا مِثْلَ أَيَّامِ الْحُقُوقِ لَهَا سُبْلًا	فَلَمْ أَرِ مِثْلَ الْإِبِلِ مَا لَأَلْمُقْتَنِ
أَصَاخْتُ فَلَمْ تَأْخُذْ سِلَاحًا وَلَا نَبْلًا	إِذَا سَمِعَتْ آذَانَهَا صَوْتَ سَائِلِ

إن المتأمل لهذا الحديث يلحظ أمرين: أولهما أن الخبر جاء من سرد الشعر، فقد استغل السارد لجوء الشاعر إلى سرد قصته مع الشخصيتين: زوجته وأخيها

(1) القالي، كتاب الأمالي، ج 2، ص 4.

شعراً، ليصنع منه خبيراً أدبياً يتقدم الشعر، وهو أمر كما جاء في المثال الآخر يجعل الشعر امتداداً للخبر، ومكوناً من مكونات بنيته السردية⁽¹⁾. ذلك أن النص الشعري يكتنز في داخله طاقات إيحائية كبيرة، ويحمل ظلالاً عميقة تسهم في تعددية المعاني واستثارة المتلقي، وهو أمر يختص بالشعر دون النثر، ذلك أن الوظيفة الأساسية للغة الشعر أن تحمل طاقات مفعمة بالإيحاء، وباعثة على الدهشة والتأثير⁽²⁾.

-
- (1) انظر: القاضي، محمد، الخبر في الأدب العربي: دراسة في السردية العربية، منشورات كلية الآداب، منوبة، 1998، تونس، ص 548-550.
- (2) انظر: رواشدة، سامح، منازل الحكاية، دراسات في الرواية العربية، دار الشروق، عمان، 2005، ص148؛ بيير، هنري، الأدب الرمزي، ترجمة هنري زغيب، ط1، منشورات عويدات، بيروت، 1981، ص11؛ إبراهيم، نبيلة، نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، مكتبة غريب، القاهرة، د.ت.، ص29-30.

الخاتمة

لقد كشفت هذه الدراسة من خلال تحليل نصوص السرد النسوي في أحاديث ابن دريد عن أن هذا السرد يتميز بحضور الأنثى في هذه الأحاديث حضوراً فاعلاً ومؤثراً، ومشاركتها في السرد على وجوه متنوعة، وبمستويات متعددة، من خلال أدوارها وأوضاعها الاجتماعية المختلفة؛ وذلك وفق طبيعة التكوين الثقافي والاجتماعي للمرأة. وقد تجلت علاقة المرأة بالسرد، من خلال ثلاثة أبعاد رئيسية، تتمحور كلها حول وعي المرأة بذاتها ودورها، وتتكامل في آن واحد، حتى لتصل – أحياناً – إلى درجة التوحد، وهي أن تكون المرأة منتجة للخطاب السردى الداخلى ومستحوذة على إنتاج مسرودها، وثانيها أن تكون المرأة موضوعاً للخطاب السردى الذكري والأنثوي معاً، وثالثها المرأة متلقية للخطاب السردى.

كما كشفت الدراسة عن الامتداد المكاني والزمني للسرد النسوي، من خلال تحليل الإشارات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والتصريحات المباشرة أحياناً، والتلميحات الضمنية أحياناً أخرى، إلى أمكنة متعددة من جنوب الجزيرة العربية، ووسطها إلى الشام، ومن غربي الجزيرة العربية، والحجاز ونجد وشرقي الجزيرة إلى خراسان، ومن المنطقة الممتدة من البصرة إلى نجد والحجاز وغيرها، وإلى أزمنة مختلفة تمتد من الماضي البعيد الذي يتمثل في زمن الحميريين والتبابعة في جنوب الجزيرة العربية، وهي أزمنة موعلة في القدم، وما تلاها من العصر الجاهلي في وسط الجزيرة العربية وشمالها، والماضي القريب الذي يتمثل في ما قبل ظهور الإسلام بقليل، وزمن النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين. والحاضر بمعناه الواسع ويشمل العصر الأموي ومطلع العصر العباسي.

وبينت الدراسة أن السرد النسوي في أحاديث ابن دريد جاء فناً جامعاً لمجموعة من الأنواع الأدبية، مثل الخبر القصصي وغير القصصي والحكاية والنادرة والقصة، وهو يعتمد على الحدث القصصي، والتسلسل، والحبكة، والوصف والحوار، وقد تباينت هذه الأشكال الأدبية في درجة حضور هذه العناصر فيها.

وأوضحت الدراسة من خلال ربط متون الأحاديث ذات الصلة بالمرأة بسياقها التاريخي والثقافي والمكاني التي جرت فيها أن موضوعات الخطاب النسوي قد

تشعبت تبعاً لتشعب جوانب الحياة في المجتمعات التي اتصلت بها الأحاديث، وواقع المرأة العربية فيها، من حيث الامتداد الزمني والمكاني، وقد جاءت هذه الموضوعات في خمس مجموعات متجانسة بحسب مضامينها وتقاربها في أغراضها، هي: عالم الغيب والمرأة المتمثل بعالم الكهانة، والعرافة، واتصال البشر بالجن، ومعرفة أحوال السماء وتقدير فرص سقوط المطر. والمرأة وشؤون القبيلة والمجتمع من خلال إدارة شؤون الرعية، وموقف المرأة من بعض جوانب الصراع السياسي الذي نشب بين كبار المسلمين حول السلطة.

وبينت الدراسة أن السرد النسوي عالج بعض القضايا التي كانت المرأة تنهت تحت وطأتها في المجتمع، كالطلاق وما يترتب عليه من خلاف حول حضانة الأطفال، ونظرة المجتمع السلبية إلى حب الفتاة، وغياب الوعي الاجتماعي اللازم لطبيعة الأنثى. وحرمان المرأة الحرية في اختيار زوجها وغير ذلك من المشكلات التي تعود إلى ظروف مختلفة وأسباب متعددة ومفاهيم كثيرة، ينبع كثير منها من التقاليد والأعراف الاجتماعية السائدة، وينبع بعضها الآخر من التصرفات السلبية للأشخاص المحيطين بالمرأة. وعلى الرغم من أن تلك القضايا قد عكست واقع أشخاص محددين في المجتمع، فإنها تعبر بشكل عام عن حالة اجتماعية كانت سائدة في مجتمعهم، وهمومه وقضاياهم بشكل عام. وقد نبغ حديث المرأة عن هذه القضايا من مصدرين هما: التجربة الشخصية للمتحدثة، والأعراف والعادات والتقاليد المتصلة بالبيئة التي كانت تعيش فيها.

وتوصلت الدراسة إلى أن ابن دريد حرص في أحاديثه عامة على النمط التقليدي السرد الذي سار عليه أصحاب أدب الأخبار عامة في افتتاح أخبارهم بجملة الاستهلال السردية: حدثت، أو أخبر أو ما شابهها، ويعود ذلك إلى أن المشافهة شكّلت في عصر ابن دريد الإطار العام للعقل العربي، والوسيلة المهمة لحفظ التراث العربي على الرغم من تدوينه، إذ ظل الإسناد وضرورة ذكر الراوي لاسم من روى عنه شرطاً أساسياً في عملية التعليم والتعلم. وأن ابن دريد قد عمد في طريقة إيراده الرواة الذين نقل عنهم إلى طريقتين، أولهما: المحافظة على إيراد سلسلة إسناد الرواة الذين نقل عنهم معظم أحاديثه. وثانيهما: التخفيف من الرواية التقليدية في ما انتهى

إلينا من أحاديثه التي أوردتها في أماليه، فقد عمد إلى التحلل بدرجة كبيرة من سلسلة الإسناد، وتقليصها إلى راوٍ واحدٍ.

وأوضحت الدراسة أن السرد النسوي جاء في ثلاثة مستويات مختلفة، تتمثل في الراوي الذي روى من ذاكرته وما استقر في وعيه من معلومات حول حوادث وشخصيات معينة، حيث تكفل بمهمة تقديم الرواية، كما ترسبت في ذاكرته ووعيه نقلاً عن آخرين. كما تتمثل في الراوي المشارك في حوادث الحديث ووقائعه بنفسه، الذي تولّى مهمة متابعة بطل الحديث وغيره من الشخصيات السردية وسرد حكايته، فهو شاهد عيان لمجريات الوقائع والأحداث. وتتمثل أيضاً في الراوي الذي قام بدور البطولة وروى ما جرى معه، حيث يقوم الراوي المعلوم الأخير في سلسلة الرواة الذين نقل عنهم الخطاب السردى بتقديم بطل السرد ويوكل إليه فيما بعد مهمة سرد حكاية ما إلى جانب بطولته.

وبينت الدراسة أن شخصيات السرد النسوي جاءت مختلفة من حيث صفاتها وسلوكها وأفعالها، وأهمية حضورها في السرد أو دورها في أحداثه، وقد انقسمت هذه الشخصيات إلى فئتين هما: الشخصيات المركزية أو الرئيسية التي تقوم بدور البطولة، وهي شخصية متكاملة ومتطورة لا تلتزم الثبات، ويقدمها النص بتفصيلات دقيقة تمكن المتلقي من رسم صورة واضحة لها، والشخصيات الثانوية أو المسطحة التي تبقى على وتيرة واحدة لا تتغير ولا تتبدل في عواطفها ومواقفها وأطوار حياتها بعمامة، وهي تؤدي أدواراً ثانوية، ثم تختفي عن مسرح الأحداث.

وكشفت الدراسة عن أن السارد استطاع أن يعالج الأحداث التاريخية معالجة فنية، في إطار زمني مُتخيّل للنص السردى، يعتمد فيه على السرد الاسترجاعي؛ لأحداث جرت قبل عملية السرد بسنين بعيدة جداً، وقد كشفت الدراسة عن ملامح الزمن الفني الذي قامت عليه نصوص الخطاب السردى، وبينت أن عملية السرد لم تراع النظام الزمني نفسه للأحداث كما يتصور أنها وقعت، فقد استخدم السارد التقنيات السردية المختلفة في بناء سرده مثل التسريع السردى الذي يقوم على الحذف والخلاصة أو التلخيص، والتبطين السردى الذي يقوم على الوقفة أو الاستراحة والمشهد، إلى جانب الاسترجاع والاستباق.

وأوضحت الدراسة أن السّارد في الخطاب النسوي سعى إلى استخدام النثر الإيقاعي المسجوع، من خلال توظيف الألوان البلاغية المختلفة كالمقابلة والمائلة، والطباق والجناس والتقسيم والسجع والازدواج، إضافة إلى تجزئة عباراته وجمله إلى أجزاء مبنية على التوازي والتكافؤ والتناظر الكلي أو الجزئي بين عناصرها، وذلك على المستويات الصوتية والنحوية والمعجمية والدلالية وغيرها، وهي أدوات فنية اكتسب بها النثر السردي طابع الإيقاع، واقتربت بها المسافة بينه وبين الشعر.

المراجع

- إبراهيم، إياد عبدالمجيد، (1989). الأَصْمعي وجهوده في رواية الشعر العربي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد.
- إبراهيم، عبدالله، (1992). السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- إبراهيم، نبيلة، (1984). " القارئ في النص: نظرية التأثير والاتصال "، مجلة فصول المصرية، المجلد5، العدد1، ص98-112.
- إبراهيم، نبيلة، (1984). " لغة القص في التراث العربي القديم "، مجلة فصول، يناير - فبراير، مارس، م2، ع2، ص6-20.
- إبراهيم، نبيلة، (د.ت). نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، مكتبة غريب، القاهرة.
- الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبدالرحمن (ت577 هـ—)، (1967). نزهة الألباء في طبقات الأديباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
- بحراوي، حسن، (1990). بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- ابن بسام، أبو الحسن علي (ت542 هـ—)، (1978). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 4ق/8م، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- بكر، أيمن، (1998). السرد في مقامات الهمذاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- بلبع، عبد الحكيم، (1975). النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ط3، مكتبة وهبة، القاهرة.
- بو حجام، محمد بن قاسم، (1432هـ / 2011م). " دراسة في أحاديث ابن دريد"، في ابن دريد الأزدي: أعلم الشعراء وأشعر العلماء، منشورات جامعة آل البيت، ج3. ص 1627 - 1630.

بيير، هنري، (1981). الأدب الرّمزي، ترجمة هنري زغيب، ط1، منشورات عويدات، بيروت.

الترمانيني، عبدالسلام، (1998). الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام: دراسة مقارنة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

جاد المولى، محمد، والبجاوي، علي محمد، وإبراهيم، محمد أبو الفضل، (د.ت.). أيام العرب في الجاهلية، دار الفكر.

جبار، سعيد، (2004). الخبر في السرد العربي: الثوابت والمتغيرات، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، بيروت.

الجديع، خالد بن محمد، (2001). المقامات المشرقية، دن، الرياض.

جريبه، آلان روب، (د.ت.). نحو رواية جديدة، ترجمة مصطفى إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.

ابن جعفر، قدامة (1933). نقد النثر، تحقيق طه حسين، القاهرة.

جنيت، جيرار، (1992). السرد والوصف، ترجمة فهد يونس، مجلة الثقافة الأجنبية، وزارة الثقافة والإعلام، العدد 2، السنة 12، ص 145-158.

جنيت، جيرار، (1997). خطاب الحكاية: بحث في المنهج، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر الحلي، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، المجلس الأعلى للثقافة والفنون.

حافظ، صبري، (1996). "التناص وإشارات العمل الأدبي"، في أفق الخطاب النقدي: دراسات نظرية وقراءات تطبيقية، ط1، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 47-66.

حالو، شمس الإسلام أحمد، (2010). ديوان الشعراء المعمرين: أخبارهم وأشعارهم في الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت 456هـ)، (2008). طوق الحمامة في الألفة والآلاف، تحقيق إحسان عباس، منشورات وزارة الثقافة، عمان.

الحسين، أحمد جاسم، (د.ت). **القصة القصيرة جداً**، دار عكرمة للطباعة والنشر، دمشق.

الحُصريّ، أبو إسحق إبراهيم بن علي الحُصريّ القيرواني (ت 453 هـ / 1061م)، (د.ت). **زهر الآداب**، دار الفكر العربي، تحقيق محمد علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، القاهرة، ج 2.

الحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت 626هـ)، (1957). **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت.

الحميري، أبو عبدالله محمد، (1984). **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت.

الحوسني، عبد الحي بن علي سيد أحمد، (2004). **نثر المرأة من الجاهلية إلى نهاية القرن الأموي ج 1**، دراسة وتحقيق، المجمع الثقافي، أبو ظبي.

خالد، عدنان عبد الله، (1986). **النقد التطبيقي التحليلي**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

خضر، عادل، (1994). " **صناعة النادرة، بحث في بلاغة الهزل** "، الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم: أعمال الندوة التي نظمها قسم اللغة العربية في كلية الآداب، جامعة منوبة، من 22 إلى 24 أبريل 1999، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681هـ)، (1968). **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، ج 6، دار صادر، بيروت.

خليفة، علي محمد السيد، (2010). **بنية السرد في النادرة (نوادير الأعراب في كتاب عيون الأخبار نموذجاً)**، ط 1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية.

درويش، أحمد، (1994). **البناء الفني لأحاديث ابن دريد وأصداؤه في مقامات بديع الزمان الهمذاني، فصول، م 13، ع 3، ص 20-39.**

درويش، أحمد، (2004). ابن دريد رائد فن القصة العربية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ)، (1978). "من أخبار أبي بكر ابن دريد"، تحقيق عبدالحسين المبارك، مجلة المورد، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، م 7، ع 1، ص 153-170.

ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ)، (1984). تعليق من أمالي ابن دريد، تحقيق السيد مصطفى السنوسي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت 321هـ)، (1992). كتاب وصف المطر والسحاب وما نعتته العرب الرواد من البقاع، تحقيق عزالدين التيوخي، دار صادر، بيروت.

دعبول، رضوان، (1998). تراجم أعلام النساء، مؤسسة الرسالة، بيروت. دوم، خيرى، (2001). "من مصطلحات السرد العربي" مصطلح الحديث: محاولة للتأصيل"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، م 61، ع 1، يناير، ص 243-256.

راغب، نبيل، (1990). فن التأليف الروائي، مكتبة نهضة مصر، دار مصر للطباعة، القاهرة.

ربابعة، موسى، (1998). "هندسة القصيدة: قراءة في ظاهرة التوازي في قصيدة للخنساء"، في قراءة النص الشعري الجاهلي، مؤسسة حمادة ودار الكندي، إربد.

أبو رحمة، خليل صالح، (2012). "مقدمة لقراءة بديع الزمان الهمذاني"، في لهب المعرفة: من قضايا الأدب والفكر في التراث العربي، دار الكتاب الثقافي، إربد.

ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (ت 456هـ/1063م) (1991)، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، جمعه وحققه محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

ابن رمضان، صالح، (1988). " الأشكال التعبيرية في رسائل الجاحظ الأدبية "،
حوليات الجامعة التونسية، ع29، ص7-37.

ابن رمضان، صالح، (2001). الرسائل الأدبية من القرن الثالث إلى القرن الخامس
للهجرة (مشروع قراءة إنشائية)، منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة،
تونس.

ابن رمضان، فرج، (2001). الأدب العربي ونظرية الأجناس القصص، ط1، دار
محمد علي الحامي، صفاقس، تونس.

رواشدة، سامح، (2005). منازل الحكاية، دراسات في الرواية العربية، دار
الشروق، عمان.

الرواشدة، سامح، (1998). "التوازي في شعر يوسف الصايغ وأثره في الإيقاع
والدلالة"، في أبحاث اليرموك: سلسلة الآداب واللغويات، م16، ع2، ص9-
33.

الرويلي، ميجان، و البازعي، سعد، (2007). دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي
العربي، بيروت، الدار البيضاء.

ريكور، بول، (2006). نظرية التأويل والخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد
الغانمي، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت.

الزبيدي، أبو الفيض السيد محمد المرتضى (ت 1790هـ—)، (1966). تاج
العروس من هوامش القاموس، دار صادر، بيروت.

الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 379هـ—)، (1973). طبقات النحويين
واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.

ستار، ناهضة، (2003). بنية السرد في القصص الصوفي، المكونات والوظائف،
والتقنيات، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

سليمان، موسى، (1956). الأدب القصصي عند العرب، منشورات دار الكتاب
اللبناني - مكتبة المدرسة-، بيروت.

الساوي، أحمد، (2002). فن السرد في قصص طه حسين، منشورات كلية الآداب
والعلوم الإنسانية بصفاقس.

السنجلاوي، إبراهيم موسى، (1987). " العاذلة في الشعر الجاهلي "، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر، جامعة الكويت، م 7، ع 28، خريف، ص 35-58.

السنوسي، السيد مصطفى، (1993). ابن دريد حياته وتراثه اللغوي والأدبي؛ دار الآداب، القاهرة.

أبو سويلم، أنور، (1987). المطر في الشعر الجاهلي، دار عمار، عمان، ودار الجيل، بيروت.

السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت911هـ/1505م)، (1964). بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة.

السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت911هـ/1505م)، (1987). المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت. الشاروني، يوسف (1989). دراسات في القصة القصيرة، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق.

الشاروني، يوسف (2008). الحكاية في التراث العربي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

شرف، عبدالعزيز، (1992). الأدب الفكاهي، الشركة المصرية العالمية (لونجمان)، القاهرة.

شريم، جوزيف ميشال، (1987). دليل الدراسات الأسلوبية، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.

الشكعة، مصطفى، (1973). بديع الزمان الهمذاني: رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة.

شلبي، طارق، (2009). " بلاغة السرد النسوي للكاتب محمد عبدالمطلب"، مجلة "فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع 75 شتاء-ربيع، ص 144-148.

الشهري، محمد بن ناصر، (1432هـ / 2011م). " شخصية ابن دريد من خلال شعره "، في ابن دريد الأزدي: أعلم الشعراء وأشعر العلماء، منشورات جامعة آل البيت، ج1، ص 13-31.

الشوابكة، محمد علي، (2006). السرد المؤطر في رواية النهايات لعبد الرحمن منيف: البنية والدلالة، منشورات أمانة عمان الكبرى، عمان.

الصائغ، وجدان، (2004). الأثني و مرايا النص مقارنة تأويلية لبلاغة الخطاب النسوي المعاصر، مكتبة نينوي، دمشق.

صبرة، أحمد، " (1997). جوانب من شعرية الرواية: دراسة تطبيقية على رواية " الحب في المنفى " لبهاء طاهر "، فصول، العدد 4، المجلد 15، شتاء، ص 42-64.

الصفار، ابتسام، (2011). " ابن دريد رواية وأديباً "، في ابن دريد الأزدي أعلم الشعراء وأشعر العلماء، إعداد وتحرير عليان الجالودي، وكمال مقابلة، منشورات وحدة الدراسات العمانية، جامعة آل البيت، ص 1529-1549.

ضيف، شوقي، (1964). فن المقامة، دار المعارف، القاهرة.

ضيف، شوقي، (1960). الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ص 38.

عباس، إبراهيم، (2002). تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية: دراسة في بنية الشكل، المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار، الجزائر.

عبد الواحد، عمر محمد، (2005). شعرية السرد: تحليل الخطاب السردية في مقامات الحريري، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا.

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد (ت328هـ / 939م)، (1988). العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، القاهرة.

عبيد، علي، (1433هـ / 2012م). " في تحليل النص السردية القديم: النادرة أنموذجاً "، في الراوي: دورية تعنى بالسرديات العربية، النادي الثقافي بجدة، ع 25، سبتمبر/ شوال ، 33-58؛ ص 33-34.

علاونة، شريف راغب، (2005). عمرو بن بَرّاقَة الهمداني " من مخزرمي
الجاهلية والإسلام ": سيرته وشعره، دار المناهج، عمان.
علوش، سعيد، (1985). معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، دار الكتاب
اللبناني، بيروت.
علي، جواد، (1968). المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتبة دار العلم
للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة، بغداد.
العلي، رشا ناصر، (2009). " ركائز السرد النسوي وخصائصه "، مجلة فصول،
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع 75 شتاء-ربيع، ص 149-153.
العمامي، محمد نجيب، (2005). في الوصف بين النظرية والتطبيق، دار محمد بن
علي للنشر، صفاقس الجديدة.
عمارة، حليلة أحمد، (2012). أسلوب القسم في العربية دراسة وصفية إحصائية،
حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت،
م33، ع 369، ص 54-72.
العمري، محمد، (1999). البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها، ط1، أفريقيا
الشرق، الدار البيضاء.
غبور، وليد، (2011). " الإبداع القصصي لابن دريد الأنباري بين التأثر والتأثير "،
في ابن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء، تحرير عليان الجالودي، وكمال
المقابلة، منشورات وحدة الدراسات العمانية، جامعة آل البيت، ج3، ص
1597-1598.
الغذامي، عبد الله، (1996). المرأة واللغة، ط1، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار
البيضاء، بيروت.
الغزالي، عبدالله محمد، (2000). " البناء السرد في مقامات جلال الدين ابن
دريد"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع69، ص152-187.
فاعور، إكرام، (1983). مقامات بديع الزمان الهمداني وعلاقتها بأحاديث ابن
دريد، دار اقرأ، بيروت.

فراي، نورثراب، (1990). **المعنى الأدبي من الظاهرانية إلى التفكيكية**، ترجمة
يونييل يوسف عزيز، دار المأمون، بغداد.

فراي، نورثراب، (1991). **تشريح النقد: محاولات أربع**، ترجمة محمد عصفور،
منشورات الجامعة الأردنية، عمان.

فضل، صلاح، (1992). **بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة**،
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 304.

فهد، توفيق، (2007). **الكهانة العربية قبل الإسلام**، ترجمة حسن عودة ورندة
بعث، مراجعة توفيق فهد وزياد مدني، تقديم الترجمة العربية رضوان السيد،
شركة قدمس للنشر والتوزيع، بيروت.

فورستر، م. (1960). **أركان القصة**، ترجمة كمال عياد، دار الكرنك، القاهرة.

القاسم، سيزا، (1990). **بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، ط1**،
دار التتوير للطباعة والنشر، بيروت.

القاضي، محمد، (1998). **الخبر في الأدب العربي: دراسة في السردية العربية**،
منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس.

القالبي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت 356هـ—)، (د.ت). **كتاب الأمالي**، دار
الكتاب العربي، بيروت.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت 276هـ—/889م)، (1969). **المعارف**،
تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة.

القفطي، أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (ت 646 هـ—) (1970).
المحمدون من الشعراء وأشعارهم، تحقيق حسن معمري، مراجعة حمد
الجاسر، دار اليمامة الرياض.

القيسي، فايز، (2011). "جماليات خطاب النسوة في أحاديث ابن دريد: حديث
زبراء الكاهنة مع بني رثام أنموذجا"، ابن دريد الأزدي أعلم الشعراء
وأشعر العلماء"، في ابن دريد الأزدي أعلم الشعراء وأشعر العلماء، إعداد
وتحرير عليان الجالودي، وكمال مقابلة، منشورات وحدة الدراسات العمانية،
جامعة آل البيت، ص 1563-1588.

- الكتبي، محمد بن شاعر (ت 764هـ/ 1363م)، (1973). فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت 774هـ/ 1327م)، (1979). السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر، القاهرة.
- كحالة، عمر رضا، (1991). أعلام النساء، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- كليطو، عبد الفتاح، (1993). مسألة القراءة، في كتاب " المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية"، دار توبقال، الدار البيضاء.
- كليطو، عبدالفتاح، (1993). المقامات: السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبدالكبير الشرفاوي، دار توبقال للنشر، بلقدير، الدار البيضاء.
- كوهن، جان، (1986). بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.
- لحمداني، حميد (1993). بنية النص السرد من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- مبارك، زكي، (1975). النثر الفني في القرن الرابع الهجري، دار الجيل، بيروت.
- المبييضين، ماهر أحمد، (2003). الأسرة في الشعر الجاهلي: دراسة موضوعية وفنية، ط1، دار البشير، عمان.
- مرتاض، عبدالملك، (1998). في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 240، ديسمبر/ كانون الأول.
- المرتضى، الشريف (ت 436هـ-)، (1967). أمالي الشريف المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت.
- المرزوقي، سمير، وشاكر، جميل، (1986). مدخل إلى نظرية القصة تحليلاً وتطبيقاً، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد.
- المسدي، عبدالسلام، (1977). الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس.
- المسدي، محمد، (1996). الإيقاع في السجع العربي: محاولة تحليل وتحديد، نشر وتوزيع مؤسسات عبدالكريم بن عبدالله، تونس.

مصطفى، أحمد، أمين (1991). فن المقامة بين البديع والحريري وابن دريد، ط1، د.ن.

مطلوب، أحمد، (1987). معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد.

ابن منبه، وهب، (ت 114هـ)، (1979). التيجان في ملوك حمير برواية أبي محمد بن عبد الملك بن هشام الحميري، مركز الدراسات والأبحاث اليمينية، صنعاء.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ)، (د.ت). لسان العرب، دار صادر، بيروت.

الموافي، ناصر عبدالرازق، (1992). القصة العربية: عصر الإبداع، ط1، الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة.

ناجي، سوسن، (2006). صورة الرجل في القصص النسائي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

النجار، محمد رجب، (2002). من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي، ج2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.

النجار، محمد رجب، (1991). النثر العربي القديم: من الشفاهية إلى الكتابية، ط1، دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع، الكويت.

نجم، محمد يوسف، (1959). فن القصة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت. ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أسحق (ت 438هـ)، (1978). الفهرست، دار المعارف، بيروت.

نعناع، محمد فؤاد، (2005). " العاذلة في شعر الجاهلية وصدر الإسلام دراسة في التشكيل الفني "، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، م 25، ع 99 - 100، تشرين الأول - رمضان 1426، ص 94-119.

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت 218هـ)، (1991). السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، دار الخير، بيروت.

ياقوت الحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت 626هـ—)، (1936). **معجم الأديباء**، تحقيق أحمد فريد الرفاعي، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

ياقوت الحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت 626هـ—)، (1957). **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت.

ياكسون، رومان، (1988). **قضايا الشعرية**، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، دار البيضاء.

ياكسون، رومان، (1990). **أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب**، ترجمة فالح صدام الإمارة، وعبد الجبار محمد علي، مراجعة مرتضى باقر، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

يقطين، سعيد، (1997). **الكلام والخبر: مقدمة للسرد العربي**، المركز الثقافي العربي، المغرب.

اليوسفي، محمد لطفي، (2005). **كتاب المتاهات والتلاشي في النقد والشعر**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.